د. ليلى الصباغ

المجتمع العربي السوري

في

مطلع العهد العثماني

ليلى الصباغ

المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني

منشورات وزارة الثقافة

دمشق ـــ ١٩٧٣

مقدمة

يلاحظ عند دراسة التاريخ العربي الحديث ان هناك ثغرات في تاريخ الوطن العربي بعامة وسورية بخاصة لايعمل المؤرخون العرب على سدها بالدراسة والتمحيص. ومن أبرز هذه الثغرات تاريخ سورية في مطلع العصور الحديثة او في النصف الاول من القرن السادس عشر عندما انتقلت هذه البلاد من سلطة المماليك لتقع في قبضة الاتراك العثمانيين وتتأقلم بنظمهم لأربعة قرون كاملة . فهذه المرحلة من تاريخ سورية مرحلة غامضة في الاذهان على الرغم من اهميتها الكبرى في تاريخ الشرق الأدنى بعامة، والوطن العربي كله بخاصة، وسورية منه بالذات . وتتركز تلك الأهمية في النقاط التالية :

أولاً – تمثل هذه المرحلة الزمنية نهاية المطاف في المقاومة الرائعة التي ابداها المجتمع العربي في سورية ومصر تجاه التحديات العنيفة التي هزت وجوده منذ أواخر القرن الحادي عشر، ممثلة بالحملات الصليبية ثم بالغزوات التترية . فبعد ان تمكن من اخراج الصليبيين من أرضه، ورد التتر عنها ، تراخت قواه امام طرقات الاتراك العثمانيين، فوقع تحت سلطانهم ليعيش تابعاً لهم، وفي نطاق امبراطوريتهم اربعة قرون كاملة . وبذلك كانت هذه المرحلة هي التي أعطت لهذا المجتمع صورته الادارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي طالعنا بها – مع ترميمات ضئيلة – في القرن التاسع عشر والتي قد لانزال نعيش في بعض من بقاياها الى الآن .

ثانياً – انها المرحلة التي تم فيها الصدام – بتعبير المؤرخ توينبي (١) – بين المجتمعين الايرانيين المسلمين، القائمين آنذاك في كل من آسية الصغرى وبلاد فارس،

---

(١) Toynbee. A Study of History - vol I. pp : 347 - 400

وانتهت بتغلب المجتمع الايراني السني الممثل بـ « الدولة العثمانية » على المجتمع الايراني الشيعي الممثل بـ « الدولة الصفوية » ، وبحجب هذا الاخير عن الامتداد غرباً والوصول الى حوض البحر المتوسط ، ثم بتطويقه حتى غدا جزيرة شيعية منعزلة وسط بحر سني .

ثالثاً – انها المرحلة التي اصطرع فيها المجتمع العربي السني ممثلا بـ «الدولة المملوكية» في مصر وسورية مع المجتمع الايراني السني السالف الذكر ، وانتهى ذلك الصراع بابتلاع المجتمع الاخير للمجتمع الاول وبامتداده على معظم اجزاء الوطن العربي في آسية وافريقية ، وبذلك عادت الى الوطن العربي وحدته السياسية.

رابعاً – تقابل هذه المرحلة الزمنية من تاريخ سورية حدوث تطورات خطيرة وهامة في أوربة كانت أكبر من ثورة في حياة انسانها . وكان لهذه التطورات بالتالي آثارها الكبرى في حوض البحر المتوسط بعامة وفي الوطن العربي بخاصة . فمنذ اواخر القرن الخامس عشر اخذت علامات النهضة الفكرية تظهر في أوربة ، ورافقتها تحولات هامة في الميدان السياسي والاقتصادي ... كالتمايز القومي في اوربة الغربية ، واندفاع كل دولة جديدة للبحث عن مصادر اقتصادية تدعم ذلك الكيان القومي . وجاءت الكشوف الجغرافية التي تزعمتها البرتغال واسبانية لتضع أمام أوربة طرقاً عالمية تقودها بحرية ، ودون وسيط عربي ، الى منتوجات الشرق ، ومنتوجات قارة جديدة بكرهي أمريكة . وهكذا تغيرت طرق التجارة القديمة التي كانت متركزة في البحر المتوسط ، وانتقلت حركة النقل التجاري البحري الى المحيطات ، واختل التوازن السابق ، وكان ذلك « أكبر ثورة في الاقتصاد العالمي »(١) انفلتت فيها السيادة الاقتصادية العالمية من شعوب حوض البحر المتوسط لتتلقفها شعوب غربي أوربة . كما أحييت التجارة عبر الطرق البرية في آسية لتوازي وتوازن الطرق البحرية ، وغدت بلاد فارس والعراق وشمالي سورية محطة من محطات النقل الكبرى بين اوربة من جهة والهند من جهة أخرى .

ومن الطبيعي ان تتأثر البلاد التي يحفها البحر المتوسط وبخاصة ايطالية وبلاد الشام ومصر بهذه الأحداث الضخمة . فامتداد الدولة العثمانية على اجزاء من الوطن

(١) Pirenne : Les Grands Courants de L' Histoire Universelle T . II . P . 315

العربي في هذه المرحلة الزمنية ليس في الواقع حدثاً محلياً منحصراً بأحداث منطقة الشرق الادنى ومنعزلاً عن الاحداث الدولية المشار اليها آنفاً — كما قد يتبادر الى اذهان بعض الباحثين — وانما هو حدث عالمي تأتى من تفاعلات سياسية دولية دخلت في تخمراتها دول اوربية شتى كالبندقية والبرتغال واسبانية ، ودول شرقية كالدولة العثمانية والدولة الصفوية ، والدولة المملوكية ، ولعبت فيها العوامل الاقتصادية دوراً أساسياً .وظهر فيها بشكل حاد التنافس والتناحر الدوليين من أجل السيطرة على البحار ولا سيما المحيط الهندي والبحر المتوسط .

خامساً — في هذه المرحلة التاريخية يتبلور اهتمام اوربة بالوطن العربي بعامة وبسورية بخاصة لا لأنها مقر للأماكن المقدسة المسيحية كما نادى بذلك يوماً الغزاة الصليبيون وانما لأنها منطقة ذات قيمة اقتصادية كبرى لكيان اوربة المتفتحة على ثورتها العارمة . واتضح ذلك في اندفاع العديد من الاوربيين للاقامة في مدن الشام ومصر والعراق وشمالي افريقية العربي ، وفي العمل بالتجارة فيها وسعيهم لتنظيم « مستعمرات » مستقرة او « دويلات صغيرة » ضمن الدولة العثمانية مرتبطة بمواطنهم الاصلية . فهذه المراكز التجارية الاوربية التي انشئت في الوطن العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر لم تكن في الواقع سوى مظهر من مظاهر الاستعمار الاوربي الممتد الى قارات أمريكة وافريقية وآسية في ذينك القرنين . الا انه اتخذ في الوطن العربي طابعاً تجارياً ودياً بسبب قوة الدولة العثمانية الحاكمة آنذاك . فالاستثمار التجاري الذي بغته تلك الجاليات وكانت تمارسه فعلاً في انحاء الوطن العربي استند في بادىء الامر الى اتفاقات ومعاهدات شرعت الدول الاوربية بتوقيعها مع الدولة العثمانية في هذه المرحلة الزمنية . وكانت تلك الاتفاقات معاهدات تجارية عادية بين دولتين ذاتي سيادة الا ان مفهوم هذه المعاهدات تطور مع ضعف الدولة العثمانية فغدت (امتيازات) تتمتع بها الدول الاوربية في ارض الوطن العربي ، و « جوازات رسمية » تتيح لها التدخل في شؤونه واستغلاله اقتصاديا .

وأمام أهمية هذه المرحلة من تاريخ سورية كان لابد للباحث في التاريخ العربي الحديث من طرق بابها والقاء الاضواء على أحداثها ، لتكون معرفة المواطن العربي بحاضره أعمق وأشمل ، والتحكم بمجرياته أقوى وأمكن .

وقد جرت دراسة لهذه المرحلة في رسالة للماجستير تحت عنوان (الفتح العثماني

لسورية ومطلع العهد العثماني فيها) قدمت من قبلي الى جامعة القاهرة عام ١٩٦١ .
وتشمل هذه الدراسة شقين رئيسيين يتمم واحدهما الآخر :

١ – الشق الاول ، ويغلب عليه الطابع السياسي وهو الاحتلال العثماني لسورية وأسبابه ونتائجه .

٢ – الشق الثاني ، ويبحث في التركز العثماني على الارض السورية ، والاوضاع الادارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي رافقته .

وفي كتابنا هذا لن نتطرق الى الشق الاول وانما سنركز على الشق الثاني لما له من صلة مباشرة بحياة الشعب في سورية مع ايجاز لبعض نقاطه التي قد لاتهم سوى الاختصاصي بالتاريخ .

وكل ماناأمله ان تسد هذه الدراسة جزءاً ولو صغيراً من الثغرة ، وان تعطي صورة ذات قسمات واضحة للمرحلة المدروسة ، وان تفتح الباب لاثارة علمية لكثير من القضايا التي تتطلب دراسة أوفى وتمحيصاً أعمق .

دمشق في ١٥ شباط ١٩٧٣

ليلى الصباغ

★ ★ ★

تمهيد

نبذة عن الاحتلال العثماني لسورية وأسبابه

تطالعنا سورية في بداية القرن السادس عشر الميلادي ـ العاشر الهجري ـ مجتمعاً عربياً ، موحداً سياسياً مع مصر في دولة واحـــدة يحكمها (المماليك) . وسورية في بحثنا هذا ليست هي الرقعة الضيقة المساحة التي نطلق عليها اليوم اسم (الجمهورية العربية السورية) وانما هي (بلاد الشام) كما عرفها العرب، وكما درجت على لسان ساكنيها ، او هي مجموع (الشامات)التي اشار اليها القلقشندي[1] ووردت في كتابات العمري[2] .

و (بلاد الشام) هذه هي الوحدة الطبيعية التي يعرفها الجغرافيون باسم (سورية الطبيعية) . وتقوم الى الغرب من آسية ممتدة شرقي البحر المتوسط من جبال طوروس شمالاً الى صحراء سيناء وخليج العقبة جنوباً ومن الجزيرة والفرات وبادية الشام شرقاً الى البحر المتوسط غرباً . اي ان سورية في بحثنا هذا تضم في

(١) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ،ج٤ ص ٩٠

(٢) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٧٦

نطاقها الى جانب الجمهورية العربيـة السـورية لبنان وفلسطين وشرقي الاردن وكيليكيا .

ويتبين من الدراسة التاريخية للأحوال الداخليـــة لسورية في عهد دولة المماليك التي حكمتها قبل الاحتلال العثماني لها مدة قرنين ونصف ونيف (١٢٥٠ – ١٥١٦) ، ان حكم هذه الدولة – على الرغم من انه ساعد على طرد الصليبيين من ارضها ورد غزوات التتر عنها – لم يكن ابداً مدعاة للامن والسلام في ربوعها ، أو موفراً الدعة والرخاء لأهاليها ولا سيما في الفترة الاخيرة منه[١] .

وفي الحقيقة كانت الدولة المملوكية في بداية القرن السادس عشر قـــد قاربت حتفها وبخاصة بعـد ان وصل الى عرشها السلطان (قانصوه الغوري)[٢] (٩٠٦ – ٩٢٢هـ / ١٥٠٠ – ١٥١٦ م) الذي تأزمت الاحوال الاقتصادية في عهده ، واستشرت الفتن الداخلية ، وجار على البلاد بالضرائب والرسوم فارتفعت الاسعار وعم الغلاء . ومن سوء حظه أنه جاء الى الحكم وقد تم للبرتغاليين حديثاً جداً كشف طريق رأس الرجاء الصالح الذي نقل تجارة الشرق من ايدي سورية ومصر الى ايدي المكتشفين الجدد فأصيبت البلاد بنكسة اقتصادية لم تكن يوماً في حسبانها .

وهكذا تطالعنا سورية في بداية القرن السادس عشر باوضاع داخلية مهلهلة وقد احاطت بها قوى دولية فتية تشابكت مصالحها حولها ففي شمالها امتـــدت الامبراطورية العثمانية اليافعة ، وإلى شرقها برزت الامبراطورية الصفوية الشيعية التي أخذت تجرف أمامها بقايا الامبراطورية التيمورية وتحط رحالها في ايران وبلاد

(١) يرجع الى Demombynes (G) : La Syrie à l'époque des Mamelouks d 'après les auteurs Arabes. Paris - 1923

(٢) يرجع الى محمود رزق سليم : قانصوه الغوري .

العراق والى شمالها الغربي عبر البحر المتوسط كان العـــالم الاوربي بتمايزه القومي الجديد قد أخـذ يـستيقظ من جمود عصوره الوسطى ويعيش اخطر ثورة في حياتـه وحياة العالم، ويبني دوله القومـية، وينفتح على آفاق عالم اقتصادي واجتماعي وسياسي جديد . والى غربها يمتد البحر المتوسط وقد تحول الى ميدان صراع : فالبنادقـــة والجنويون في وسطه يحـاولون بشتى الوسائل الاحتفاظ بمراكزهم فيه امام التقـدم الجـامح للدولة العثمانية ، والاسبان في اقصى غربه الشمالي يتابعون مع البرتغاليين حملاتهم الصليبية ضد العرب المسلمين في شمالي افريقية ، والفرنسيون راغبون في تثبيت اقدامهم فيه ومد سيطرتهم على البلاد الايطالـية . والى جنوب سورية تترامى بقية اجزاء الوطن العربي المشرقي الخاضع مثلها لنفوذ المماليك او لسلطان أمرائـه ويقاسي من الضعف الاقتصادي اكثر مما تقاسي، وقد هدد وجوده بالخطر البرتغالي الضخم الذي شرع يزحف بسرعة عليه ويحاول ابتلاعه .

انسورية بحكم موقعها الستراتيجي الهام هذا، وسط تلك القوى المتصارعة لا بد وان تكون هدفاً ترنو اليه تلك القوى ، وفريسة سهلة لأول من يقرع بابهـا غازياً . وكان الطارق الاول الدولة العثمانية .

ولقد اختلف المؤرخون حول الاسباب العميقة التي دفعت هذه الدولة في عهد سلطانها سليم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠ م) الى احتـلال سورية . فمنهم من رأى في الحادث حدثاً داخلياً بحتاً لعب فيه سكان البلاد السوريون دوراً ايجابيـاً . فالمظـالم التي عانوها من حكم المماليك ، والازمة الاقتصادية التي رزحوا تحتها كانت دافعاً لهم للاستنجاد بالدولة العثمانية، الاسلامية السنية ، فاتحة القسطنطينية ومالكة اقوى جيش عرفته دولة آنذاك، وذلك لتخلصهم مما يقاسون فتفاوضوا مع السلطان

سليم على فتح بلادهم [1] .

ومنهم – كالمؤرخ توينبي – من رأى في الاحتلال العثماني لسورية مرحلة ثانية من مراحل الصراع المذهبي العنيف الذي دار في مطلع القرن السادس عشر بين الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية الشيعية . فقد كان من العسير تصفية ذلك الصراع بمجرد هجوم احدى الدولتين على الأخرى والانتصار عليها كما حدث فعلاً في (جلد يران) عام ١٥١٤ م عندما انتصر السلطان سليم على الشاه اسماعيل الصفوي ، وذلك لأن القوتين المتناحرتين متوازنتان. ومن ثم كان لا بد من البحث عن قوة ثالثة تقضي على ذلك التوازن بانضمامها الى احدى تلك الدولتين . وكانت أضعف قوتين قائمتين على مسافات متساوية من تبريز والقسطنطينية دولة (دلغادر)[2] في الجنوب الشرقي من الاناضول على الحدود الشامية، وامبراطورية المماليك في سورية . ولكن الدولة الاولى دولة صغيرة المساحة ولا يمكنها ان تكون ذات وزن في صراع القوى ، ولذا فان الفريسة المنتظرة كانت سورية[3].

---

(١) يرجع الى ابن اياس : بدائع الزهور في روائع الدهور ج ٣ . ص ٥٠
القرماني – اخبار الدول وآثار الاول – مخطوط في دار الكتب المصرية ٢٦٢٦/ت
عيسى اسكندر المعلوف : تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ص ٥ – الهامش
نقلاً عن رواية وردت على لسان رضي الدين الحنبلي وجاء فيها مايلي : (اذ ضجت الرعية من ارهاق المماليك وتفاوضوا مع السلطان على فتح بلادهم) .

(٢) ويسمونها كذلك « ذو القدر » ولكنها وردت في ابن اياس تحت اسم « دلغادر ». دويلة تركمانية الى الشمال من سورية ، وكانت عاصمتها تارة مرعش وأخرى البستان. وقد اسست في منتصف القرن الرابع عشر، وتحالف اميرها مع المماليك واعترف بتبعيته لهم ، كما سعى لكي تبقى علاقاته مع العثمانيين حسنة .

(٣) يرجع الى Toynbee: A study of (History) . Vol I . pp. 347 - 400

وفريق ثالث من الباحثين التاريخيين يرى في الاحداث الاقتصادية العالمية التي كانت تحرك اوربة في مطلع القرن السادس عشر العامل الحاسم في اندفاع الدولة العثمانية الى احتلال سورية وبخاصة منها النزاع على السيادة في البحار ذات القيمة التجارية ولاسيما منها البحر المتوسط والمحيط الهندي . ذلك النزاع الذي أشير اليه في المقدمة آنفاً . فالدولة العثمانية لم تكن بغافلة عن تلك التطورات الخطيرة التي كانت تعيشها اوربة والوطن العربي الاسلامي آنذاك . وقد رأى السلطان سليم ببصره السياسي الثاقب ، ان على الدولة العثمانية ـ اذا ما ارادت لممتلكاتها حفاظاً ـ ان ترمي بثقلها في ذلك الصراع وذلك قبل فوات الوقت . ولا يكون ذلك الا باحتلال سورية . اذ بذلك تحقق عدة اهداف أهمها بسط السيطرة العثمانية على الحوض الشرقي كله للبحر المتوسط ، وابعاد نفوذ البنادقة والجنويين عنه ، والحد من عبث القرصنة الاوربية ، وتأمين المواصلات البحرية للامبراطورية العثمانية وتجارتها ، والاقتراب من الاماكن المقدسة والبحر الاحمر المؤدي الى المحيط الهندي حيث يرتع البرتغاليون . كما ان ذلك الاحتلال يساعدها على مد النفوذ العثماني الى شمالي افريقية المسلم ، وابعاد مطامع اوربة وبخاصة اسبانية عن تلك البقعة الاسلامية ، ومن ثم السيطرة على جنوبي البحر المتوسط واعادة الدولة الاسلامية الى وحدتها السابقة وهيبتها الماضية مع محافظة على صفاء سنيتها، وتخليص لها من التسلط الصفوي الشيعي.
وبالاضافة الى تلك الاهداف فان احتلال سورية يمكنها من منع البرتغاليين من تطويق العالم العربي الاسلامي ، ومن انقاذ الاماكن الاسلامية المقدسة من امكانات عبثهم بعد ان ثبت اخفاق المماليك في هذه المهمة ، ناهيك عن محافظتها على الطريق التجارية (البحر الاحمر ـ المحيط الهندي) مفتوحة أمام التجارة الاسلامية وذلك بالسعي لابعاد البرتغاليين بالقوة عنها ، وتجنيب الدولة العثمانية ذاتها تهديدهم اذا

مانجحوا نتيجة تضافرهم مع الصفويين في التسرب الى بلاد شبه الجزيرة العربية فالبحر المتوسط[1] .

ولسنا هنا بصدد مناقشة تلك الاسباب العميقة التي ادت الى احتلال العثمانيين لسورية ، الا انه يمكن القول ان بعضها قد تضافر ليجرهم الى ذلك الاحتلال وان كانت ايجابية الشعب السوري خارجة منها لأن لاوثائق تاريخية تثبتها .

واذا كان المؤرخون والباحثون قد اختلفوا حول تلك الاسباب فانهم قد اتفقوا على ان السبب المباشر كان تهديد الدولة العثمانية لحدود الدولة المملوكية ، وذلك عندماهاجمت دولة (دلغادر) وضمتها اليها بحجة عرقلتها سير جيوشها اثناء تقدمها لمحاربة الصفويين ، متعاونة في ذلك مع دولة المماليك نفسها . وهكذاقامت الحرب بين الدولتين ، وجرت معركتها الاولى الحاسمة على ارض سورية في سهل « مرج دابق » الى الشمال من مدينة حلب ، وذلك في الـ ٢٤ رجب[2] عام ٩٢٢هـ الموافق الثالث والعشرين من آب عام ١٥١٦ م . وقد اسفرت عن انتصارالعثمانيين ودخولهم المدن السورية ظافرين كما اسفرت عن فرار المماليك الى مصر حيث حاولوا تجميع قواهم والكرة على العثمانيين . الا ان سليما لاحقهم اليها،وفي مشارف القاهرة عند« الريدانية » حدثت المعركة الفاصلة الثانية في حياة الدولة المملوكية

---

(١) يرجع الى ليلى الصباغ : الفتح العثماني لبلاد الشام ومطلع العهد العثماني فيها « رسالة ماجستير قدمت لجامعة القاهرة عام ١٩٦١ » .

(٢) ابن طولون : مفاكهة الخلان . ج ٢ ص ٢٤ بينما يؤكد ابن اياس ، والغزي حدوثها في الـ« ٢٥» رجب .

وذلك في الـ ٢٩ من ذي الحجة عام ٩٢٢هـ الموافق ٢٣ كانون الثاني عام ١٥١٧ م ، وكان النصر فيها مرة اخرى للدولة العثمانية . وبذلك هوت الدولة المملوكية نهائياً ، واستقر للاتراك العثمانيين الأمر في سورية ومصر ، ومنها امتدوا الى شبه الجزيرة العربية والعراق والى شمالي افريقية العربي (ماعدا المغرب) ليبقوا حاكمين قرابة اربعة قرون .



الفصل الأول

التنظيم الاداري العثماني لسورية

لم يكن احتلال العثمانيين لسورية غزواً طارئاً كغزو تيمورلنك لها سابقاً، وانما عمل السلطان سليم الذي دخلها فاتحاً على تثبيت دعائم الحكم العثماني فيها ليكسب فتحه صفة الديمومة والبقاء . وقد اقام فيها اثناء عمليات الاحتلال مايسمح له باقرار مارتآه من تنظيمات تضمن له تحقيق هدفه . ويلاحظ على تلك التنظيمات انه كان يستهدف منها الأمور الآتية :

أولا ــ تأكيد النفوذ العثماني .

ثانياً ــ المحافظة ماامكنه ذلك على الاسس الاقتصادية والاجتماعية والاطر الحياتية التي كانت تعيشها البلاد قبل الفتح العثماني لها .

ثالثاً ــ الاهتمام بتطبيق مبادىء الشريعة الاسلامية وتنفيذ احكامها على المذهب السني الحنفي .

ويبدو ان السلطان سليم قد استوحى تنظيماته من مصدرين لا جدة فيهما اولهما ــ النظم العامة المتبعة في ادارة مختلف اجزاء الامبراطورية العثمانية وثانيها ــ

النظم القائمة في ادارة الامبراطورية المملوكية والسائدة في سورية آنذاك . فهو على الرغم من بقائه في دمشق مايقارب الاشهر الستة (في غدوه ورواحه) ، على الرغم من تجوله في معظم المدن السورية ، وعلى الرغم من اتصاله بفئات الشعب المختلفة ، فانه لم يتعرف بعمق على المشكلات التي تعانيها . ومن ثم فانه لم يحاول ان يضع لها من النظم مايتلاءم مع طبيعتها وقضاياها . فهو قد التجأ اذن الى اسهل الحلول التي تضمن له بقاء تلك البلاد في قبضته ، وتوفر عليه مايتطلبه الجديد من جهد ومال وفكر . وهكذا كانت تنظيماته استمراراً للماضي . ولعله كان متأثراً بان سورية خضعت عهوداً طويلة للحكم العربي الاسلامي ، وكانت يوما ما مقر الدولة الاموية ، وقد تناوبت عليها دويلات اسلامية عدة انضجت من مفهوماتها التنظيمية وجعلتها متطابقة مع متطلبات حياتها . فما عليه هو وقد احتلها الا ان يحافظ على تلك الاجواء الادارية ، وان يجعلها تنسجم مع النظم العثمانية . ولحسن حظه ، لم تكن هناك اختلافات عميقة بين النظم المملوكية السائدة في سورية آنذاك والنظم العثمانية المطبقة في انحاء الامبراطورية . لان كل واحدة منها ترجع في جذورها الى النظم العربية الاسلامية المتأثرة في ركائزها الاولى بالقواعد والاحكام البيزنطية والفارسية .

وهكذا يمكن القول ان السيادة العثمانية على بلاد الشام لم تأت بجديد . وبالتالي فهي لم تحدث فيها هزة او صدمة تجعلها تستيقظ لنفسها او تغير من احوالها ، وانما نقلت البلاد من الركود الحياتي الذي كانت تسير نحوه بخطى سريعة في عهد المماليك الى تجميد حياتي . فهي قد استبدلت فقط سيدا بسيد ، وموظفين بآخر ، لهم جميعاً الغايات نفسها في استغلال تلك البلاد لصالحهم لا لصالح أهلها .

التنظيم الاداري في عهد السلطان سليم

عندما فتح السلطان سليم سورية وجدها مقسمة الى ست مقاطعات اطلق على كل واحدة منها اسم (نيابة) ، وهي نيابة حلب ، ودمشق ، وحماة ،

وطرابلس وصفد والكرك[1] . ولم يغير السلطان سليم في بادىء الأمر اسس هذا التقسيم ، فحافظ على إطار النيابات المملوكية الست إلا انه رفع من شأن بعض المدن فحولها الى مراكز ادارية رئيسية متخذاً الوحدة الادارية العثمانية وهي (السنجق)[2] أساساً للتقسيم بدلاً من الوحدة الادارية المملوكية التي هي (النيابة). وليس هناك في الحقيقة اختلاف جوهري بين مفهومي الوحدتين الا بالتسمية والسعة الاقليمية إذ ان النيابة اقرب بمدلولها الى وحدة الإيالة التي وجدت في عهد السلطان سليمان القانوني بن السلطان سليم[3] . وعلى هذا اصبحت بلادالشام مقسمة في بداية عهد السلطان سليم الى ثمانية سناجق رئيسية هي حلب وحماةوحمص ودمشق ، وطرابلس ، والقدس ، وقد عين عليها حكاماً (بكوات) من الاتراك العثمانيين الذين يثق بهم . إلا ان السلطان سليم قبل عودته الى عاصمة ملكه اجرى تعديلاً على هذا الوضع بان عين (جانبردي الغزالي) الامير المملوكي الذي ساعده اثناء الفتح والياً على دمشق ومد نفوذه على القسم الجنوبي كله من سورية وحتى العريش[4] . وكأنه بذلك قسم بلاد الشام الى قطاعين كبيرين احدهما شماليدمشق ويشرف عليه حاكم حلب وثانيها جنوبها ويشرف عليه حاكم دمشق .

«١» للتعرف على حدود تلك النيابات يرجع الى :
القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا . ج ٤ ص ٩٠ — ٩٧ .

«٢» وتعني « الراية » او « اللواء » .

«٣» ليس هناك وثائق تؤكد تقسيم السلطان سليم بلاد الشام الى « إيالات » سوى الوثيقة التي تشير الى تنظيات الضرائب في « ولاية طرابلس » . وترجع هذه الوثيقة الى عام ٩٢٦ هـ أي « ١٥١٩ — ١٥٢٠ م » أي الى أواخر عهد السلطان سليم .
Mantran &Sauvaget : Réglements Fiscaux ... P. 35

«٤» ابن طولون : مفاكهة الخلان . ج ٢ ص ٨٢ ـ نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة ج ١ ص ١٦٨ .

وقد شمل التنظيم الاداري للسلطان سليم كذلك المدن الصغرى والقرى الكبيرة فعين على كل واحدة منها (صباشيا) يمثل السلطة الحربية ويحفظ الامن والنظام .

والى جانب اهتمام السلطان بتركيز السلطة الادارية العسكرية فانه اظهر عناية كبيرة في تنظيم الخدمة القضائية ، فأرفق بكل (بيك) و (صباشي) عينه على مدينة كبيرة او صغيرة قاضياً من الاروام (الاتراك) على المذهب السني الحنفي، وجعل جميع القضاة تحت امرته . كما ابقى على نظام « الحسبة » واوصى المحتسبين والبكوات والصباشية بتنفيذ احكام القضاة وقراراتهم .

واذا كان السلطان سليم قد وضع المناصب الادارية السالفة الذكر في أيدي الاتراك فمن الطبيعي جداً ان يعهد بالشؤون المالية الى واحد منهم . فعين في كل سنجق (دفتر دارا) ليحصي الاقطاعات وينظم مختلف النواحي المالية .

ويلاحظ ان جميع الموظفين في السنجق يتبعون (البيك) ، فهو يتمتع نظرياً بحق ممارسة جميع السلطات التي يتمتع بها السلطان في العاصمة . فهو صاحب السلطة الحربية العليا في الاقليم الذي يحكمه ، وهو المسؤول عن النظام العام والامن ، والملزم بدفع الخراج للعاصمة ، وهو المشرف الرئيسي على جميع مناحي الادارة . وقلنا (نظريا) لان هناك في الواقع تداخلا في السلطات يضعف من عمل بيك السنجق . فحسابات المقاطعة مثلا تحفظ لدى الدفتردار الذي يعين مباشرة من السلطان، فهو إذن رقيب مالي على امير اللواء (السنجق) . ومع ان البيك يتمتع بسلطات قضائية فان من حق القاضي والعلماء ان يشتكوا مباشرة الى السلطان او البكلربك (امير الايالة المشرف على عدد من السناجق) دون ان تمر شكواهم عليه او يأخذ علماً بها .

وتعتبر تلك التداخلات وهي بطبيعتها معيقة لحسن سير العمل ، ضئيلة الاهمية اذا قورنت بالعلاقات بين البيك والقوى المسلحة في السنجق . فالحكام يمارسون سلطاتهم بمساعدة القوات الاقطاعية الموجودة تحت امرتهم وفي مقاطعتهم مضافاً اليها في مراكز السناجق فرق (الانكشارية) . وقد كان لهذه الفرق قوادها المسؤولون لا امام بيك السنجق وانما امام قوادهم الاعلين في العاصمة فهم شبه مستقلين عن البكوات ويقومون بدور الرقيب عليهم . ولكن هذا لايمنع — وهنا يظهر التداخل غريباً — من ان هذه القوات كانت تقوم بعمل الشرطة في المدن وحماية القلاع على الحدود بأمر من بكوات السناجق .

ويستنتج من ذلك ان السلطان سليم لم يكتف لتأكيد السيطرة العثمانية على سورية بتعين ولاة وقضاة ودفتردارية من الاتراك وبادخال الانماط العثمانية في الادارة — وهي لا تختلف في اختصاصاتها العامة اختلافاً جوهرياً عن النظم المملوكية — بل انه وزع كذلك الجيوش التركية على السناجق كحاميات فيها ، وسعى لتثبيت هذه القوة العثمانية على أرض البلاد المحتلة بربطها بارض تلك البلاد عن طريق اقطاع الخيالة (السباهين) تلك الأرض وشدهم إليها .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان النظام الاداري العثماني يرتبط ارتباطاً وثيقاً وعميقاً بالنظامين الحربي والاقطاعي في الدولة كما كان عليه الحال في النظام الاداري المملوكي . فالدولتان اعتمدتا في نشأتها وتطورهما على الحرب والجيش .. الا ان نقطة الارتكاز التي قام عليها النظام الحربي في الدولة المملوكية تختلف عن تلك التي استند اليها في الدولة العثمانية . اذ ان المحاربين في الدولة المملوكية هم عبيد أرقاء ، دخلاء على البلاد التي يحكمونها ، منذ النشأة الأولى للدولة . بينما كان المحاربون في بدء ظهور الدولة العثمانية الى الوجود، متطوعين احراراً ، من الأتراك

انفسهم[1] . ولكن مع الزمن تشابهت أسس الارتكاز فكلما كانت الفتوحات العثمانية تتسع كانت الحاجة تزداد لاستخدام الارقاء في الجيش وبخاصة ان الأتراك العثمانين كانوا قلة . وغدا الجيش العثماني مع الزمن قسمين : قسم مؤلف من العبيد الارقاء تدفع لهم مرتبات من بيت مال السلطان ، وقسم آخر من الاتراك الاحرار استقر أفراده على اقطاعاتهم وأخذوا حق جمع ضرائبها والاستفادة منها عوضاً عن المرتبات السنوية . وتضاءل عدد المتطوعين بمرور الزمن واصبح لدى السلطان جيش كبير من المأجورين هو في الواقع ملك شخصي له . واذا كان الجيش العثماني قد تشابه بمرور الزمن مع الجيش المملوكي في كون الاثنين يتألفان من عبيد ، فان عبيد الجيش العثماني كانوا من نمط آخر غير عبيد الجيش المملوكي . اذ ان عبيد الجيش العثماني لم يشتروا كلهم بالمال وانما كانت غالبيتهم من أسرى المسيحيين في بلاد اوربة . وعندما امتدت الفتوحات نحو آسيا وغدا معظم الأسرى من المسلمين ، ولم يعد الاسرى المسيحيون يكفون لبناء الجيش العثماني ، التجأت الدولة العثمانية الى طريقة جديدة في الحصول على شباب من المسيحيين ، وذلك بفرضها ضريبة من الفتيان (الدفشرمة) على البلغار والارمن والالبان والصرب ممن تتراوح أعمارهم بين العاشرة والعشرين[2] . وهؤلاء كانوا يفصلون عن أهاليهم ، ويربون تربية خاصة لدى السلطان ، ويدربون تدريباً شديداً ومضنياً على القتـــال ، فينشؤون وهم لا يعرفون أباً لهم سوى السلطان (الخنكار) ، ولا دين سوى الإسلام ، ولا عمل الا الحرب . وأخذ السلاطين العثمانيون مع الوقت يستخدمون اللامعين منهم فكرياً

«١» Belin : Du Régime des Fiefs Militaires dans L'Islamisme et principalement en Turquie J. A. Série 6 , vol 15 - Paris 1870 .

«٢» يرجع الى : Gibb & Bowen : Islamic Socciety & the west Part I . p . 43 -

وحربياً في المناصب الحكومية العليا والمتميزين في ساحات القتال ، في فرق الفرسان ، وأضعفهم كان يدفع به الى فرق المشاة المسماة (الانكشارية). وهكذا سيطر « غير المسلمين » — على حد تعبير بعض المستشرقين — في الدولة العثمانية على الاداة الحربية والاداة الادارية الحاكمة ، حتى ان المسلمين الاحرار أبعدوا عنها أبعاداً تاماً[1] ، أكانوا من الأتراك الأصليين أو من سكان البلاد العربية الاسلامية المفتوحة . ولعل سلاطين بني عثمان وجدوا ان هذه هي الطريقة المثلى لضمان خضوع الشعوب المسيحية لهم ، وقد كانوا قبل الفتوحات الآسيوية اكثر عدداً من الشعوب الإسلامية . فالصدر الاعظم ، والوزراء ، والقواد ، والبكوات أخذوا جميعاً من هؤلاء وكانوا يوماً ما عبيداً للسلطان ، وهكذا كانوا يبقون : فحياتهم واملاكهم هي ملك لسيدهم ، الذي لم يكن ليتردد في الاستفادة من حق ملكيته هذا .

واذا كان السلطان العثماني سليم الاول قد تمكن من ادخال انماط التنظيم الاداري التركي في سورية مع روابطه الحربية ، وان يربط تلك البلاد بالسلطة المركزية في العاصمة فانه لم يحاول ان يدخلها بكل تفصيلاتها وقيودها في منطقتين جبليتين من مناطق سورية احداهما في شمالها وثانيتها في غربها .

أما المنطقة الشمالية فهي التي عرفت ببلاد العواصم والثغور والحقها القلقشندي بنيابة حلب[2] . وهي بلاد جبلية زرعت بالقلاع والحصون وسكنتها قبائل كردية وتركمانية لها عاداتها الخاصة وتقاليدها الموروثة . فامراء القبائل في هذه البقاع — ملاطية وبهسنى وعينتاب وقلعة الروم — امراء وراثيون في اقطاعاتهم تعودوا الحياة الاستقلالية ، ونظموا شؤونهم الادارية تنظيماً عشائرياً ينسجم مع طبيعتهم الجبلية ونمط حياتهم القبلي ، ومن ثم كان نظام الحكم المركزي الذي تسير عليه

«١» Gibb & Bowen: op . cit . Part I .p . 44 .

«٢» القلقشندي . صبح الاعشى . ج٤ . ص ١٣٠ .

الدولة العثمانية غـــير متلائم مع ما تعود عليه امراء هذه المنطقة . ولقد أشير على السلطان سليم ان يبقي تلك البلاد بأيدي رؤسائها الوراثيين يحكمونها بحسب عاداتهم الخاصة ويرتبطون بالسلطان العثماني برابطة التبعية ويقدمون له ما عليهم من خراج الارض ، لانه بذلك يضمن ولاء القبائل الكردية له . وبالفعل فان السلطان سليم قسم الاراضي الى سناجق وثبت عليها أمراءها السابقين .

وثاني المنطقتين اللتين سرى عليها تنظيم غير التنظيم الاداري العثماني العادي كانت (منطقة لبنان) . فقد كان لها هي الاخرى امراؤها الاقطاعيون من العرب او التركمان او الاكراد، الذين يدينون بالمارونية او الدرزية او السنية او الشيعة. وكانوا يعيشون أيام الحكم المملوكي متنافسينَ متناحرين ، ويتمتعون بأوضاع شبه استقلالية ساعدتهم على دعمها مناطقهم الجبلية الوعرة . وقد رأى السلطان سليم ان يطبق على هذه البقاع ما فعله في منطقة العواصم والثغور لأنه من العسير عليه ان يضمن تلك المنطقة الجبلية المطلة على البحر المتوسط بالاحتلال العسكري والحكم الاستبدادي المركزي . وهكذا ثبت اولئك الامراء على اقطاعاتهم السابقة يحكمونها ويدبرون شؤون فلاحيها ، واحتفظ لهم بالحقوق التي اكتسبوها في العصور السابقة . وساعده على ذلك ان كثيراً منهم قد وفد اليه مقدماً فروض الطاعة والولاء بعد انتصاره في معركة مرج دابق[1] .

وقد اصطدم السلطان سليم أثناء تنظيماته الادارية بمشكلة أخرى وهي مشكلة البدو الرحل من القبائل العربية في صحراء سورية ، ويقدر عددهم بعشر

«١» يرجع الى صالح بن يحيى – تاريخ بيروت « مع ملحق ابن سبلط » ص ٢٧٣ .

عيسى معلوف – تاريخ الامير فخر الدين الثاني ص ٧

طنوس الشدياق – اخبار الاعيان في جبل لبنان ص ٥١

السكان[1] فهؤلاء البدو كانوا يغيرون باستمرار على المدن والقرى ينهبون منهـا ما يحتاجونه ، ويهاجمون بقطعانهم ومواشيهم الارض الزراعية فيكتسحون زراعاتها او يسلبون محاصيلها . وقد تمكنت كل قبيلة ان تشيد لنفسها في مناطق الحضر شبه اقطاع مرفقاً بعمل معين . ففي هذا الاقطاع كانت القبيلة تتولى الدفاع عن الفلاح ضد القبائل الاخرى المغيرة وذلك مقابل فريضة معلومة يدفعها لها . وقد وجد المماليك هـذه الطريقة صالحة لنشر السلام والامن بين البدو والريف فثبتوها ، واستغلوها كذلك في حراسة القوافل التجارية التي تمر من منطقة مهددة بمثل هـذا الغزو . فكل قافلة تدفع هي الاخرى كمية معينة من المـال للقبيلة التي تمر تلك القافلة من مرعاها ، والقبيلة بالمقابل تأخذ على عاتقها حمايتها من قطاع الطرق والغزاة . وكانت هـذه القبائل معفاة من الضرائب الا انها كانت تقدم بعض الخيول هدايا للسلطان والامراء وتساعد الامراء الاقطاعيين اثناء الحرب بتقديم الفرسان لهم[2].

ولم يحاول السلطان سليم على الرغم مما قاساه من هؤلاء البدو في مسيرته جنوب بلاد الشام أن يغير من اوضاعهم ، فترك لهم نظمهم التقليدية ، واعطى الحكام الذين يدخل هؤلاء البدو في نطاق سناجقهم حق اتخـاذ الاجراءات التي يرونها ضرورية [3] . ولعله وجد في حركات هؤلاء البدو وخطرهم الدائم ما يشغل به بكوات السناجق ، ويكوّن عقبة في وجههم اذا ما سولت لهم انفسهم الطامحة الثورة او التمرد .

«١» Weulersse : Les Paysans de Syrie et du Proche Orient P. 62

«٢» Poliak : Feudalism in Egypt, Syria , Palestine and Lebanon 1250 - 1900 . London 1939 .pp. 9 -10

«٣» Cibb & Bdwen : Part I . p . 203

اذا كان السلطان سليم قد عمل في المدة التي اقامها في سورية على تأكيد النفوذ العثماني فيها عن طريق نقل مهام الادارة المملوكية الى عاتق الاتراك العثمانيين وتحويل تلك الادارة الى ادارة تركية ، فانه عمل كذلك وحثيثاً على ادخال النظام الاقطاعي العثماني فيها ، ذلك النظام الذي يرتبط كما هو الحال في النظام الاقطاعي المملوكي بالتنظيمين الاداري والحربي ارتباطاً وثيقاً ، كما يتصل اتصالا الصق بالحياة الزراعية – كما سنرى – .

وقد تبنى الاتراك العثمانيون النظام الاقطاعي في امبراطوريتهم كما تبنته كثير من الدول الغربية والشرقية على السواء لتأمين الحياة والعيش لمجموعات من فرق الجيش مقابل الاحتفاظ بها قوى عاملة تستخدمها الدولة عند الحاجة اليها . وهذا يعني – كما كان الامر في اوربة والدولة المملوكية – تسليم الارض لفريق من المحاربين مقابل الزامهم على الخدمة الحربية عندمايدعون اليها . ولم يكن عليهم فقط اعداد انفسهم لحالة الحرب وانما كان عليهم ان يهيئوا كذلك عدداً من الرجال معهم . ويختلف عدد هؤلاء بحسب اقطاع كل منهم ومقدار غلتـــه . وكان يقوم بفلاحة هذه الاقطاعات اما مقطعوهـــا الحربيون انفسهم او الفلاحون الذين يعيشون عليها .

ويؤمن الاقطاعيون حياتهم وحيـاة أسرهم اما من المحاصيل التي يجنونها نتيجة فلاحتهم للأرض واما من الضرائب المفروضةعلى الفلاحين اذا كان الاخيرون هم الزارعين .

وهذا النظام – كما اشير الى ذلك سابقاً – ليس ابداعاً عثمانياً فقد وجد في عهد الدولة العباسية بالذات ، انما كان طريقة من طرق الجباية لا خدمة حربية[1] .

«١» يرجع الـ Encyclopedia of Social Sciences: Art: Feudalism.

الا ان مفهومه تطور مع الزمن ورأت فيه الدولة السلجوقيـــة والمملوكية أداة سياسية خطيرة ، اذ به يمكنها ان تثبت نفوذها في البلاد المحكومة وذلك عن طريق ايجاد رقابة دائمة من الفاتحين على أهالي البلاد المفتوحة ، والمجموعة الريفية منهم بخاصة ، تلك المجموعة التي تكون الاكثرية في المجتمع العربي الاسلامي. اذ يرتبط الاقطاعيون الغرباء بالأرض مع الزمن ، ويتولد بينهم وبين الفلاحين صلات تآخ ومودة تدغم وجود الدولة الحاكمة .

فالنظام الاقطاعي الذي أراد السلطان سليم الاول تثبيت دعائمه في سورية كانت له سوابقه فيها . اذ ان النظام الاقطاعي المملوكي الذي كان مطبقاً على أرضها لا يختلف في جوهره عن النظام الاقطاعي العثماني . وأول خطوة خطاها سليم في هذا المجال أنه كلف بعض معاونيه بمسح الاراضي السورية واحصاء السكان عليها تمهيداً لتقسيمها الى اقطاعات جديده[1] . كما كلف موظفيه بحصر أنواع الاقطاعات السابقة واقطاعات الاوقاف منها بخاصة[2] . واستناداً الى ما توصلت اليه اللجنة الماسحة فان السلطان سليم ألغى الاقطاعات الحربية المملوكية السابقـــة واعتبر الارض التي فتحتها الجيوش العثمانية – كما كانت تعتبر عند كل فتح ماض – ملكاً للسلطان ، وهو الذي يوزعها على جنوده المحاربين . اما الخطوة الثالثة التي خطاها سليم في هذا المجال فكانت في سماحه للمقطعين باقطاعاتهم ولارباب الوظائف بها ، وأبقى الاوقاف لأصحابها[3] . وفي الحقيقة لم يقم سليم بتثبيت الاقطاع العثماني الا في الاقطاعات الشاغرة[4] حيث وزعت على السباهيين الذين كان لهم وحدهم حق

Belin :Du Régime des Fiefs Miltaires dans L'Islamisme «١»
J.A. Serie - 6 -Vol 15

«٢» ابن طولون : مفاكهة الخلان ج٢ ص ٣٤

«٣» ابن طولون – مفاكهة الخلان ج٢ ص٨١

«٤» ان ادخال النظام العثماني في الاقطاعات الحربية لم يتم على نطاق واسع الا في عهد السلطان سليمان القانوني بعد قضائه على ثورة الغزالي .

التمتع بالاقطاعات ، أما المشاة فينالون أجورهم من الخزينة العثمانية[1] .

وكما قسم المماليك الأرض الى اقطاعات تتناسب مع رتبة الامير وعدد مماليكه فقد قسمها العثمانيون الى ثلاث فئات تتناسب هي الأخرى مع رتبة المقطع :

أولاً – الاقطاع الخاص الامبراطوري أو (الخواص الهمايوني) ويضم ممتلكات التاج . ويقطع السلطان هذه الممتلكات لمن يشاء من أعضاء الامرة المالكة .

ثانياً – الاقطاع الخاص وهو ما يقطع عادة للوزراء والبكلربايات وبكوات السناجق ويتجاوز دخله (١٠٠،٠٠٠) أقجة[2] .

ثالثاً – (التيمار) و (الزعامة) . ويعطيان للفرسان السباهين كل بحسب رتبته . والفارق بين التيمار والزعامة ان الاول يعطي دخلاً يتراوح بين (٢٠٠٠ – ٢٠،٠٠٠) أقجة ، بينما يتأرجح دخل الثاني بين (٢٠،٠٠٠ – ١٠٠،٠٠٠) أقجة . وقد خصت بعض الوظائف الادارية بتيمارات أو زعامات ، ومن الطبيعي ان يتغير القابضون عليها بتوالي الموظفين على تلك الوظائف ، وبذلك تختلف تلك الاقطاعات عن المعطاة للسباهين اذ ان الأخيرة أصبحت شبه ملك خاص للسباهي له حق توريثها .

ان الانواع الثلاثة التي بينت سابقاً هي الأقسام الرئيسية للاقطاع العثماني ،

«١» Lybyer: The Government of the Ottoman Empire in the time of Soleiman The Magnificent p. 101

«٢» الاقجة – عملة فضية عثمانية صغيرة . وقد سكت ايام السلطان اورخان ، وظلت مستخدمة في الحسابات الرسمية حتى نهاية القرن السابع عشر على الرغم من انخفاض قيمتها عدة مرات . وكانت تعادل في القرن السادس عشر نصف درهم .

الا ان هناك أنواعاً أخرى تشارك تلك طبيعتها كالأراضي التي تخصص ايراداتها لأهداف معينة كتحمل نفقات القلاع والحاميات المحلية ، وما يمنح لبعض الافراد مقابل قيامهم بأعمال يساعدون بها الجيش ، ويعفى هؤلاء من الضرائب والعشور[1] . ويضاف الى هذه الانواع ايضاً الاقطاعات الوقفية التي كانت تخصص للانفاق على المساجد والمدارس والتكايا وغيرها من الأمور الدينية والخيرية .

وكان السباهيون المقطعون مجبرين ، مقابل الواردات التي يتلقونها من اقطاعاتهم ، على الالتحاق بالجيش عندمـــا يدعون . وعلى كل سباهي ان يلتحق بفرقته في بحر شهر فقط من توجيه النداء اليه . وكان السباهيون فريقين : فريق ملزم دائماً بالاشتراك في المعركة وتلبية نداء الحرب ، وفريق يتناوب العمل مع غيره . أي ان قسماً منه يلتحق بساحة القتال وقسماً آخر يبقى على الارض ليجمع واردات اقطاعه واقطاعات زملائه . وكان على جميع المقطعين ان يأخذوا معهم الى المعركة ــ كما أشرنا الى ذلك سالفاً ــ عدداً من الرجال المسلحين الذين أعدوا للقتال (الجبليين) ، ما عدا أصغر السباهين مرتبة الذي كان ينخرط في قطعته العسكرية دون ان يرافقه أحد حاملاً معه درعه وخيمته .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان المقطعين لم يكونوا يخضعون لأي نوع من التدريب العسكري المنتظم ، الا أن السلطات الحاكمـــة كانت واثقة من أنهم قادرون على القيام بالخدمة الحربية التي يكلفون بها طالما ان الاقطاعات تنتقل بالارث من المقطع الى ابنه او حفيده او أحد جبليه .

فالمقطع يعلم تماماً ان احتفاظه او احتفاظ أسرته بالاقطاع مرتبطة بتميزه أو تميز أفرادهـــا في ميدان الحرب . ومن ثم فانه كان يربي أولاده وجبليه على الحرب والطعان منذ نعومة أظفارهم .

«١» Gibb & Bowen : Part I . p. 48

وعندما تدرك الوفاة سباهياً فان اقطاعه الاصلي ينتقل الى ابنه ولو كان صغير السن ، ويمثله في المعركة في هذه الحالة أحد (جبلي) أبيه . واذا لم يكن للسباهي ولد ما ، أو أنه ترك أولاداً غير قادرين على القيام بالواجبات الاقطاعية الحربية فإن الاقطاع يصبح شاغراً ، وتؤخذ وارداته الى بيت المال ، ويبقى محفوظاً لدى (الموقوفاتجي) حتى يمنح الى اكفأ رجل من جبلي السباهي المتوفى، أظهر شجاعة في القتال .

وكان حكام السناجق – ثم حكام الايالات في عهد السلطان سليمان – هم الذين يمثلون السلطة العليا التي يرجع اليها السباهيون . وقد اعطي هؤلاء في عهد السلطان سليم وما قبله حق توزيع الاقطاعات على الفرسان ، فكانوا يعينون لكل فارس اقطاعه ويمنحونه مقابل ذلك وثيقة رسمية تحت اسم (براءة) تلزمه بالاقامة في الاقطاع[1] . واذا كان الرئيس الأعلى للسباهيين في إيالة من الايالات هو البكلربك فان هذا لا يمنع من وجود نوع من التطبيق الاقطاعي : اي قد ينضوي هؤلاء السباهيين تحت قادة ادنى مرتبة من البكلربك فهناك كما رأينا بكوات السناجق الذين يحكمون المدن الهامة وما حولها ، و (الآلاي بك) ويختار عادة من اقطاعيي السنجق الكبار ويعطى (زعامة) طيلة الحياة ، وله الأمر المباشر على الفرق السباهية التي تقع تحت رايته ، واستناداً الى توصياته تملأ الاقطاعات الشاغرة . ويأتي دون (الآلاي بك) مرتبة في قيادة السباهيين (الصباشي) ويختار من بين زعماء (القضاء) اي الاقليم الاداري الصغير . ويعمل هذا (الزعيم) ايام السلم في مساعدة القاضي – وهو الحاكم المدني – على تنفيذ احكامه وضبط الأمن في القضاء .

ومثلما ابدى السلطان سليم اهتمامه بتركيز النظام الاقطاعي العثماني على الأرض السورية ، فانه سعى لضبط الوضع المالي فيها . ولا سيا ان الاهالي كانوا

---

(1) Lybyer: op. cit. P. 101

يشكون كثرة الضرائب وشدتها بالنسبة لمواردهم. وفي الواقع لم يجر السلطان سليم تعديلات جوهرية في نظام الضرائب القائم سوى اقراره ضريبة شخصية عرفت عند اهل البلاد باسم (اليسق العثماني) وتنزيل بعض الرسوم العرفية عن الفلاحين . إلا انه حافظ على نظام التلزيم المتبع في الجباية مع انه لم يكن متبعاً على نطاق واسع عند العثمانيين [1] .

ويتضح من العرض السريع السابق لتنظيمات السلطان سليم ان هذا الأخير حاول أن يعالج الامور الادارية الاساسية الا انه كان على عجالة من أمره. فالخطر الصفوي في شماله الشرقي ، ونذر الخطر الأوربي في الافق الشمالي الغربي دفعاه للخروج من سورية والعودة الى عاصمة ملكه والأحوال لما تستتب فيها .

تنظيمات السلطان سليمان

اذا كان السلطان سليم قد عانى خلال وجوده في سورية واثناء ماتبقى من حكمه بعض الحركات التمردية كثورتي الرملة وغزة ، وتمرد بني ساعد في حوران وعجلون ، وثورة ابن حنش صاحب البقاع وحماة وصيدا ومن انضم اليه من امراء لبنان ، وثورة (ابن طراباي) شيخ عربان نابلس ، فان السلطان سليمان (١٥١٢ ـ ١٥٦٦) استقبل عهده بثورة لاهبة قوية قام بها والي دمشق ذاته (جانبردي الغزالي). ومع ان السلطان سليمان تمكن من اخماد هذه الثورة الا انه شعر ان الامور في سورية لاتسير سيراً قوياً ، وان الحالة فيها تتطلب تنظيماً آخر غير ذلك الذي أوجده والده السلطان سليم : فالسلطة العثمانية تحتاج لتثبيت اقوى ، وإشراف من القسطنطينية أمتن . ولذلك طلب من صديقه (ابراهيم باشا) الصدر الاعظم

«١» لقد اخذ نظام التلزيم بالانتشار في الامبراطورية العثانية بشكل واسع في عهد السلطان سليمان القانوني .

أن يقوم بزيارة لمصر وسورية وأن يعالج في ضوء مايراه ، ماتعانيه تلك البلاد من اضطراب وان يقترح ما تحتاج إليه من نظم لتكون السلطة العثمانية فيها وطيدة الاركان[1] .

وبالفعل فان السلطان سليمان أخذ بتوصيات ابراهيم باشا وعدل من الاوضاع الادارية في سورية . فبدلاً من شطرها الى ولايتين كبيرتين – كما كان عليه الامر في عهد السلطان سليم – فانه قسمها الى ثلاث ايالات هي دمشق وحلب وطرابلس ، وجعل على رأس كل واحدة (بكلربك) وتحت امرته عدد من بكوات السناجق . وكانت ايالة دمشق تضم عشرة سناجق هي نابلس ، وغزة ، وتدمر وصيدا وبيروت والقدس وعجلون واللجون والكرك وصفد . وأعطى لباشا دمشق شرف امارة الحج اي قيادة قافلته الى مكة . أما حلب وكانت في ذلك الوقت قد غدت من كبريات المدن السورية وانشطها اقتصادياً فقد ربط بها تسعة سناجق وهي انطاكية ، واورفه ، ومنبج والمعرة ، وأضنه ، وكلس ، وسرمين ، ومضياق ، وبيره جيك . وابقيت بعض هذه السناجق بيد أمرائها السابقين . أما ثالثة الولايات فكانت طرابلس وقد ألحق بها خمسة سناجق وهي حمص وحماة ، وجبلة ، وسليمية ، واللاذقية . اما لبنان فأبقى له وضعه الخاص وكان يضم اربعين سنجقاً ويشرف عليها والي دمشق[2] .

ولم يبد السلطان سليمان اهتماماً بالناحية الادارية فحسب وانما سعى كذلك لهندسة النظام الاقطاعي وذلك في ضوء ناحيتين :

أولاً – التعديلات الادارية التي اجراها في سورية بالذات ، لما للنظامين الاداري والاقطاعي من صلة ببعضها .

«١» Stripling : the Ottoman Turks & the Arabs p . 68
Hammer : Histoire de L' Empire Ottoman . T. V. p . 57

«٢» يرجع الى :

Stri pling : op . Cit . p . 68

ثانياً ــ التعديلات العامة التي ادخلها على النظام الاقطاعي في جميع انحاء الامبراطورية بعدما رأى استغلال البكربايات له ، ومـــا تبع ذلك من فوضى واضطراب .

وفي الحقيقة يمكن القول ان الاقطاع العثماني لم يتكامل وتتصل جذوره بأرض سورية إلا في عهد السلطان سليمان . فقد قسم سورية الى (٢٥٦١) اقطاعاً من الخاص والتيمار والزعامة . خص ايالة دمشق منها (١٠٠٦) من الاقطاعات ، وولاية حلب (٩١٣) اقطاعاً وولاية طرابلس (٦٤٢) اقطاعاً . وقد وزعت هذه الاقطاعات بحسب أنواعها على (١٩) اقطاعاً ربطت بوظائف الولاة وبكوات السناجق ، و (٩) اقطاعات بالمناصب الكبرى الاخرى في الايالات و (٢٩٥) اقطاعاً اعطيت للزعماء ، و (٢٢٣٨) لصغار الاقطاعين أي ارباب التيمار[١] . وقد وصل دخـــل الاقطـاع المرتبط بوظيفـة البكرباي او الدفتردار الى (١،٩٩٥،٠٠٠) اقجة[٢] . وقد قدر مجموع ايرادات الاقطاع الخاص في سورية بـ (١٠،٤٧٤،٨١٢) اقجة مقابـــل (١٩،٨٨٠،١٢١) اقجة من ايرادات اقطاعات الزعامـة والتيمار . اما مجموع الباشوات وبكوات السناجق والموظفين الاداريين الكبار ، والزعمـــاء والتيمرجية والجبليين المستفيدين منها فقد قدر بـ (١٠،٤٢٩) فرداً[٣] .

ولم يكتف السلطان سليمان بتنظيم الاقطاعات والاشراف على توزيعها بل عمل كذلك على سن القوانين التي تبين قواعد الاقطاع وواجبات اصحابه وطرق

«١» Poliak : Feudalism in Egypt, Syria ...P. 42

«٢» Ibid : p 43

«٣» يرجـــع في تفصيلات اوسع حول التوزيع الاقطاعي في سورية الى ليلى الصباغ : الفتح العثماني لسورية ومطلع العهد العثماني فيها ، ص ١٢٩ ــ ص ١٣٠

انتقاله وطرق منحه . وقد اراد بهـــذه التعديلات وضع الاقطاعيين تحت رقابة السلطة المركزية ، ومنع تراكم الأرض بين ايديهم وقطع دابر كل اتجاه استقلالي قد يساور نفس حاكم الايالة .

ان التنظيمات العامة للسلطان سليمان التي انعكست على تنظيماته في سورية ومصر والتي استحق من اجلها لقب (القانوني) والتي جمعها المفتي (ابو السعود) واطلق عليها اسم (القانون نامه) لم تعالج الناحية الاقطاعيـة فحسب وانما كانت قوانين عديدة تبحث في الشؤون الاجتماعية للرعية ، وبالضرائب والقضاء[1] . وقد أبدى السلطان سليمان اهتماماً خاصاً بتنظيم الضرائب لما لها من اهمية كبرى في بناء الكيان المالي للدولة العثمانية ، ولأنها كانت قد وصلت في بلاد الشام ومصر في نهاية عهد المماليك الى درجة كبيرة من الفوضى والاضطراب في عددها وطرق جبايتها . وقد لوحظ ان السلطان سليم لم يفعل في هذا الميدان سوى انه ثبت القديم على قدمه . وفي الحقيقة لم يأت السلطان سليمان هو الآخر بجديد وانما وضع الامور في نصابها وبين أنواع الضرائب وكميتها ، واكد على ضرورة الغاء بعض الضرائب المملوكية السابقة على الفلاحين . وقد اهتدى في ذلك بالتنظيمات المالية القديمة السائدة في بلاد الشام ومصر ، وتقيد ما امكن بموقف التشريع الاسلامي منها[2] .

وقد اصبحت الضرائب بحسب ترتيباته قسمين رئيسين :

«١» Lybyer: The Government of the Ottoman Empire.. p.160
Digeon : Canoun - Namé ou Edits de Sultan Suleiman

«٢» يشير المؤرخ التركي الحديث «بارخان» الى ان العثمانيين لم يحاولوا ان يفرضوا على بلاد ادخلوها حديثاً في امبراطوريتهم تنظيمات جديدة تماماً وذلك منعاً لاضطراب شئونها الاقتصادي والاجتماعي ، وبذلك اثبتوا للعالم تحررهم الفكري وتسامحهم .
Mantran &Sauvaget : Réglements Fiscaux Ottomans dans Les Provinces Syriennes p . 10

١ - الضرائب الشرعية وهي التي عينها الشرع الاسلامي وأقرها الفقهاء على مدى الازمنة كالخراج ، والعشر ، والجزية والمكوس .

٢ - الضرائب الديوانية التي يفرضها السلطان وقت الحاجة مستنداً الى سلطاته العرفية[١] . وقد نظر العلماء الدينيون الى هذه الضرائب نظرة استياء واعتبروها غير شرعية ، ولكن احتجاجاتهم لم تسمع ، لان حاجة الامبراطورية للمال كانت كبيرة . وهكذا فرضت ضرائب اضافية عامة ترد الى بيت المال (الميري) ، كما كانت تجمع رسوم معينة تهدف الى تغطية اجور بعض الموظفين ، هذا الى جانب فرض خدمات خاصة على بعض الافراد والجماعات مقابل اعفائهم من الضرائب الاضافية . وسمي مجموع هذه الضرائب بـ (العوارض الديوانية) لانها صدرت بقرار من الديوان . وكانت لاتفرض مبدئياً إلا اثناء تعرض الدولة لضائقة مالية ما وموقتاً ، ولكنه يلاحظ انها كانت تصبح دائمة .

وكان يتبع في جباية تلك الضرائب ثلاث طرق :

الطريقة الاولى – كان السلطان يقسم الاقضية في السناجق الى ما يسمى (عوارض خانة) ويفرض على كل منها نسبة معينة مما فرض على مجموع القضاء . وكان السلطان ينظر عند تقدير هذه النسب الى حالة كل قضاء وسكانه وموارده . وقد صنف الافراد على هذا الأساس في طبقات ثلاث – الغني والمتوسط والفقير . ولقد كان هذا التنظيم مرنا أي اذا تناقص وارد اقليم ما لسبب من الاسباب (قحط او جفاف او حالة حرب) فان بيوتات الضرائب الاخرى في الاقضية تكيف نفسها لتسد العجز . وقد كان يؤخذ في عهد السلطان سليم من الافراد بتوسط

«١» السلطة العرفية للسلطان هي المبادرة الشخصية للسلاطين التي أقر الفقهاء العثمانيون ان الشريعة ذاتها تخولها لرأس الدولة كي يصدر مايراه ملائماً لصالح الجماعة .

عشرين اقجة من واحدهم ، ويعفى العسكريون . ويقوم القضاة بجباية هذه الضريبة[1] .

أما الطريقة الثانية – التي كانت تجمع بها تلك الضرائب العرفية فهي ان يقوم أفراد بعض بيوتات الضرائب السالفة الذكر بتقديم خدمات معينة مقابل تلك الضرائب . وكانت معظم تلك الخدمات من النوع الذي يقدم للجيش وهو في حالة الحرب . وقد تكون مدنية كحراسة محطات القوافل ، او تربية الخيل ، او الاعتناء بها لتأمين حركة البريد وتنقل الموظفين الحكوميين عبر المنطقة[2] .

والطريقة الثالثة – التي كان بيت المال يستفيد بها من الضرائب الديوانية فهي السماح للموظفين بان يجبوا الرسوم من الأفراد مقابل الخدمات التي يقدمونها لهم ، وكانت تذهب مباشرة لجيوبهم . ومثل على ذلك السماح للقضاة بأخذ رسوم معينة من الأشخاص مقابل اعطائهم لهم وثائق شرعية كوثائق الزواج او الوصايا . كما ان هذا الحق أعطي للمحتسب مقابل أعماله العديدة[3] . وهذا يفسر الرسوم التي فرضها القضاة العثمانيون على عقود الزواج في سورية عند فتح سليم للبلاد[4] .

ويلاحظ ان الضرائب في العهد العثماني قد لازمت كل نمط من أنماط الحياة الاقتصادية . ولكن لا بد من الاشارة الى ان هذه الضرائب لم تكن واحدة في

«١» انها الضريبة التي فرضها السلطان سليم على سكان دمشق عندما دخلها وجعلها اشرفياً على كل شخص ، واشار اليها ابن طولون تحت اسم « اليسق العثماني » .
ابن طولون – مفاكهة الخلان ص ٨١

«٢» Heyd (uriel): Ottoman Documents on Palestine p.117

«٣» Gibb & Bowen: part II p. 5

«٤» ابن طولون – مفاكهة الخلان ص٨٢

تختلف الأيالات والسناجق ، بل كانت تختلف بالصفة والاسم من مكان الى آخر بحسب الاختلاف في المنتوجات المحلية ، وفي العادات والتقاليد ، وبخاصة منها الضرائب على التجارة .

ففي الأسواق بعامة كان هناك ضريبة يقوم المحتسب ومساعدوه بجمعها وهي المسماة (باج) . وتدفع على بيع اي مخلوق حي أو أية سلعة حملت الى السوق من الاقليم المجاور . وتختلف كمية الضريبة بحسب طبيعة البضاعة ونوعها ، ولذا فانها قد ثبتت بتعرفة خاصة ومفصلة[1] .

وكانت هذه الضريبة تؤخذ عادة من البائع ، ولا يشترك المشتري معه فيها إلا عند دفع (وسم القبان) . ويتمم ضريبة (الباج) ما يسمى بـ (ضريبة الدمغة) وتؤخذ من الصناع على ما ينتجون من صناعات في الاقليم نفسه . فعلى النساجين مثلا ان يقدموا كل قطعة يصنعونها الى المحتسب قبل بيعها ويدفعون عليها رسم الدمغة . والهدف من هذا الرسم مراقبة المحتسب لدقة العمل وعدم الغش فيه . ويخضع صانعو المكاييل والمقاييس لمثل هذا الرسم كذلك قبل ان يبيعوها الى اصحاب الدكاكين[2] .

ومن الرسوم المقررة على التجارة ايضاً العائدات المسماة (جمرك)[3] وهي تختلف عن (باج) المحتسب بانها تفرض على السلع والبضائع المستوردة من أية بقعة الى أي مركز ، أكان استيرادها براً أو بحراً ، او كانت للبيع فيه او عابرة منه.

«١» يرجع الى تنظيمات ولاية دمشق الضريبية في :
Mantran & Sauvaget : Réglements Fiscaux pp 3 - 34
«٢» Gibb & Bowen : Part II p. 9
«٣» بعضهم يرجع كلمة « جمرك » الى الكلمة اللاتينية Commercium الآتية من اليونانية Koumerkê

عبوراً الى مكان آخر . كما تفرض على السلع والبضائع المصدرة من ذلك المركز . أما (باج) المحتسب فيفرض على جميع ما يباع في السوق من منتوجات القضاء الذي يعمل فيه المحتسب نفسه . ولم يكن هناك اختلاف في المبدأ بين هذه العائدات الداخلية وتلك المفروضة على البضائع الواردة من خارج الامبراطورية او المصدرة الى خارجها . إلا انه يلاحظ انها تختلف من مكان الى آخر ، وبحسب نوعية السلع ، وأحياناً بحسب صفة التاجر مسلماً كان او ذمياً او من سكان (دار الحرب) أي من سكان البلاد غير الاسلامية .

وكانت ضريبة الجمرك هذه تؤخذ على اساس مئوي من سعر البيع المحلي احياناً ، او بحسب وزنها او حجمها او نوعية تغليفها (علبة او بالة) . ففي دمشق مثلا كان يؤخذ على التوابل والأقمشة الواردة من مكة المشرفة سبع قطع ذهبية على كل حمل جمل رسماً للجمرك ونصف قطعة ذهبية للمباشر اي (الجابي) ، وكانت تجمع اما في خان يونس اذا كانت آتية عن طريق غزة او في الكسوة اذا اتت بالطريق العادية للحج [١] .

وكان هناك رسوم جمرك خاصة بالفرنج الذين يتعاملون تجارياً مع سورية : وقد حدد هذا الرسم في الاتفاقات التجارية بين الدول الاوربية والدولة العثمانية بـ ٥ ٪ مبدئياً الا انه انقص الى ٣ ٪ عندما وقع الانكليز اتفاقهم التجاري معها عام ١٥٩٩ [٢] .

وبالاضافة الى تلك الرسوم فقد كان هناك عدد كبير من العائدات الصغيرة [٣] ورثها الحكم العثماني من المملوكي وأبقى عليها . ففي دمشق وحدها قدر

«١» يرجع إلى Mantran & Sauvaget : Réglements Fiscaux p.9

«٢» Wood:A History of the Levant Company PP. 14, 27 - 28

«٣» يرجع إلى Mantran & Sauvaget : op . cit : p 3 - 34 .

عدد الرسوم والضرائب بـ (٩٧)[١] ، وشملت جميع الحاجيات مهما صغرت ، ففرضت على منتجات الصيد وخلايا النحل ، والثلج ، ووضعت تعرفات خاصة بها.

ولا بد من الاشارة في حقل التنظيم الضرائبي هذا الى انه كان هناك رسوم تتقاضى من اهل الذمة والفرنجة الوافدين لزيارة الاماكن المقدسة المسيحية يطلق عليها اسم (تنظيم القيامة)[٢] .

والشيء الذي يلاحظ في نظام الضرائب في عهد السلطان سليمان انه قد عمم نظام (التلزيم) في الجباية . وهذا يعني بيع ضرائب اقليم واسع لبعض الموظفين الكبار اي ان هؤلاء (الملتزمين) يدفعون للسلطان قبل الجباية ما هو مقدر على هذا الاقليم ثم يقومون هم بجباية ضرائبه . وقد وجد السلطان طريقة التلزيم هذه افضل طريقة لتأمين مورد ثابت وعاجل للدولة ولا سيما ان بعض الاقاليم كسورية مثلاً كانت بعيدة نسبياً عن العاصمة فمجال تخلف جباة الضرائب (الأمناء) عن دفع ما جمعوه للخزينة واسع ومفتوح . ولم يكن الموظفون الكبار الملتزمون هم الذين يقومون بجمع الضرائب بأنفسهم وانما كانوا يبيعونها بدورهم اجزاء ، وقد تتكرر عملية التجزيء مرات عديدة .

ولم يكن الملتزمون يجبون الضرائب والرسوم المقررة فحسب بل كانوا يجبون اضعافها ليحققوا الارباح التي يبغون، ولا يعيرون التفاتة ما الى الكوارث الطبيعية التي تحدث بين آونة واخرى وتؤثر في كمية المحصول وتضيق ذات يد الفلاح[٣] . وكانت عقودهم مع الدولة الحاكمة تسمح لهم بذلك ، بل ان الدولة العثمانية عملت في زمن سليمان على تثبيت ضريبة الخراج وتقسيمها الى جزئين جزء

«١» محمد كرد علي : غوطة دمشق . ص ١٣٩

«٢» Mantran & Sauvaget : pp. 41 - 42 .

«٣» Lybyer : op. Cit . p . 177

يذهب الى السلطة الحاكمـــة وهو المسمى (الميري) ، وجزء من نصيب الملتزم ويدعى (فائض الالتزام) . وقد استخدم الاقطاعيون انفسهم طريقة التلزيم فيما بعد لجمع ضرائب اقطاعاتهم .

اما الترتيبات العسكرية التي لجأ اليها السلطان سليمان في بلاد الشام فهي تثبيت حامية من الانكشارية في مركز كل ولاية على ان تكون تلك الحامية دائمة، ويعين (آغا) ها في كل من دمشق وحلب من الباب العالي مباشرة ؛ ومن ثم فان سلطة الباشا عليه محدودة. والى جانب الحامية الانكشارية هناك السباهيون أوالفرسان الذين يكونون الطبقة الاقطاعية وقد اشير اليهم سابقاً. اما القوةالحربية الثالثة فتتألف من الجنود الخاصين بالباشوات والبكوات والدفتردارية القائمين على اقطاعات هؤلاء ، وكانوا في دمشق اخلاطـــاً شتى من العرب والكرد والتركمان والمغاربة .

ولم تقتصر تنظيمات السلطان سليمان على النواحي الادارية المشار اليها آنفاً بل امتدت الى الامور الاجتماعية والاقتصادية . فقد تضمنت مجموعة من القوانين يعتبر بعضها حجر الأساس في القضاء الجنائي في الامبراطورية العثمانية وتستشم منها بعض الاوضاع الاجتماعية القائمة . وتلخص هـــذه التنظيمات القانونية بالنقاط التالية :

اولاً ــ القوانين المتعلقة بالمسيئين للآداب والأخلاق العامة . كخطف الصبية الصغار او الفتيات والاعتداء عليهم جنسياً . ويلاحظ في هذه القوانين انه فرق بين المرأة الحرة والأمة ، وجعل الغرامات المالية المفروضة على الفاعلين تتناسب مع قدرة الفرد على الدفع(١) .

«١» Hammer: Histoire de l'Empire Ottoman . T . V . p . 274 .

ثانياً ــ القوانين الخاصة بالمعتدين على الآخرين بالسب والضرب واقتطاع عضو من الاعضاء . وهنا احل الغرامة المالية محل العقاب بنفس الفعلة[1] .

ثالثاً ــ القوانين الخاصة بشاربي الخمرة والسارقين ومخالفي الفرائض الدينية ، وشهود الزور ، والعاملين بالربا الذين يدينون بفائدة تربو على ٪ ١١ . فلقد فرض مثلاً على شارب كأس من الخمرة اقجة واحدة ، وتطبق نفس العقوبة على كل فاطر في شهر رمضان . اما السارق فتختلف عقوبته بحسب نوعية السرقة فاذا كانت طيراً فانه يدفع اقجة اما اذا كانت حيوان حمل فتقطع يده الا اذا دفع مائتي اقجة. اما اذا كان السارق اقطاعياً فانه يوقف مباشرة ولا يجوز تنفيذ العقوبة عليه قبل تقديم تقرير الى الباب العالي[2] .

رابعاً ــ التنظيمات الخاصة بالأسواق[3] .

خامساً ــ التوصيات الموجهة الى اصحاب المهن ليحافظوا على المستوى الرفيع لمهنهم ، والأسعار التي حددتها الدولة . ومثل على ذلك التنبيهات الى الخبازين بضرورة الحفاظ على نقاوة طحينهم ، ولصانعي الحلوى بملاحظة النسبة الملائمة للسمن والطحين وللطباخين بلزوم اهتمامهم بتبييض ادواتهم النحاسية . وقد حددت ضمن هذه التوصيات اسعار المواد المختلفة وطلبت الا تتجاوز الارباح ١٠٪ ، كما وضعت الارشادات اللازمة الى اصحاب الحمامات[4] .

وفي الحقيقة ، على الرغم من التنظيمات الشاملة التي وضعها السلطان سليمان ليضمن النظام والأمن وتطبيق أحكام الشرع الاسلامي في امبراطوريته ، وعلى الرغم من قوة شكيمته ، فان عوامل الاضطراب في سورية لم تنقطع فالصراع

«١» Hammer: op.cit.t.v . p. 275
«٢» ibid : T . V . pp . 275 - 276
«٣» و «٤» ibid : T . V . p . 277 et seq

الحزبي في لبنان بين القيسيين واليمنيين ظل قائماً [1] ، وتمردات الأمراء الاقطاعيين المحليين لم تتوقف ، وغارات البدو على القوافل التجارية لم يقطع دابرها ، والأحوال الاقتصادية لم تخرج من مآزقها المألوفة وان كان قد طرأ عليها بعض التحسن . ولعل ذلك يرجع الى ان تلك النظم لم تكن سوى (ترقيع) للنظم القائمة في سورية . وقد تكون عملية الترقيع هذه قد ساعدت في الحفاظ على القوام العربي في بلاد الشام قوياً ، وأزالت على الرغم من سطحيتها الركود الذي رنا على النظم والقوانين فيها ولو الى حين إلا انها لم تؤدّ بالبلاد الى يقظة مستديمة ، وحركة متواترة . وهذا يعني ان الحكم العثماني لسورية كان سطحياً ومتحرجاً عن التغلغل في أعماق حياة سكانها [2] . وأهم الأسباب في ذلك :

أولاً ــ عجز الدولة العثمانية بنظمها ووسائلها التي ورثتها من حضارات هرمة فقدت روح الابداع والتجديد عن ان توجد حكماً ذا قوة انشائية منتجة . أي أن الدولة العثمانية لم تكن لتملك رصيداً حضارياً أصيلاً يمكنها من ان تبث قوى الأحياء في حنايا المجتمع العربي المتهاوي . ومن ثم فانها أعتمدت في نظمها وادارتها على السلطة العسكرية والسيطرة الاقطاعية ، وهي أدوات حرب وقمع للرعية لا أدوات رعاية وأمن وسلام وحفز لها للنهوض والابداع .

ثانياً ــ حرص الدولة العثمانية على مراعاة أهل سورية بصفتهم شعباً اسلامياً كانت بلاده يوماً مركز اشعاع حضاري قوي ، ومقراً للنظم الاسلامية المتكاملة . ومن ثم فهو يغنى عن أي تغيير أو تبديل قد يؤدي بالبناء القائم لديه الى تفكك فانهيار .

---

(١) يوسف الدبس : تاريخ سورية ج ٧ ص ٢٥ .

(٢) الدكتور عزت عبد الكريم ـ مقدمة كتاب (حوادث دمشق اليومية) للبديري الحلاق . ص ٢٧ .

ثالثاً ــ انكماش المجتمع العربي ذاته في سورية عن التفاعل مع الحكم الجديد أو مايمكن أن يأتي به من جديد فتشبث بأوضاعه القائمة ، بل ونافح عنها . أو بتعبير آخر كان المجتمع العربي نفسه في سورية قد فقد روح المبادرة والتجديد فحتى التمردات التي قام بها ضد الدولة العثمانية في أوائل حكمها كانت ذات طابع رجعي . إذ كان هدفها أما الوصول الى الحكم ، أو استمرار تمتع أصحابها الاقطاعيين بالحريات والامتيازات التي كانوا يمرحون فيها سابقاً . ومما لاشك فيه أن أبعاد الشعب أيام الحكم المملوكي وبعده العثماني عن المشاركة في الجيش والحكم الفعلي كان عاملاً هاماً في هذه السلبية فانصرف الى مشاغله وحياته الخاصة تاركاً الدولة تفعل ماتراه طالما أنها لاتمس عاداته وتقاليده ونظمه .

* * *

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية في سورية

من سنة ١٥١٦ – ١٥٦٦

عانت سورية تلكؤاً في الحياة الاقتصادية في أواخر عهـــد المماليك ، ورزحت تحت عبء ضائقـة اقتصادية شديدة جعلت السكان يتململون من الحكم القائم ويتمنون الخلاص . وكانت تلك الضائقة أحد الدوافع التي دعت السكان الى استقبال الاحتلال العثماني بشيء من الرضا عله يغير من منحى الأحوال والأوضاع . فهل تطورت تلك الحيـــاة في الحقبة الأولى من العهد العثماني الى ماهو أفضل أم أنها سارت في طريقها المرسوم سابقاً ، وظل الأهالي على ضنكهم يشكون الفقر وشدة الضرائب ؟

لم يحدث الاحتلال العثماني لسورية على الرغم من أنه أتى في ذروة ازدهار الامبراطورية العثمانية وفي أزهى عصورها هزة في المجتمع العربي فيها بحيث يخرج من أطره الجامدة فيجدد من حياته لأن مقود اموره بيد غيره. ومن ثم فان اقتصاد سورية بقي كما كان سابقاً اقتصاداً اكتفائياً محدوداً : الانتاج فيه مقيد بحاجة المنزل والسوق المحلية فقط وغير منسجم مع متطلبات السوق الخارجية كما أن الفرد العامل في جميع الميادين الاقتصادية لم يخرج عن عقليته السابقة القانعة بالقليل ، او بمعنى

آخر لم تتطور عقليته باتجاه العقلية الرأسمالية البحتة التي تبحث عن وفرة الانتاج ، وزيادة الربح ، وترفيه الحياة ، ومن ثم عن التجديد والابتكار في الطرق المستخدمة في شتى مناحي الاستثمار الاقتصادي . وهكذا بقي الاقتصاد في سورية محافظاً على تقاليده السابقة وراكداً وجمداً . [1] هذا في الوقت الذي كانت تعيش فيه أوربة ثورتها الاقتصادية الكبرى . وبالطبع لعبت الدولة الحاكمة الجديدة عن قصد أو غير قصد دوراً هاماً في تجميد ذاك الاقتصاد وتثبيت اركانه القديمة وشاركتها في ذلك العوامل الدينية والاجتماعية .

ولا يمكن فهم الأوضاع الاقتصادية في سورية في نصف القرن الذي نبحثه الا اذا درسنا كل ناحية اقتصادية على حدة مبتدئين بالحياة الزراعية التي كان المعول على انتاجها في بناء الحكم القائم ، والاساس الأول في الحياة الاقتصادية في تلك الآونة لأن العاملين في ميدانها هم اكثر السكان عدداً وهم الذين يوفرون للدولة امكاناتها المالية الرئيسية .

١ ــ الزراعة

ان مايميز الحياة الزراعية في سورية كما يميزها في مصر عن غيرها من بقاع العالم هو قدمها[2] فالمجتمع الزراعي الريفي قد تكون فيها منذ فجر التاريخ وبانسجام عميق بين الشروط الطبيعية للأرض والمناخ ووسائل الاستثمار . فالحضارات المختلفة السابقة للحضارة العربية الاسلامية التي توالت على هذا المجتمع لم تمس سوى السطح ، ولم تؤثر عليه التأثير العميق الذي يقلب عاداته وتقاليده رأساً على عقب . لأن

«١» Bonné . A: State & Economics In the Middle East . P . 219

«٢» Weuleresse (j) : Paysans de Syrie et du Proche - Orient . P . 55

معظم تلك الحضارات كانت حضارات مدن ، وتركت آثارها فيها . اما الريف فقد تركت ارضه المنبسطة لأهله ولم تتغلغل في اعماقه . فالفلاح في بلاد الشام عند الفتح العربي الاسلامي كان يرزح اذاً تحت عبء ماض طويل ، وكان حصيلة « لتطور اجتماعي » بطيء ، ومخزناً لعادات وتقاليد قديمة لم تتأثر كثيراً بشتى الحضارات المتوالية عليه . فبساتين الشام هي من اقدم بلاد الريف في العالم ، وتلال سورية قد زرعت بالقرى العامرة منذ قديم الزمن ، ولا تزال كثير من المدن تحتفظ بطابعها الريفي الواضح كحمص وحماة وحتى بعض أحياء دمشق . فاذا كانت الحياة الزراعية في سورية تمتاز بقدمها وبالحضارات الكثيرة المتناوبة عليها فان ما وجده العثمانيون عند احتلالها لا حقولاً حرثت وزرعت بأجيال لا حصر لها فحسب ، ولا قرى لها تاريخها الحافل السابق فقط ، وانما وجدوا مجتمعاً زراعياً طابعه المتأصل الطابع العربي الاسلامي . فاذا كانت الحضارات السابقة للحضارة العربية الاسلامية قد مرت على سطح ذاك المجتمع مروراً عابراً فان الحكم العربي الاسلامي قد تغلغل في جميع مناحيه واستعمقت جذوره في روح افراده ، وانسجم مع متطلباته . فسورية حافظت على البناء الزراعي الذي ركز فيها بعد الفتح العربي الاسلامي طيلة قرون توالى عليها فيها غزوات صليبية وتترية شتى [1] .

وقد لاقت سورية ابان الحكم العربي الاسلامي فيها (وفي عهد الدولة الأموية بخاصة) ازدهاراً زراعياً مرموقاً لعناية العرب الحاكمين بالارض من ناحية عدالة توزيعها ، والاهتمام بمشاريع الري فيها ، وتوطيد الأمن في ربوعها ، وتجفيف المستنقعات من وديانها . ولكن مالبثت تلك الحياة الزراعية أن مالت الى التدهور والانحطاط منذ القرن العاشر الميلادي عندما ضعفت الدولة العباسية وتفككت أواصرها ، وتبع ذلك هجمات الصليبين المتلاحقة والنكبات الطبيعية من زلازل

«١» Weulersse : Paysans De Syrie ... PP . 56 - 58

وأوبئة ، ولحقتها اكتساحات المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. ومن الطبيعي أن يكون لقرون الاضطراب هذه أثرها المخرب على الزراعة في سورية، فقد عادت السهوب والمستنقعات الى اكتساح مناطقها السابقة ، وتراجعت الارض الزراعية في كل مكان ، وغط الريف السوري في سبات عميق .

وقد اعتاد كثير من مؤرخي العصور الحديثة أن يعزو الانحطاط الاقتصادي والفقر الزراعي اللذين عاشتهما سورية والبلاد العربية ابان الحكم العثماني لها الى السياسة الفاسدة التي انتهجتها الدولة العثمانية في هذه البقاع من فوضى في الادارة، وانعدام للمشاريع الاقتصادية البناءة . وفي الواقع كانت الزراعة في سورية عندما احتل العثمانيون هذه البقاع قد مرت بفترة انحطاط طويلة : فنوابها من المماليك لم يكونوا احسن حالاً من حكامها التالين العثمانيين : فلم يظهروا أثناء حكمهم لها ما عدا بعضهم[1] اكتراثاً بأحوالها الزراعية إلا بمقدار ما يمكن ان تؤديه لاقطاعيهم من واردات ولحكومتهم من اموال . وبذلك أقفرت كثير من القرى من ساكنيها، وتركت الارض دون زراعة حتى ان بعض الرحالة من الاوربيين الذين زاروا بلاد الشام[2] في نهاية القرن الخامس عشر يذكرون أن يافا خربة وان اطرافها الجميلة مهملة ومقفرة ، وكذلك الاراضي بينها وبين الرملة . إذ ان اليد العاملة لاستثمار تلك الأرض الخصبة كانت نادرة ، ونفس القول ينطبق على الاراضي شمالي سورية[3] . فالزراعة اذاً في معظم انحاء سورية كانت ضعيفة ومنحطة قبل الاحتلال العثماني .

«١» أبو الفدا . المختصر في تاريخ البشر ص ٣٣٧ – ص ٣٤٠ . يذكر أن « نائب دمشق قد استصلح سهل البقاع بعد ان كان مستنقعاً بصرف المياه الفائضة الى نهر الليطاني » .

«٢» هو برايد ينباخ « نقلا عن تاريخ سورية الاقتصادي للسيد علي الحسني ص ١٢٥ » وقد قام برايد ينباخ بزيارته لسورية في سنة ١٤٨٧ .

«٣» علي الحسني . تاريخ سورية الاقتصادي : ص ١٢٨

وأتى الاحتـــلال فكان ضغثاً على إبالة اذ أن الاتراك العثمانيين كانوا في الحقيقة يتلقفون اثناء فتوحاتهم في غربي آسيا القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية لامبراطوريات هرمت واهترأت معالمها وكانوا يحاولون ان يبنوا على ركامها ومن انقاضها كيانهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي . وهكذا لم يكن للدولة العثمانية آنذاك من مثل أعلى في التنظيم أياً كان نوعه سوى المحافظة والابقاء على نظام قائم كانت تؤمن أنه كامل لأنه منسجم مع الشريعة الاسلامية ومصالحهـــا الخاصة . فالحال الزراعية في سورية بمختلف اوضاعها لم يوجدها العثمانيون في مطلع عهدهم وانما تلقوها من سابقيهم وحافظوا على ما هي عليه . واذا كانت الزراعة قد ازدادت احوالها سوءاً في القرون التالية فلأن الدولة العثمانية لم تأت بجديد ولم تنهج سياسة بناءة في اعادة الازدهار اليها بل سارت على خطة الدولة المملوكية السابقة .

فالعثمانيون اذا لم يغيروا في طريقـــة توزيع الأرض على السكان ، كما لم يوجدوا جديداً في الضرائب الزراعية او المحاصيل الزراعية أو في العلاقات بين المسيطرين على الارض والعاملين فيها . فالأرض بقيت منقسمة الى نوعين رئيسيين تفرع منها مع تطور الزمن قسمين آخرين وهذا التقسيم يرجع في واقعه الى فترة الفتح العربي الاسلامي . فهناك :

١ ــ الأرض المُلك : وهي الأرض التي بني عليها في المدن والضواحي وهذه تركت لأصحابها كأملاك خاصة . وتسمى في سورية « القسم » .

٢ ــ الأرض الاميرية : وهي بقية الأرض الزراعية وتسمى الديموس[١] أو (فصل) وقد اعتبرت عند الفتح العربي الاسلامي غنيمة حرب ومن ثم اصبحت ملكاً لجميع المسلمين . ولما لم يكن هناك سبيل لاستثمارها مباشرة فقد اعطي حق التمتع بها لملاكها الأول مقابل بعض الخدمات او الضرائب . ومن هنا نشأ على

«١» علي الحسني . تاريخ سورية الاقتصادي ص ١٤٩ .

هذه الأرض حق مزدوج : (حق الرقبة) ويعود للجماعة الاسلامية أي للدولة ممثلة برئيسها الشرعي الخليفة او السلطان . و(حق التصرف) او حق التمتع الذي ترك للملاك السابقين، وسميت هذه الارض بالأراضي الاميرية أي التابعة لأمير المؤمنين .

وهذه الأرض هي التي قام سلاطين بني أيوب والسلاطين المماليك والسلاطين العثمانيون بإقطاعها اقطاعات حربية أو وقفية كما اشرنا الى ذلك آنفاً . ولقد انبثق من الارض الملك والارض الاميرية النوع الثالث وهو :

٣ — ارض الوقف: والوقف عامة هو من المؤسسات المبتدعة في الاسلام. ويعني منح ارض خاصة أو ملك معين لتمويل عمل خيري او لانشائه كالمساجد ، والمدارس ، والمستشفيات . وهذه المنحة لاتسترد ومن الواجب حمايتها . وقد اختلف فقهاء المسلمين في جواز وقف الأرض الاميرية من قبل صاحب التصرف فيها إذ بحسب رأي بعضهم لايجوز الوقف إلا على ارض الملك . ومهما يكن من أمر فان ارض الوقف قد نمت مع مرور الزمن وبخاصة في عهد المماليك ، وظهر الى جانب (الأوقاف الخيرية) نوع آخر يسمى (بالأوقاف الذرية) . وقد لجأ الى النوع الاخير كثير من ملاك الأرض ومقطعوها في اواخر العهد المملوكي ليتملصوا من تطبيق قانون الارث على ارضهم بعد وفاتهم او ليتخلصوا من خطر المصادرات: فالمالك يجعل أرضه او املاكه وقفاً لصالح هذا العمل الخيري او غيره على شرط ألا ينفذ هذا مثلا إلا بعد زوال هذا الفرع او ذاك من ورثته[1] .

وعندما قام السلطان سليم بفتح سورية كانت اراضي الوقف واسعة الامتداد ومتراكمة ، وكان السلاطين المماليك الاخيرين قد احسوا بهـذا التجميد للارض فحاولوا بشتى الطرق اعادة نسبة معينة من الاراضي المحجوزة للوقف للتداول الحر. ولكنهم لم يفلحوا في ازالة التراكم الكث الذي كان قد حدث . فعمل السلطان

«١» Weulersse : op. cit P . 93

سليم ومن بعده سليمان على تنظيم هذه الناحية : فاحتفظ بالأوقاف السلطانية الاولى المخصصة لرعاية المدن المقدسة ووضعت هي والاوقاف السلطانية الجديدة تحت ادارة الدواوين المالية . اما الاوقاف الخاصة فقد بحث عنها من قبل رئيس اداري خاص ارسل من استامبول لهذه الغاية : فما خصص منها لأعمال خيرية هامة ثبت ، وما لم يخصص حل وفي جميع الاحوال اخضعت الاوقاف الخاصة لضريبة الميري. وقد اوجد سليمان ناحيتين جديدتين في الاوقاف : اولاهما : لايجوز تحويل أي ارض للوقف دون موافقة السلطان أو ممثله . وثانيها مراقبة الاوقاف : فحساباتها تفحص سنويا بحضور الباشا وترسل نسخة منها الى استامبول . وقد اوجد في كل من المقاطعات السورية ادارة مركزية للاوقاف تهتم بتعيين المشرفين عليها الذين سموا (بالمتولين) وبتوزيع الواردات منها على مستحقيها والمستفيدين منها[1].

٤ – الارض المشاعة: وهي واسعة الانتشار في سورية : فهناك أرض لايملكها فرد أوله (حق التصرف) فيها ، وانما اعطيت ملكيتها ، او حق التصرف فيها الى سكان قرية بمجموعها ، وبخاصة المراعي ، والساحات العامة ، واماكن الحصاد[2] .

هذا فيما يخص الأرض الزراعية امـا الارض الحرة او الموات فهي من املاك الدولة أو من الاملاك الاميرية وتصبح ارضاً اميرية مع حق التصرف فيها (أي حق الانتفاع) لمن يصلحها . وتمتد هذه الارض بخاصة في المناطق الصحراوية حيث تقيم القبائل البدوية .

أما حالة الفلاحين في مطلع الاحتلال العثماني لسورية فقد كانت مرتبطة

«١» Gibb &Bowen . Islamic Society &The West : Part 11 P. 172 .

«٢» Weulersse: op. cit. P. 94

بنوعية الارض التي يسكنونها والتي أشرنا الى اقسامها الاربعة السابقة . فالفلاحون كانوا اماملاكين لها ـ وهم أقلية قليلة جداً ـ أو فلاحين مزارعين فيها وهم الاكثرية. وفي الحالة الثانية كان المشرفون على الارض التي يعملون فيها اما الاقطاعيين او الملتزمين او المتولين . فمن المعروف ـ كما اشرنا سابقاً ـ ان جميع الارض الاميرية قد وزعت الى إقطاعات على الشكل المبين في بحث النظام الاقطاعي العثماني . اما اراضي الوقف فقد سلمت للمتولين ليجمعوا ضرائبها ، ويديروا فلاحيها ،بينما اعطي للملتزمين جمع ضرائب الارض الملك وأرض السلطان الخاصة لصالح الخزينة وبيت المال الخاص . فعمل الفلاحين الرئيسي اذاً من وجهة نظر الحكومة العثمانية هو تزويد جامعي الضرائب المختلفين (الاقطاعيين والمتولين والملتزمين) بالضرائب المفروضة على الارض التي يعملون عليها . وقدلاحظنا عند كلامنا عن الارض الاميرية ان العامل عليها ليس له حق ملكيتها وانما «حق التصرف» فيها فحسب او بتعبير آخر حق استخدامها ، والانتفاع منها.

وعلى الرغم من أن المقطعين لم يكونوا سوى مشرفين رئيسيين على الأرض وفلاحيها فانهم كانوا يدعون « بأصحاب الأرض» . ومع ان «المتولين» الذين يجمعون الضرائب من ارض الوقف ، و « الملتزمين » الذين يقومون بالعمل نفسه في الاراضي الاخرى ، ليس لهم ما لأصحاب الارض ، الا انهم كانوا يتمتعون بالحقوق نفسها على الفلاحين[1] . ومن ثم كانت علاقاتهم بهم مماثلة لعلاقات الاقطاعيين بهم ماعدا بعض الاختلافات التي تتجلى في النقاط التالية :

١ ـ ان « امتلاك » السباهيين للاقطاعات « التيمارات والزعامات » هو وراثي لحدما . فهي ترجع الى اولادهم اذا كانوا صالحين للخدمة العسكرية ، مع ان هذا لا ينطبق على الاقطاعات الأرضية الاخرى ولو كانت تابعة لمنصب مدني، ومن

«١» Gibb & Bowen. Part 1 pp. 238- 239

ثم فان « الملتزمين والمتولين » لايتمتعون بهـــذا الحق الوراثي في الاشراف على الاراضي التي يتولونها .

٢ — ان كل قطاع يشمل مايمكن ان يسمى « نواة ملكية خاصة » تسمى « جفتليك خاص » يعمل بها المقطع بنفسه او يضع وكيلا يعمل لحسابه ، وهـذا لايتوافر للمتولين والملتزمين .

٣ — تسمى الاقطاعات خلافاً لأرض الوقف او ارض الملتزم بـ « ديرليك » أي معيشة وهو اسم يؤكد ان وارداتها قد خصصت لتأمين حياة المقطع . بينما مايجمعه المتولي يعود الى المؤسسة التي وقف عليها ، ومايجمعه الملتزم يأخذه مقابل المبلغ الذي قدمه للخزينة ضماناً لماسيجمع .

وكما كان تمتع السباهين « بالديرليك » وراثياً فـان (التصرف) بالحقول والمراعي حق وراثي للفلاحين المقيمين عليها ، فالارض ترجع بعد موت الفلاح الى اولاده دون دفع أية ضريبة ما . ولكن اذا لم يخلف ولداً فان الوضع يختلف : فحتى تعود الارض الى أي عضو من عائلته فان عليه ان يدفع مالا مقدماً يسمى (طابو) يعادل ضرائب سنة . وتعود الاولوية في الارث حينذاك بالتسلسل الى ابنته فأخيه فأبيه فأمه . وليس لاحد الاقارب الاخرين حق في (التصرف) الا الاحفاد في بعض الحالات الخاصة . ويمكن ان يملك (التصرف) فلاحان او اكثر مقاسمة ، وتذهب حصة كل واحد الى اولاده حين وفاته . ولكن اذا انعدم وجود مثل هؤلاء الوارثين فان للشريك او الشركاء الحق في ان يشغلوا المكان الشاغر بدفع « الطابو » عنه . ويمكن لصاحب الارض ان يعطي (التصرف) لواحد من خارج القرية على شرط ان يكون قد عرضه على فلاحي القرية التي تتبع لها الارض ورفضوا أخذه [1] .

«١» Gibb & Bowen . Part. I. p. 239

وكانت السلطات تهدف بهذه التنظيمات القديمة الى منع بعثرة املاك التصرف وتجزئتها ، كما كانت حريصة على استمرار الامر الفلاحية في التمتع بها والاقامة عليها. فأملاك التصرف كانت تزرع احياناً مشاعاً من مجموع الاسرة ويأخذ اولاد الرجل المتوفي تلك الارض جماعة يعملون بها كتلة واحدة ، واذا أراد واحد منهم ان يتصرف بقسمه فان بقية أخوته يمنعونه من ذلك . واذا كان المطالبون بالارث هم الأخوة او الأحفاد فانه يشترط لحصولهم على حق الأرث ان يكونوا مقيمين في القرية .

وهكذا فأسر الفلاحين كانت مؤمّنة ضد الطرد من اراضيها التي تعمل بها طالما هي تقوم بواجباتها . وواجبات الفلاحين تتركز في زراعة الارض وفلاحتها وفي دفع مختلف الضرائب والرسوم وفي ابلاغ صاحب الارض ، واخذ موافقته على أي اجراء فيما يخص ممتلكاتهم التصرفية يرغبون القيام به كبيعها مثلا . وهذا مبدأ رئيسي ، فكل انتقال للتصرف من يد الى يد أخرى دون علم صاحب الأرض يعتبر لاغياً (١).

اما الضرائب والرسوم التي يدفعها الفلاح فيمكن تصنيفها في مجموعتين وهي تقريباً نفس التي كان يدفعها في العهد السابق للاحتلال العثماني :

١ — الضرائب المفروضة على الارض وعلى انتاجها ، وعلى المواشي التي ترعى فيها .

٢ — الضرائب المفروضة على الفلاحين انفسهم شخصياً .

والقسم الأول يشمل بالطبع الضرائب على الارض والمواشي . اما على المواشي . فكانت نوعين : « عائدات الاغنام » و « العاجل الرسمي » وتدفع

«١» Gibb & Bowen: Part. I. pp 239 - 240

الأولى في موسم الاغنام ويؤخذ اقجة عن كل خروفين ، بيما يدفع العاجل الرسمي في موسم حمل الاغنام وهي اقل بكثير من عائدات الاغنام اي بمعدل (٥) أقجة عن كل (٣٠٠) رأس تقريباً ، ولم تكن تؤخذ هذه الضريبة في جميع الاقطاعات. اما الضريبة على المرعى بالذات فان (صاحب الارض) كان يتمتع بسلطة تعيينها على الفلاحين الذين يستخدمون مساحات من اقطاعه للرعي الشتوي او الصيفي .. وكانوا يدفعون في الواقع بحسب عدد الحيوانات التي رعت[1] .

اما الضرائب الرئيسية على الزراعة فقد عملت الدولة العثمانية منذ احتلالها لسورية على بحثها في كل مقاطعة ، وعملت على تدوينها . وفي الواقع لم تغير الدولة العثمانية شيئاً من واقع الضرائب المفروضة سابقاً ، ولم تحاول تعديل الأسس في فرض الضرائب على المقاطعات ، وتوحيد النسبة المأخوذة منها - كما اشير الى ذلك سابقاً - الا انها عملت على الغاء بعض الضرائب العرفية التي اثقلت كاهل الفلاحين في العهد المملوكي . ويلاحظ ان الضريبة الرئيسية على الأرض هي ضريبة (العشر) وتدعى كذلك « خراج المقاسمة » . وضريبة العشر هي اسهام نوعي يجمعه المقطعون والجباة وقت الحصاد : والفلاحون مجبرون على احضار جميع محصولهم لصاحب الأرض لدرسه ، ثم ينقلون القسم المخصص للعشر اما الى اقرب سوق اسبوعية او الى مخزن القرية . وقد كانت نسبة ما يؤخذ من كل محصول تختلف من مقاطعة الى اخرى وتتراوح بين عشره ونصفه[2] .

ولم تكن ضريبة العشر تؤخذ من الاراضي المزروعة حبوباً فحسب وانما

«١» Mantran& Sauvaget. Réglements Fiscaux.p. 7

«٢» Poliak: op.cit.P. 65 ففي الأراضي المروية يؤخذ النصف أما في الأراضي التي تعتمد على ري الأمطار فيكتفى بالربع أو الثلث، وفي الأراضي القريبة من البدو أو قرصان البحر ١/٧ أو ١/٨ .

كانت تجبى كذلك من تلك المزروعة اشجاراً مثمرة فاذا كانت الأراضي مزروعة زيتوناً فانها كانت تدفع عن كل شجرة زيتون في سنجق دمشق اقجة واحدة وفي حماه نصف اقجة وفي كل من القدس وصفد ونابلس وحمص تقسم واردات الزيتون مناصفة بين صاحب الاقطاع والفلاح . اما في طرابلس فان جميع واردات شجر الزيتون عائدة لصاحب الاقطاع[1] . وتختلف الكمية الجباة بحسب نوع الأشجار فما يؤخذ على شجور التوت مثلاً يختلف عما يؤخذ على شجر الزيتون والمشمش والجوز واللوز ... الخ والكروم[2] ... الخ . وبالطبع لم تكن تلك الضريبة ثابتة بالنسبة لجميع المناطق بل تختلف كذلك من سنجق الى آخر .

واذا زرع الفلاحون ارضهم خضروات فانها كانت كذلك تخضع لرسوم خاصة ، وكذلك اذا كانت مزروعة في آن واحد قمحاً واشجاراً مثمرة فان الضريبة تدفع مضاعفة ، اي عن كل نوع على حدة[3] . والى جانب الضرائب المذكورة سابقاً كان الفلاح يدفع رسم الطواحين ، وضريبة المسقفات على بيته رغم كونه ملكاً خاصاً . كما انه لا يمكن التصرف « بتصرفه » والحصول على موافقة صاحب الأرض الا بعد دفع ضريبة خاصة[4] .

أما الضرائب الشخصية فتختلف بحسب دين الفلاح : فغير المسلمين يخضعون للجزية وهذه لا يجمعها صاحب الأرض بل تجبى لصالح الخزينة . وهناك ضريبة تسمى « بال الزراعة » او هي في الواقع (خراج الموظف) وهي رسم

«١» علي الحسني . تاريخ سوريا الاقتصادي ، ص ١٥٠

«٢» Mantran & Sauvaget. Réglements, P. 4

في ولاية دمشق يؤخذ «٢» أقجة عن كل جوزة ، وأقجة عن كل خمس شجرات من المشمش .

«٣» Ibid. pp. 7 - 8

«٤» Gibb & Bowen . Part I . p . 241

ثابت يؤخذ سنويا من جميع الفلاحين الذين يتمتعون « بالتصرفات » ويكون بحساب مساحة الأرض ونوعها . أما الفلاحون الذين لايملكون « تصرفات » ما وانما يعملون على تصرفات أقربائهم كأجراء فانهم يخضعون هم الآخرون لضرائب ثابتة إلا انها أخف من السابقة . وفي حالة المسلمين هي على نوعين بحسب كونهم متزوجين أو عزاباً فالضريبة المفروضة على المتزوجين كانت (١٢) أقجة وعلى العزاب (٦) أقجة . وأهل الذمة يخضعون بدورهم لمثل هذه الضريبة انما هي موحدة وتقدر بـ (٢٥) أقجة . والى جانب تلك الضرائب هناك ضريبة الزواج (رسم العرس) ويدفعها الفلاح عند زواجه لصاحب الأرض وهي على المسلمين ضعف ماهي عليه على غير المسلمين [١] .

واذا كانت هذه هي الضرائب والرسوم التي يرزح تحتها الفلاح في بلاد الشام ، فما هي واجباته تجاه الأرض التي له حق التصرف فيها ؟ وتلخص هذه الواجبات بما يلي : بذر كمية معينة من البذور في الوقت الملائم لذلك والعناية بها حتى تنمو وتثمر . وعلى الفلاح ألا يترك أرضه دون زراعة أكثر من سنتين متتاليتين والا فانه يحرم من حقوق تصرفه حتى يدفع ضريبة الاهمال . وعندما يفقد فلاح حق تصرفه فان لصاحب الأرض حق اعطاء التصرف « بطابو » الى آخر . ولكن يبقى الحق الأول للفلاح في (المنح) الجديد على شرط أن يدفع ضريبة الاهمال والطابو معاً . واذا لم يفعل فان حق الاسبقية في (المنح) يعود لفلاحي نفس القرية قبل الوافدين عليها من الخارج . ففي تنظيم الحياة الزراعية تقف القرية وحدة متآلفة حتى فوق الأسرة [٢] .

ويبدو مما ذكر أن هناك بعض التوازن المبدئي بين حقوق الفلاحين في

«١» Gibb & Bowen: Part I . p . 242

«٢» Ibid : Part I . p . 242

القرية الواحدة وواجباتهم ، انما يلاحظ ان حريتهم مقيدة فاذا أرادت بعض الأسر ترك تصرفاتها والهجرة الى قطاعات أخرى لسبب من الأسباب فان الحكومة تكون لها بالمرصاد : اذ ان هدف الحكومة الأول من وضع القوانين التنظيمية للقرية والزراعة ان تؤمن الوردات المعيشية للفرسان الاقطاعين والمنتفعين الأخر من النظام الاقطاعي . ولذا فانها سنت القوانين التي تربط الفلاح بالأرض وتمنعه من مغادرتها الا في حالة موافقة صاحب الارض نفسه . واعطت لصاحب الارض السلطة لاجبار الفلاحين على العودة الى املاكهم « التصرفية » السابقة ولو بعد عشر سنين من مغادرتهم لها [1] . ومن هنا يتضح أن الفلاح هو عبد مستأجر لصاحب الأرض[2] : فهو لا يملك حريته ، ويجبر على العمل لتقديم محصوله او جزء منه لصاحب الأرض ولا يمكنه التهرب من هذا الواجب العشري الا اذا اختار الموت جوعاً . وعلى الرغم من أن القاضي المحلي هو الوحيد الذي يتمتع بحق فض الخصومات القائمة بين الفلاح وصاحب الارض – اذ لا سلطه قضائية لهذا الاخير – فان صاحب الارض كان لا يتورع عن معاقبة فلاحيه بالضرب والحبس وحتى الموت دون الرجوع الى القضاء ، كما أنه من حق صاحب الارض أن يطلب من السلطات مساعدته في معاقبة فلاحيه اذا لم تتوافر لديه الوسائل اللازمة لذلك [3] .

ومع كل تلك القيود التي تمنع الفلاح من مغادرة ارضه فان العديد من

«١» Gibb & Bowen : Part I . P . 242

«٢» Poliak : Feudalism ui Egyrt , syria .. P. 64

«٣» Ibid . P : 64

ويلاحظ أن عقوبة الموت هذه عرفت منذ عهد المماليك ورواها النويري في ج ٨ ص ٢٩٨ ، وابن اياس في ج ٢ ص ٣٧٢ . والطبع لم تتغير نفسية « صاحب الأرض » عما كانت عليه في عهد المماليك فقد تبنى الاقطاعيون العثمانيون السلطات نفسها ولو لم تكن قانونية .

الفلاحين كانوا يهجرونها هرباً من الاضطهاد والضرائب . وتذكر الوثائق بأن بعض القرى في ولاية طرابلس كانت تضم قبل العهد العثماني (٣٠٠٠) نسمة فاذا بها في بداية العهد العثماني قد تناقص عدد افرادها الى (٨٠٠)[١] .

ويلاحظ مما ذكر سابقاً أن العثمانين قد أكدوا في قوانينهم الزراعية على العادات التي كانت متبعة في عهد المماليك : فما جرى في الماضي يجب أن يجري في عهدهم . ومن هذه القوانين القديمة منع الفلاحين من تحويل الأرض الرعوية الى أرض زراعية وبالعكس ، ويشذ عن ذلك حالة واحدة وهي اذا تركت الأرض الزراعية دون مازراعة أكثر من سنتين ، ورويت اثناءها لدرجة سمحت بظهور الغشب فيها فانها تحول الى مرعى على أن تدفع الضرائب المتعلقة بذلك .

وعلى هذا فان الفلاحين في بلاد الشام كانوا يعملون في الارض وكأنهم أجراء ، وليسدوا رمقهم فقط دون أن يفكروا بأي ربح قد يجنونه عن طريقها. ولذا عملوا فيها ولا حافز يدفعهم سوى العيش كما كانوا يعيشون ، فلم يقدموا لها سوى أقل جهد وأضأل معرفة . ولم يبحثوا عن طريقة يحفظون بها خصوبتها غير الطريق المألوفة بتركها دون زراعة لمدة سنتين أو بتسميدها بالسماد الحيواني الذي كانوا يجمعونه ويكدسونه أكواماً في مزارعهم . وهكذا كان نشاط الفلاح في مطلع العهد العثماني كما كان عليه في اواخر عهد المماليك محدوداً وفعالياته مقلصة ، ولا يبذل من ذاته سوى القليل. فحياته لم تتبدل ولم يدخل فيها اي جديد يحركها. فهو وأخوه في الماضي يحرث الارض ويزرعها بشكل متشابه من عام الى عام ويستثمر المحاصيل نفسها، واصحاب الارض - في عهد المماليك والعثمانيين على السواء - فوق رأسيها يراقبون الأعمال الزراعية من بدئها الى نهايتها . ولا يعرف بالضبط

«١» Mantran & Sauvaget : op. cit. Pachalik de Tripoli art (9) .

فيا اذا كان صاحب الارض هو الذي كان يعين نوعية غلتها ، ولكن منطق ذاك العهد المنسجم مع مصلحة اصحاب الارض لا بد وانه كان يملي تحديد نوع المحصول من قبله . الا أنه حتى لو تركت الحرية للفلاح في ذلك الوقت فانه كان لا يختار من المحصولات الا مايتطلب منه اقل مجهود وما يدر عليه اكبر ربح . ومهما يكن فان الفلاحين كانوا يزرعون آنذاك المحصولات التي يحتاجون اليها في غذائهم اليومي كالشعير والقمح وذلك لصنع الغذاء الرئيسي وهو الخبز والبرغل، ثم العدس لصنع الحساء أو طعامهم المفضل (المجدرة) [وهو خليط من البرغل والعدس] . وكانت هذه المحصولات تتوزع زراعتها في القرن السادس عشر في حوران وسهول فلسطين ودمشق وحمص وحماه وحلب وضفاف الفرات. اما الرز فلم يكن يزرع الا قليلا حول الحولة وبأطراف جبلة على الساحل [1] . ويضاف الى تلك المحصولات الفول والبصل ، ومعظم هذه الحاصلات ـ كما اشير آنفاً ـ للاستهلاك المحلي ، ماعدا القمح فقد كانت تستهلك منه كمية قليلة ويصدر الباقي الى البلدان المجاورة انما في نطاق الامبراطورية العثمانية .

وقد اشتهرت سورية في تلك المرحلة الزمنية بزراعة القطن الذي كانت تصدر منه بعد اخذ حاجة استهلاكها المحلي الى الخارج وإلى اوربة بالذات . وقد كانت البندقية أكبر موزع له في القرن السادس عشر [2] . وكان يزرع في أطراف دمشق [3] وبين نابلس والقدس ، وفي ضواحي حمص وحماه ، وبين حلب ومعرة النعمان وكان الأخير افضل انواعه ، وقد رغب به الاوربيون لتيلته الطويلة .

«١» علي الحسني . تاريخ سورية الاقتصادي . ص ١٤٠

«٢» Braudel.La Méditerranée et le monde Méditerranéen P . 337 .

«٣» لم يكن قطن دمشق في القرن السادس عشر مرغوباً به لقصر تيلته ولذا كان يصدر مغزولاً ، الا أن الامر اختلف في القرن السابع عشر فغدا أكثر الانواع طلباً .

وكانت اكثر اراضيه بين حلب وحماه تسقى بمياه الصهاريج ايام الصيف [1] ، ولم تلبث زراعته ان انتقلت الى الساحل فزرع حول صيدا .

وإلى جانب تلك الزراعات قامت زراعة الاشجار المثمرة وبخاصة منها شجر التوت والزيتون والعنب والفواكه المختلفة الأخرى . وكانت اشجار التوت تزرع على الساحل وفي اطراف بعلبك وأنطاكية لتربية دود القز ، وقد ازدهرت في تلك الفترة الزمنية لتحسن صناعة الحرير في حلب بعد دخول هذه المدينة مع بلاد الأناضول واستامبول بعلاقات اقتصادية واسعة بعد الفتح العثماني ، ولتوقف الحرير الفارسي عن المجيء ، ولاهتمام الاوربيين وبخاصة الفرنسيين به مادة خاماً . اما الزيتون فهو من نباتات البحر المتوسط الأصيلة في بلاد الشام ، وتقوم زراعته في الشمال حول حلب وادلب ، وعلى الساحل شمالي طرابلس وجنوب صيدا، وفي غوطة دمشق ، وحول القدس اذ عدا الاعتماد على ثمره طعاماً هاماً فانه كانت تقوم عليه صناعة كبرى هي صناعة الزيت . واذا كان الزيتون من النباتات التي اشتهرت بلاد الشام بزراعتها منذ القديم فان الكرمة ايضاً من الشجيرات التي نبتت فيها منذ ازمنة بعيدة . وتمتد على سفوح الجبال ، وتقوم عليها صناعة الخمر للمسيحين التي كانت تلتزم لحساب بيت المال شريطة ألا تباع الى المسلمين ؛ وصناعة الدبس ، وصناعة الزبيب (العنب المجفف). اما الفواكه المختلفة فهناك البرتقال والليمون وكانت تنتشر زراعته على الساحل وحول يافا وطرابلس ، والمشمش بأنواعه في غوطة دمشق وتقوم عليه صناعة كانت تدر على بلاد الشام ربحاً وافياً وهي صناعة المشمس المجفف (النقوع) ، والقمر الدين .

ومن الزراعات الصناعية آنذاك كذلك السمسم وكانت تتركز زراعته بين نابلس والقدس ويصنع منه زيت خاص يستخدم في الاضاءة . والنيلج وتستخرج

---

(1) Belon Le Mans : Les Observations ... pp . 155 , 326

منه مادة صباغية زرقاء كانت تعجب الأوربيين حتى ان الانكليز كانوا حريصين في أواخر القرن السادس عشر على الحصول على بذورها او جذورها ليقوموا بزراعتها في بلادهم والاستفادة منها[١] ، وكانت تزرع في وادي الغور وفي بيسان بالذات . ويضاف الى ذلك الورد وكان يستخدم في صناعة الروائح العطرية .

وفي فترة الاحتلال العثماني لسورية كانت تمتد فيها أحراش تستحق الذكر ففي الشمال قامت أشجار الدلب والغار ، وفي لبنان احراش الارز ، وفي جبال الامانوس كثير من الصنوبر البري ، وكانت قممها مكسوة باشجار الغار . ولكن الدولة العثمانية لم تخصها بعنايتها : فبعضها احترق وبعضها قطع فتعرت أقسام كبرى كانت مكسوة في الماضي بالغابات[٢] .

ولم تكن الأدوات الزراعية في تلك الحقبة من الزمن تختلف كثيراً عما هي عليه اليوم في اجزاء عديدة من بلاد الشام : فالمحراث الخشبي الذي لايشق الارض الا سطحياً كان هو المستخدم آنذاك ، وكان الفلاح يصنع معظم أدواته كالمحرات ، والمنجل ، والنورج ، بنفسه . ويستعمل الثيران في جر محراثه اما الخيل فيتركها للركوب فقط . اما محصولاته فينقلها على الجمال والحمير والبغال ولم تكن طرق المواصلات متوافرة بين القرى وبعضها ، وبين القرى والمدن، بل كانت عسيرة وصعبة وبخاصة أيام الشتاء وفي المناطق الجبلية حتى ان كثيراً من القرى كانت تعيش في هذا الموسم في شبه عزلة كاملة وفي ركود كلي .

أما حول ري الفلاح لأرضه فلم يطرأ عليه أي تبديل عن السابق . فمن المعروف ان سورية تعتمد على مياه الامطار أو « الري البعلي » لقلة مجاري المياه فيها او بالاحرى لتوزعها طبيعياً توزعاً لايروي كل اراضيها الصالحة للزراعة . ولم

«١» Sanderson: Travels of Sanderson. p. 130

«٢» علي الحسني : تاريخ سورية الاقتصادي . ص ١٤١

تفعل الدولة العثمانية وهي في اوج قوتها شيئاً في مجال توسيع الشبكة المائية ، ولا في كيفية استفادة الفلاحين من مياه الانهار والقنوات القائمة . فالوثائق تشير الى انها ابقت النظم السالفة في توزيع « عدان » الماء على اراضي كل قرية ، مع حفاظها على الضريبة المفروضة للاشراف على قنوات الماء والمسماة بـ « مشدية الانهار » ، وتؤخذ كالعادة بحسب مساحة تلك القنوات ، ومساحة الاراضي التي تنال نصيبها منها . وكانت هذه الضريبة تصرف على صيانة القنوات ، ومايفيض منها فانه يرد الى بيت المال .

والفلاح السوري يعتمد على تربية الحيوانات الى جانب اعتماده على انتاج المحصولات الزراعية : ففي الشتاء ترعى ماشيته قرب القرية اذ يكون الموسم موسم عمل في الارض ، أما في الصيف فيأخذها بعيداً . وكثير من الفلاحين الذين استقروا حديثاً على الارض يعيشون تحت الخيام في فترة الصيف وكأنهم عادوا الى حياتهم البدوية السابقة وذلك لتوفير المرعى لماشيتهم . وهم يستندون في لباسهم كما يستندون في غذائهم الى تلك الماشية التي تقدم لهم الحليب والصوف والوبر والجلود .

وكان الفلاح الشامي يسكن آنذاك في بيت في القرية القريبة من أرضه ، مؤلف عادة من غرفة واسطبل وفي بعض الأحيان من مخزن للحبوب يضع فيه بعض فائض من المحصول . وكان البيت مبنياً من الطين او من الطين والخشب معاً بحسب المنطقة .

اما غذاء الفلاح فكان يتألف عادة من خبز الشعير ، أو القمح ممزوجاً بالشعير ، وحساء العدس ، او العدس والبرغل بعد ان يطبخها بالزيت او السمن ، اما اللحم فلا يتعاطاه الا أيام الاعياد ، وكذلك الحلويات التي يكتفي منها عادة « بالدبس » و « التين المجفف » . وكان لباسه من النسيج القطني او الصوفي المحلي او من جلود الاغنام .

ويلاحظ بأن (القرية) في بلاد الشام كانت تكون آنذاك وحـــدة في حكمها لنفسها وفي كفايتها لذاتها : فعلى رأسها شيخها الذي يحل المشكلات القائمة ، ويكون في معظم القرى من أهلها المتنفذين ، كما لها صناعها (نجار مثلا ، وحداد ، وصانع فخار ..) وبائعوها ، وحراسها ، ومسجدها وامامها ، والنساء فيها يقمن بدبغ الجلود وصباغتها ، ونسج السجاد والبسط والخيام ، وغزل الصوف والقطن ، وصنع الجبن والسمن . ومن هنا يستدل ان اقتصاد القرية كان اقتصاداً ذا كفاية ذاتية حتى انه يمكن للفلاحين فيها ان يعيشوا دون استخدام نقد البتـــة لأنهم لا يعتمدون على الاسواق الخارجية والتبادل معها . ولكن الرسوم المفروضة عليهم كانت تجبى نقداً ولذا كانوا يضطرون للحصول عليها ان يقـــدموا بعض انتاجهم لأقرب سوق . ويبدو من تنظيمات السلطان سليمان القانوني ان الفلاحـــين كانوا يلاقون صعوبات جمة في الحصول على نقد لدفـــع رسومهم . ومن ثم أصدر قانونا بامكان دفع تلك الرسوم عيناً من المحصول[١] .

ومن كل ماتقدم يتضح ان الفلاح في مطلع الاحتلال العثماني لسورية كان يعيش حياة تعـــة صعبة تحت نفوذ أصحاب الارض على الرغم من وجود التنظيمات التي تهدف الى تحديد سلطة هؤلاء ومنع استغلالهم للفلاح العامل . ويبدو ان اسوأ الفلاحين حظاً اولئك الذين يلتزم ضرائبهم ملتزمون لصالح الخزينة . لأن هؤلاء موقتون ولسنة واحدة ولاهمّ لهم سوى ان يجبوا بقسوة وعنف الضرائب الموكلة اليهم دون مانظر الى حال الفلاح ووضعه العام . وهم لكونهم موقتين لا يفكرون بمستقبله وامكانية دفعه في الأعوام القادمة . والملتزمون هؤلاء يشاهدون في الفـترة التي نتكلم عنها في ممتلكات التاج بخاصة وفي البقاع التي تركها السلطان سليم لاصحابها عند الاحتلال . وفي الواقع لانجد قواعد دائمة وثابتة في سورية تخص توزيع ممتلكات

Gibb & Bowen. Part. I. p. 246 «١»

التاج على الملتزمين كما هو الحال في مصر ، كما لا يعرف الكثير من شروط الالتزام[1] فالملتزمون اليهود مثلا في طبريا كانوا يدفعون للتاج كمية كبيرة من المال بعد تعيينهم ملتزمين ، أما بقية الملتزمين فكانوا يدفعون للديوان ضريبة ثابتة هي الميري عن كل قيراط من القرية ويبقى الفائض للملتزم . وقد كان الملتزمون اما من الحكام العثمانيين انفسهم او من رؤساء البلاد الجبلية الذين يسيطرون على قبيلة او طائفة دينية . وفي الواقع يمكن لكل صاحب ثروة ان يغدو ملتزماً . وبين الملتزمين في لبنان بخاصة اقلية غير مسلمة كرؤساء القبائل المسيحية فيها ، ولبنان بالذات كان يلتزمها اميرها من والي دمشق . اما شمالها فكان داخلا في مقاطعة طرابلس ويديره ممثل عن الأمير اللبناني ويتبع حاكم طرابلس العام والأمير معاً . وكان أميرها في مطلع الفتح العثماني كما شاهدنا سابقاً من آل معن . وكانت أهم الاسر الملتزمة او المقطعة من الدروز الارسلانيين ، وآل جنبلاط وآل تلحوق . ومن الشيعة آل حمادة المقيمين في جبة المنيطرة . ومن المسيحيين آل أبي اللمع والدحداح والحبيش[2]. ومن المسلمين في جبال الناصرية في فلسطين آل عبد الهادي ، والجيوشي[3].

واذا كان الملتزمون يقسون على الفلاح احياناً لدرجة يضطرونه معها ان يهجر قريته رغم القيود المفروضة على ذلك فان «المتولين» المشرفين على اراضي الوقف لم يكونوا أرحم قلباً او اكثر تفهما لواقع الفلاح . وفي الحقيقة ان اكثر الفلاحين حظاً هم الذين يقعون تحت نفوذ السباهين أو المقطعين بعامة إذ أن هؤلاء يكونون أكثر ارتباطاً بالفلاحين لأن وراثة المقطعين السباهين للاقطاع ، والفلاحين « للتصرف » أوجد بين الطرفين نوعاً من العلاقات العاطفية والصلات الودية . ولكن رغم تلك

«١» Poliak: Feudalism p. 47

«٢» طنوس يوسف الشدياق: اخبار الاعيان في جبل لبنان ص ٨٩ – ص١٠٤

«٣» Poliak: Feudalism p. 59

الروابط العاطفية التي يمكن أن تنشأ من تقارب الجانبين فان وضع الفلاح العام ــ أكان يعمل في أرض للتاج ،أو أرض وقف ، أو أرض اقطاع ــ وضع سيء ، لأن المعاملة التي يلاقيها لاتهدف مصلحته وانما ترنو الى مصلحة المشرف عليه : فهذا يلاحقه بصورة مستمرة بالرسوم والضرائب أكان الموسم الزراعي حسناً أم لا ، مما يضطره للاستدانة بفوائد فاحشة . فقد كانت الفائدة تتراوح بين ١٢٪ ــ ٢٠٪ وتصل أحياناً الى ٣٠٪ [1] . ويبدو ان سليمان القانوني شعر بخطر هذا الاجراء ففرض عقوبات شديدة على من يرفع قيمة الفائدة من الدائنين عن ١١٪ .

ويستنتج مما أوضح سابقاً ان حالة الفلاح في بدء الفتح العثماني لم تتحسن عما كانت عليه في عهد المماليك : فالقديم أبقي على قدمه ولم تحاول الدولة العثمانية ان تبحث عن حلول ايجابية جديدة لرفع مستوى الفلاح المادي والمعنوي . بل تركته كالسابق يرزح تحت عبء عبودية صاحب الأرض او الملتزم أو المتولي ، وينحني تحت ضغط الضرائب والديون الكثيرة . ومما كان يزيد شقاءه اضطراب الأمن : فاغارات البدو التي كانت تشكل خطراً كبيراً على الزراعة منذ الأزمنة السابقة بقيت تهدد مصيره . وقد تمكن العثمانيون في الحقيقة من استرضاء القبائل البدوية التي تهدد منطقة حوران ــ وهي اهراء سوريا ــ والضغط عليها حربياً حتى استكانت الى حد ما، وساعدها في ذلك قرب حوران من دمشق. أما فلسطين فقد كانت بعيدة عن باشاوات دمشق وبنفس الوقت فقيرة بالنسبة لحوران ولذا فان الدولة لم تبد اكتراثاً كبيراً بأحوالها ولم تبذل لها الحماية التي بذلتها لمنطقة حوران . ومن ثم كانت اكثر مناطق بلاد الشام اجتياحاً من قبل البدو . والى جانب الغزوات البدوية التي كان يعيش الفلاح في خوف دائم منها ، كان هناك

«١» اسكندر المعلوف،تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ص ١٥ .

التنازع بين المقطعين والفلاحين أنفسهم : فالنزاع بين القيسيين واليمنيين في لبنان بخاصة ، والاغارات المتبادلة بينها ملأت صفحات عدة من تاريخ منطقة لبنان . كما ان مثل هذا الخصام كان قائماً بين الدروز انفسهم ، وبين الدروز والطوائف الأخرى [1] . وهكذا كانت الحرب الأهلية على قدم وساق بين الأطراف المعنية بالأمر مما كان سبباً مستمراً في اجتياح الأرض الزراعية وحرق المحاصيل واتلافها وترك الأرض بوراً دون ما زراعة .

واذا كانت هذه الآفات آفات انسانية ، فان الزراعة في بلاد الشام تعرضت في مطلع الفتح العثماني لكوارث طبيعيـــة تشبه تلك التي كانت تتعرض لها أيام المماليك : فاكتساحات الجراد الوافد من الصحراء كانت تقضي بين آونة واخرى على كل مابنته يد الفلاح المسكين ، كما ان الأوبئة كانت تجتاح بين فترة واخرى البلاد فتهلك الحرث والنسل ، وتضاف الى ذلك فترات الجفاف وانحباس المطر . وكم كان الشعب في ساعات ضيقه يلتجيء الى صلاة الاستسقـــاء علّ الله يستجيب لدعائه ويبعث بالغيث لارواء الأرض . ومن الواضح ان الدولة لم تكن لتتمكن من معالجة هذه الامور بحيث تقضي عليها أو تزيل خطرها . وفي الحقيقة لقد حاول الاتراك العثمانيون عن طريق فهمهم الضيق المحدود لمعنى البناء الاقتصادي والاجتماعي ايجاد قوانين تضمن الى حد ما صالح الفلاحين معتمدين في وضعها على الماضي وتقاليده القديمة وعلى نظرة « شعبية » جديدة . واذا ما تمكنوا الى حد ما من الحفاظ على تلك المصالح حتى نهاية عهد سليمان القانوني بسبب قوة الحكومة المركزية ومراقبتها للأحوال في الولايات فانها فشلت في تحقيق هذه المصالح في الفترة اللاحقة : وذلك لضعف الفلاح المتراكم من العهود السابقة أولاً ، ولانعدام الطموح في ذاته ثانياً فقد كان يؤمن انه يعمل لغيره لا لنفسه ويكدح ليستدين لا ليربح ، ولعدم

«١» Gibb & Bowen : Part I . p . 266

سيطرة الدولة على الأمن سيطرة كافية ثالثاً ، ولانعدام محاولاتها في ايجاد اتصالات وتبادل بين الأقاليم المختلفة من الوجهة الزراعية أو تجديد في المحاصيـــل رابعاً . ومن ثم سارت الحياة الزراعية في العهـد العثماني من سيء الى اسوأ وبخاصة عندما انتشر نظام الالتزام على نطاق واسع وفي جميـع انواع الأرض . واذا كانت البلاد في القرن العشرين تشكو ضعفاً زراعياً مريعاً فان هذا يرجع الى عهود طويلة عاشتها في العهدين المملوكي والعثماني كانت الزراعة فيها راكدة تستهلك الارض دون مدها بتغذية كافية وتعتمد على القديم دون تجديد فيه ، أو على قوى بشرية فقدت روح الطموح لأن الأرض لم تكن لها .

* * *

٢ ــ الصناعة

كما أن القرية هي مقر المجتمع الزراعي فان المدينة عند احتلال العثمانيين لسورية كانت مركز الحياة الصناعية والتجارية . واذا كان قد تبدى لنا بأنه لم يطرأ تطور ذو بال على الزراعة في سورية في الفترة الاولى من احتلال العثمانيين لها فان نفس القول ينطبق على الحياة الصناعية فيها ، بل يمكن الاضافة أن هذه الحياة كانت اكثر حفاظاً على الماضي وأكثر تعلقاً بتنظيمها الاجتماعي والاقتصادي السابق وعاداتها الموروثة . ومن ثم كان وضعها استمراراً لما كان عليه في عهد المماليك وان بدت في العهد العثماني اكثر انحطاطاً بانتاجها ونشاطها عما كانت عليه سابقاً . ولن نتكلم هنا عن الصناعات القروية الصغيرة حيث يوجد صانع او اثنان يقومون بصنع الجرار والأدوات الخشبية لأن هذه الصناعات امتداد لتركيب حياة القرية . كما أنه لن يبحث في بعض الصناعات النسيجية التي يقوم بها البدو وبخاصة النساء منهم لأنها تدخل في تركيب التنظيم القبلي . وانما سنبحث في صناعة المدن بالذات ، تلك الصناعة التي شاهدت ازدهاراً رائعاً في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر الميلادي[1] .

ان صناعة هذه الحقبة من الزمن تتمركز في (السوق) . والسوق عبارة عن ممر في الوسط تحفه دكاكين من الجانبين ، وفي هذه الدكاكين الضيقة او الواسعة تقوم معظم الصناعات . وكانت الصناعة بعامة تستند على استخدام اليد فيها وقليلاً

«١» Gibb & Bowen . Part I . P . 282

ما تلجأ الى قوى محركة كالماء او الهواء . ولم يكن الصانع في ذاك الزمن يعمل على تكديس المادة الخام لديه بكميات وافرة كما انه لاينتج انتاجاً ضخماً يستهلك فيه مادة خاما كبيرة ، بل كان يصنع في معظم الاحوال كميات محدودة بنـــاء على توصيات بعض التجار او العملاء . والتاجر او العميل هو الذي يقدم له المادة الخام التي يقوم هو بصنعها حسب الطلب . ولكن هذا لايمنع من وجود صناع يعملون لحسابهم الخاص ويقومون بنفس الوقت بدور الصانع والتاجر معاً : أي يصنعون ثم يصرّفون البضاعة بأنفسهم أو عن طريق العملاء . ويستدل من هذا ان الصناعة بشكلها القائم آنذاك لم تكن لتتطلب رأسمالاً كبيراً طالما ان المادة الخام يقدمها التاجر اوالعميل ،وانماتتطلب اتقاناًفيالعمل وسرعةفيه أيأيديعاملة كفيةواجوراً لهذه الأيدي . ولم تكن الاجور في تلك الآونة مرتفعة بل كانت ذات مستوى منخفض بالنسبة لمستوى الحياة العام والأسعار[1] . كما ان الصانع يستخدم المتمرنين لديه ، وكان معظمهم يتمرنون دون اجر .

واذا ما سئل عن الاسباب التي أدت الى انحطاط الصناعة بعد الاحتلال العثماني اكثر مما كانت عليه في نهاية عهد المماليك فان بعض المؤرخين يعزون هذا الأمر الى ان السلطان سليم الأول أثناء فتحه لسورية ومصر عمل كما عمل سلفه تيمورلنك من قبله على نقل أمهر الصناع من القاهرة وحلب ودمشق الىاستامبول[2] لتزدهي بهم عاصمة ملكه . فاذا صحت الرواية فان هذا العمل لابد وان يكون قد أفقر في الواقع تلك الصناعات في مصر وسورية . لأن الصناعة كانت تنتقل آنذاك في نطاق الأسرة الواحدة فيتوارثها الأبن عن الأب حتى تغدو احتكاراً لهم . وبالطبـع فان هذا التركيب الوراثي للصناعة يسهل القضاءعليها فيمالوانقرضت

«١» Bonné:State & Economics in The Middle East P 232 .

«٢» Encyclopédie De L'Islam , Art , Sélim I .

الأسرة لسبب من الأسباب او انتقلت هذه الأسرة الى مكان آخر كما حدث عندما غزا تيمورلنك دمشق ونقل أمهر صناعها الى سمرقند. وفي الحقيقة إن بعد بلاد الشام النسبي عن العاصمة استامبول عامل هام في ضعف صناعتها بعامة، إذ ان مظاهر الترف التي تعتمد على بعض الصناعات الفنية واتقانها تتمثل في العاصمة أكثر مما تقوم في مدن الأقاليم، ومن ثم تلقى الصناعات في العواصم تشجيعاً مادياً وازدهاراً فنياً أقوى مما هو عليه في المدن البعيدة عنها.

واذا كان يستدل من ذكر الأسباب السابقة بأن الدولة العثمانية هي المسؤولة الأولى عن التخلف الصناعي في بلاد الشام في الحقبة الأولى من الاحتلال بعدم تشجيعها الصناعات فيها تشجيعاً مباشراً أو غير مباشر فانه لايمكن تركيز جميع الأسباب عليها. لأن هناك عوامل خارجة عن يد الدولة العثمانية ترتبط بالوضع الصناعي والتجاري العالميين وبمركز الشرق العربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ففي هذه المرحلة من التاريخ أخذت الصناعة الأوربية تنشط عما كانت عليه سابقاً وذلك لعوامل عدة منها تأثر الغرب بالصناعات العربية أثناء الحروب الصليبية واقتباسهم منها وحملهم أسسها الى بلادهم [1]، والنهضة العلمية المتوثبة آنذاك والأسواق الجديدة المفتوحة، وكثرة الفضة والذهب بين أيديهم بعد الاكتشافات الجغرافية. وبالطبع فان نهضة الصناعة الأوربية لابد وان تؤثر على استيراد الصناعات العربية من بلاد الشام وبخاصة منها الصناعات الحريرية «فالدورة العربية» كما يطلق عليها أرباب الصناعات الحريرية في أوربة امتدت فقط من القرن العاشر الى القرن الرابع عشر وكانت سورية أبان هذه الدورة هي والأندلس نقطتين

«١» علي الحسني، تاريخ سورية الاقتصادي، المقدمة ص ٦ و ص ٢٣، «لقد تعلمت أوربا صناعة حياكة الأقمشة الحريرية من دمشق وأكمل أصحاب معامل ليون معلوماتهم الناقصة في صناعة الأقمشة الثمينة التي اشتهرت بها سورية، والتي كانت مختصة بلباس الطبقة العليا بواسطة الحلبيين».

للصناعة تتجه منها البضائع الحريرية نحو أكثر أطراف أوربة وأفريقية [١] . ولكن ظهور المنافسة الأوربية (الايطالية والفرنسية) منذ القرن الخامس عشر أضر بالصناعة السورية . فأصبحت البندقية لاتصدر بضائعها الحريرية والصوفية الى أوربة فقط وانما الى بلاد العرب ذاتها حتى أن اقمشتها كانت في منتصف القرن السادس عشر منتشرة في أكثر أطراف الجزيرة العربية [٢]، فأوربة لم تستغن فقط عن الصناعات السورية وانما أخذت تنافسها حتى في ديارها ذاتها . وبالطبع لم تعمل الدولة العثمانية على حماية تلك الصناعات المحلية بالرسوم الجمركية المرتفعة بل بالعكس سهلت للأوربيين سبل التجارة كما سنرى وقدمت لهم أخفض تعريفة جمركية .

هذا فيما يخص التطور العالمي وتأثيره على الصناعة السورية . أما فيما يخص مركز الشرق العربي الاقتصادي في هذه الفترة من الزمن فانه كان مضعضعاً وذلك بسبب الحروب والكوارث الطبيعية التي انتابته في كل من القرنين الرابع عشر والخامس عشر اي في الفترة السابقة للاحتلال العثماني. وزاد الطين بلة انتقال طريق تجاره الهند من مصر وسورية الى الطريق حول افريقية في القرن السادس عشر . ومن الطبيعي أن الظروف القاسية التي عاشتها بلاد الشام في الفترة التاريخية المذكورة كان لها اسوأ الأثر على تطور الصناعة فيها وانحطاطها ، فقد اجتيحت اراضيها ، وفقدت امهر صناعها وانتابتها الاوبئة وانتشر الفقر في ربوعها . ويعزو « ستريبلينغ »[٣] التدهور العام في سورية ابان العهد العثماني كله الى انتقال طرق التجارة منها الى المحيط الهندي . وربما يكون مغالياً في اتجاهه الا أنه من المؤكد

«١» علي الحسني . تاريخ سوريا الاقتصادي ، ص ٢١٣

«٢» علي الحسني . تاريخ سورية الاقتصادي . ص ٢١٤ (محمود باشا الآتي لمصر من اليمن سنة ٩٦٠ هـ كان يخلع على العرب الذين يلاقيهم الجوخ الاحمر البندقي) .

«٣» Stripling: The Ottoman Turks & the Arabs . pp. 104 - 105

أن هذا الحادث هز اقتصادها هزة عنيفة كادت تطوح به ، وضيق من نطاق صناعتها وتجارتها .

ويضاف الى جميع تلك العوامل عامل هام في اضعاف صناعة بلاد الشام وركودها وعدم توسعها وهو القيود التزمتية التي كانت تعيش مختلف الصناعات في اطارها ، و « النقابات » التي كان الصناع ينضوون تحت لوائها : فكل صانع مهما كانت مهنته هو عضو نافع في طائفة صناعته او بمعنى آخر لايعيش بعقله الفردي وطموحه الذاتي ، واندفاعاته الخاصة وانما في نطاق جماعة لها تقاليدها وعاداتها ومبادئها ورموزها وهي التي يطلق عليها « الاصناف » او «الطوائف » .

ولا يجب ان يفهم من ذلك ان «الاصناف» وجدت في العهد العثماني فقط بل ان تأسيسها يعود في الواقع الى القرن التاسع الميلادي وكان لها علاقات وتأثرات بفرق القرامطة والاسماعيلية[1] إلا انها في العهد العثماني تأثرت بالفتوات ممثلة بجماعات « الآخي »[2] في الأناضول . ولكن هذا التأثير يبدو ضعيفاً في بلادالشام وبخاصة في الفترة الأولى من الحكم العثماني فيها[3] . وهذه الأصناف تختلف في

« ١ » علي الحسني . تاريخ سورية الاقتصادي . ص ٢١٥ .

« ٢ » الآخي : جماعات من التجار والصناع نشأت في عهد السلاجقة في بلاد آسيا الصغرى لتدعيم الحكم الاداري فيها . وكانت اشبه بجمهوريات صغيرة يسيطر رؤساؤها على المناطق المجاورة لهم لسلطتهم الدينية والاقتصادية معاً . وهذه الجماعات يصفها ابن بطوطة أثناء رحلته التي قام بها الى تلك البقاع . ويقول عنهم (ج ١ . ص ٢١٤) لايوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة . ويبني الآخي زاوية يجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معاشهم ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق في الزاوية . فان ورد مسافر انزلوه عندهم .

« ٣ » Gibb & Bowen. Part I. p. 292

تفصيلاتها وتنظيماتها من مدينة الى أخرى ولكنها جميعاً تتبع نظاماً أساسياً واحداً. فكل صنف يتألف من «معلمين» و«صناع» و«مبتدئين» او بمعنى آخر على كل صانع أن ينخرط في جماعة حرفية كما أن كل مبتدىء أو أجير صنعة ، عليه أن يرتبط بمعلم يعلمه سر المهنة وتقاليـــد الجماعة ويشهد له عندما يتقن عمله ويصبح مهيئاً ليحترف الصنعة من نفسه . وقد كان تركيب الجماعة تركيباً أسرياً بديعاً : فلكل حرفة شيخ ينتخبه معلمو الصنعة او (الكار) ممن اشتهر بحسن الأخلاق والطوية وامتاز بمعرفة اصول الحرفة . ولا يشترط أن يكون اكبر المعلمين سناً او من الشيوخ فعلاً بل يجوز أن يكون حديث السن ، حسن الصفات ، ، وأن يكون مقرباً من الناس والحكومة على السواء وعنده المام بأمور الصنعة[1] .

ويكون انتخاب شيخ الحرفة على الصورة الآتية : عندما يفرغ مركز المشيخـــة من الشيخ يجتمع شيوخ (معلمو) الكار ويعينون خلفه بالمذاكرة والاستحسان ولا يجرون بذلك على أكثرية الاصوات باتفاق الآراء. اما التصديق عليه من (شيخ المشايخ) - شيخ الحرف كلها - فيكون بذهاب اهل الحرفة من المعلمين والصناع بشيخهم الجديد الى شيخ المشايخ ويذكرون له تعيينهم فلاناً شيخاً عليهم فيتلو شيخ المشايخ عليه بعض آيات ثم يقدم له النصائح اللازمة لادارة حرفته بالعدل والاستقامة والسهر على صالحها ، ثم يسلمه (العهد) وبعد ذلك يقال عن شيخ الحرفة أنه قد دخل على (بساط الشيخ) اي أنه فاز بالتصديق على مشيخته من

«١» معظم المعلومات عن الحرف والنقابات مأخوذة من المقالة العلمية التي قدمها الياس عبد الله قنصل هولاندة في دمشق لمؤتمر المستشرقين بمدينة لايدن سنة ١٨٨٣ونقلها عنه ترجمة محمد جودت في كتابه : ذيل على فصل (الأخية الفتيان التركية في كتاب الرحلة لابن بطوطة) ويذكر في ص ٣٢٨ ان شيخ حرفة الجليلاتية في دمشق كانت سنه تتراوح بين ٢٠ — ٢٧ سنة وشيخ الكمرجية ٢٠ سنة فقط .

لدن (شيخ المشايخ)،لأنه بعد التصديق يمد امام الشيخ (بساط أخضر) تذكاراً ببساط النبي .

وكانت المشيخة في بعض الحرف تنتقل بالارث من الأب الى الابن على شرط أن يوافق على ذلك معلمو الحرفة. ومدة المشيخة غير محدودة فاما أن يلبث الشيخ فيها طيلة حياته او يبدل اذا مادعا الامر الى ذلك . وعلى الشيخ أن يعقد مجالس يتدارس فيها مع المعلمين مصالح الحرفة ويترأسها هو ويسهر فيها بالطبع على صيانة سمعة الكار ، وعلى المحافظة على الروابط بين افراد طائفته ، كما أنه يقاص فيها من أتى باخلال في حق الصنعة[1] . وكثيراً مايكون مكلفاً بايجاد عمل للفعلة فيوصي بهم المعلمين وله وحده الحق في أن «يشد» بالكار «المبتدئين» الماهرين فيصيرون

«١» يذكر الياس عبدالله بعض العقوبات التي كان يفرضها الشيخ على اعضاء حرفته وهي تدل على مستوى اخلاقي رفيع ، وقيم رصينة :

ذيل على فصل الاخية الفتيان . . استامبول مطبعة فورتولوس . ص ٣٤١

١ – يطرد الخائن او السارق طرداً باتا من الحرفة ولايقبله أحد من أهل حرفته بل يشنون عليه حرباً شديدة لابعاده عن كل عمل .

٢ – اذا ثبت ان أحد معلمي الكار نقص (الصاية – او ثوب القماش) عن الطول والعرض المألوفين فان شيخ الكار يحضرها ويقصها ويعلقها في السوق ليصير صاحبها عبرة لمن اعتبر .

٣ – اذا أدخل احدهم الغش بالكار فان الشيخ يرسل شاويشه ليقفل دكانه ولايمكنه فتحها الا برضا الشيخ وأهل الحرفة .

٤ – اذا ادخل احد الصياغ الغش او الزغل في مزج معادنه فان شيخ الصاغة يقلب له السدان على قفاه فيبقى هكذا منقطعاً عن شغله حتى يحصل على رضاه .

٥ – اذا أذنب فرد منهم ذنباً عادياً فانهم يقصون له خصلة من شعره .

٦ – اذا ترتب على احد المعلمين بأنه أخل بالروابط. فانهم يعطونه عرقاً أخضر دلالة انهم يكلفونه بعمل وليمة وهذا يعادل الجزاء النقدي . وهو المصطلح عليه اكثر من غيره من القصاصات .

يراجع نفس المصدر ص ٣٣١ – ص ٣٣٥

«صناعاً» او (معلمين) اي يعترف بدخولهم رسمياً كصناع في الحرفة. ويجري هذا باحتفال خاص بحضور اعضاء النقابة ومعلميها وموظفيها يشبه الاحتفال في الطرق الصوفية بنقل المبتدىء الى رتبة درويش.[1] وتكون مخابرة الحكومة معه فيما يتعلق بحرفته

«١» ويحدث احتفال الشد في احد البساتين نهاراً او في احد البيوتات ليلا او نهاراً. ويجتمع سائر المدعوين وشيخ الحرفة والشيوخ والنقيب (مساعد شيخ الشيوخ). وبعد السلام يصمت الجميع ويأخذ هو الشاويش والطالب الى غرفة ثانية ويشده ثم يرجع به الى مكان الاجتماع ويكون النقيب متقدماً عن الشاويش والمشدود وبعد النقيب يمشي الشاويش حاملاً معه صينية وعليها هدايا الشد ويضعها امام شيخ الحرفة. ثم يأتي الطالب (الأجير) مكتوف اليدين على صدره بكل حشمة ومشدوداً بالحزم فيوقفه الشاويش في الوسط على بساط اخضر ويجعل ابهام رجله اليمنى تعلو على ابهام رجله اليسرى ويطلب النقيب من الشاويش قراءة الفاتحة بصوت عال. ويكون الجميع راكعين وطارقين رؤوسهم ثم يطلب النقيب الفاتحة الثانية التي يسميها ثاني شرف ثم يطلب الختام فتتلى للمرة الثالثة. ثم يسلم النقيب سبع سلامات .. ويوصي النقيب المشدود، ثم يربط الحزم، ويلف المشدود به من وسطه الى قرب قدميه ويعقد طرفيه الأعليين من الخلف الى الامام ثلاث عقد، الواحدة احتراماً لشيخ الحرفة والثانية لمعلم المشدود والثالثة للشاويش وتفسير ذلك ان الشيخ له وحده القدرة ان يحل الاولى لأنه رئيس الحرفة كي يعلم المشدود ماله عليه من واجبات الخضوع. وأما الثانية فيحلها المعلم ليفخر انه اخرج تلميذاً ماهراً من تحت يده. ويحل الشاويش الثالثة لأنه احد السلطات الثلاث التي على المشدود ان يخضع لها في كاره.

وبعد ذلك يعين « ابا » بالكار للمشدود أحد الحاضرين من المعلمين وعلى الغالب يكون معلم ذلك المشدود ابا له بالكار. ويجوز ان يتخذ خلافه لأنه لما كان يعد الاب بالكار بمنزلة (كفيل) فهو مطالب بما يقع من المشدود من الخلل. فاذا كان المشدود غير ممدوح السيرة يتمنع معلمه عن قبوله ابناً له، وهذا نادر الحدوث. ويقدم شيخ الحرفة للمشدود النصائح الآتية: « يابني ان جميع الحرف هي كارات أمانة على الاموال والأعراض والأرواح، والأمانة هي الدين فاذا نفق كارك احفظ دينك. كن صادقاً وأميناً واعلم ان كارك مثل عرضك: حافظ عليه بقدرتك. واذا استلمت أموال الناس فلا تفرط بها، واياك ان تخون أهل الحرفة والخائن قبيله الديان». ثم يسأل الحاضرين رأيهم=

والضريبة السنوية المفروضة على طائفته[1] .

وكما أنه لكل حرفة شيخاً يرأسها فان لها شاويشاً وهو الآخر ينتخب من أهل الكار جميعاً . وهو رسول الشيخ وأمين سره يدعو باذنه شيوخ الحرفة وسائر أهلها للاجتماع ، ويكلفهم لحضور الشد والولائم ، ويبلغ العقاب لمن حكم عليه الشيخ بذلك .

أما «المبتدئون» في الصنعة فهم الأولاد الحديثو السن الداخلون مجدداً فيها، اما ليحترفوها فنياً نتيجة لميول خاصة بهذا الاتجاه ، أو ليعملوا بيدهم ما يصون مستقبلهم من العوز والفاقة . ويبقى المبتدىء عادة عدة سنين بلا اجرة او معاش ويكتفي اهله بالأمل في انه سيأخذ الصنعة من استاذه ولكن هذا لم يمنع بعض المعلمين من ان يرتبوا له (جُمَعِية) تدفع في كل اسبوع وتكون متناسبة مع مهارته إلا ان اسمه يبقى (أجيراً) حتى يدخل في سن الرجولة أو يصل في صنعته الى حد الاتقان فيدعى عندها صانعاً ولو لم يشد بعد بالكار . اما اجرته فتبقى ضئيلة ولا يسمح له بالطبع من مزاولة مهنته وحده وعلى حسابه ، وهذا ما يدفع المبتدئين الى التعجيل بطلب الشد أملا في الحصول على حقوق جديدة . والارتقاء الى رتبة صانع فمعلم هو المكافأة العظيمة التي ينتظرها عملة الحرف على اجتهادهم في مهنهم : فلم يكن هناك معارض عمومية او خصوصية ولا مسابقات وجوائز ، ولاحكومة

=في المشدود فيجيبون « مستحق » ويركع المشدود وأبوه بالكار الواحد ازاء الآخر نصف ركعة وتتشاد أيديها ويقول الاب للطالب « عاهدني بعهد الله ورسوله ألا تخون اهل الحرفة ولاتغش الكار » . (وهو نفس العهد الذي يأخذه شيخ الشيوخ على شيخ الحرفة) . فيعاهده بقوله : اعاهدك بعهد الله ورسوله أني لاأخون الكار ولا أغش الصنعة بشيء . وتحل عقد الحزم من قبل المسؤولين وتوزع الهدايا لكل من شيخ الحرفة والنقيب ، ويصبح المتمرن صانعاً .

«١» توزع الضريبة على اعضاء الحرفة من قبل الشيخ بحسب موارد كل منهم .

تضمن لمن أتى بتحسين في مهنته او باختراع جديد فيها أن يحصل على مكافأة مادية او امتياز يكفل له المستقبل وينشط غيره للاقتداء به .

ولم تكن نقابات الحرف المختلفة مبعثرة متوزعة لا رابطة بينها بل على العكس كان شخص « شيخ المشايخ » يجمعها أي رئيس اتحاد الحرف . وكان في دمشق بالذات رئيساً لأكثر من (٢٠٠) حرفة يأمر وينهي ويقاص ، ويفصل في كل مسألة . وهذا الشيخ هو « الآمر الأعلى،والحاكم الأعظم والرئيس الأسمى الذي لاينتخب ولا يعزل ولا يبدل ، ولا يخلعه من منصبه إلا الموت او الاستقالة[١] » . وكانت السلطات التي يتمتع بهاهذا الشيخ كبيرة منذ عهد المماليك، وكان له في العهد العثماني الأول القدرة على أن يلقي من تعدى من المشايخ او من سائر اهل الحرف في السجن وان يكبله بالقيود ، ويضربه بالعصا . وكان يساعده في عمله « النقباء » وهؤلاء هم رسل يعينهم شيخ المشايخ من قبله ليحضروا اجتماعات الشد في كل حرفة وليتلوا الأدعية ويجروا ما يلزم كما لو كان شيخ المشايخ حاضراً بنفسه ، كما أنهم صلة الاتصال بينه وبين مشايخ الحرف الاخرى .

ولم تكن النقابات هذه مقصورة على المسلمين فحسب بل كانت تضم المسيحيين واليهود[٢] ، ويخضع هؤلاء في تلك النقابات المختلفة لاحتفال الشد ولو انه يكتفى في تلك الاحتفالات بتلاوة من صلواتهم وبشدهم بالمئزر ، وكان آباؤهم بالكار دائماً من المسلمين[٣] . ولكن هذا لايمنع وجود حرف مقتصرة على المسيحيين كحرفة

«١» محمد جودت : ذيل على فصل الأخية الفتيان . ص ٣٢٥ . نقلا عن مقال الياس عبد الله . وقد نقلها كارلولاندبرغ في :

Actes Du VIème Congrès Des Orientalistes . 2 ème Partie (Notice Sur Les Corporations De Damas) .

«٢» المعلوف : صناعات دمشق « مجلة الغرفة التجارية فيدمشق ١٩٢٢ »: ومن المهن المختلفة هذه الصياغ ، والنحاسون ، وصانعو السجاد .

«٣» محمد جودت . ذيل على فصل الأخية الفتيان ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

البنائين والنحاتين في دمشق ، واخرى محتكرة من قبـل المسلمين كالعطارين والدهانين ، وكانت تسعة أعشار صناعة الاغذية وتجارتها بأيدي المسلمين[١] . ولم يكن في بدء مرحلة الاحتلال العثماني أي تميز في نطاق النقابة بين المسلمين والمسيحيين . ولكن مع الزمن اخذت العلاقات تفتر ، ويتباعد الطرفان حتى اصبح كل طرف يجتمع على حدة[٢] .

والى جانب تقاليد الحرفة التي ذكرت سابقاً تقوم قيود شديدة تضيق من ساحة الصنعة نفسها: فقد كان من حق (المعلمين) فقط، أي اولئك الذين اجتازوا مرتبة التمرين بنجاح ، فتح حوانيت خاصة بهم . وكان عدد الحوانيت لكل طائفة محدداً بدقة ، وهذا ما أعاق التوسع الصناعي الكمي كما ان الحانوت لا يمكن أن يكون أبداً ملكاً لصاحبه وانما مستاجراً من قبله : فهو يدفع عنه سنوياً كمية محدودة من المال . وقد كان امتياز امتلاك دكان او حانوت او ممارسة الصنعة بمعنى اوسع نوعاً من الملكية يمكن ان تباع وتؤجر ، وتورث الى اولاد المعلم بعد وفاته . فالولد يقوم بعمل ابيه اذا كان قد وصل الى مرتبة صانع متمرن في النقابة نفسها . واذا لم يكن كذلك فان ذاك الامتياز يباع من قبـل الورثة الى احد اعضاء النقابة الآخرين . ويمكن الحصول على امتياز جديد من السلطات اذا دفع المعلم للخزينة مالاً مقدماً على شرط ان يثبت أنه يمتلك الادوات الضرورية والوسائل اللازمة لممارسة صناعته . وامتياز امتهان الحرفة الجديدة نوعان : **امتياز محدود** يسمح للمالك فيه أن يتابع عمله بمكان معين ، **وامتياز لامحدود** يسمح للمالك فيه ان يمارس عمله في أي مكان يرغب فيه . والثاني نادر جداً ، وغدا أندر مع الزمن ، وذلك لرغبة الحكومة في شد قبضتها على الصناع ، وهذا لا يتاح لها إلا اذا كان

«١» محمد جودت : ص ٣٣٩ .

«٢» Gibb & Bowen Part I . P . 289

الصناع يعملون في حي واحد . وعلى هذا الاساس بقي صناع حرفة ما كما كانوا في الفترة السابقة للاحتلال العثماني يتجمعون في سوق واحدة . وهذا الأمر لايزال واضحاً جداً في مدن سورية كدمشق وحلب . ففي الاولى هناك سوق للخياطين، وسوق للنحاسين وسوق للسروجية وسوق للمناخلية ... وهكذا .

وليس امتياز احتراف المهنة من احتكار فئة معينة من الصناع فحسب وانما كانت الأعمال التي يسمح لأعضاء النقابة القيام بها محدودة ايضاً ومقيدة. فنفس المصنوعات تكرر وتكرر دون ما تجديد فيها او ابتكار اذ ان النقابة وضعت شروطاً معينة يجب ان تتوافر في تلك المصنوعات حتماً ، ولم تنظر الى التطور الاجتماعي الطارىء وبالطبع كان هذا التطور بطيئاً من نفسه . كما ان الحكومة تدخلت هي الأخرى فوقفت في وجه المنافسة الفردية وأقرت بانه لايمكن بيع أية بضاعة من اي نوع كان فوق السعر الذي تحدده في كل موسم من الزمن . كما لايمكن لأي صانع ان يصنع شيئاً غير المرخص به لنقابته . وأبدت انه لايجوز له اجراء اي تغيير في شكل البضاعة المصنوعة . وهذه القيود كما يظهر واضحاً جمدت الصناعة في قالبها القديم ، وأفقدتها عنصر التجديد ، واضعفت في نفوس افرادها روح الخلق والتحسين ومن ثم انحط مستواها الكيفي مع الزمن ،وضعف الراغبون فيها . وفي الواقع لم يكن التسعير الحكومي لمختلف البضائع قيداً للصناع فقط كأفراد ، او دفاعاً عن حقوق المستهلك ، ومنعاً للمنافسة الضارة وانما كان موجهاً ضد استغلال النقابة كمجموع او احتكارها . فالصناعة لم تكن تخضع لتقاليد النقابة وقيودها فحسب وانما لقيود الحكومة ومراقبتها ايضاً .

فقد سلمت الحكومة العثمانية مراقبة اعمال النقابات وشؤونها للقاضي ويساعده المحتسب . وبذلك أوجدت للمحتسب عملاً اضافياً الى عمله الذي كان يقوم به في العهود الاسلامية السابقة للفتح العثماني إذ كان في الماضي الأبعد يراقب

الأخلاق بعامة فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، الا ان عمله أيام الدولة العثمانية غدا مراقبة النقابات وما يمكن ان يتخللها من حركات ثورية تمردية ضد الحكم القائم وجمع الضرائب المفروضة عليها . وكان يتناول أجره من ضريبة خاصة مفروضة على جميع التجار . اما القاضي فكان ينظر في الخلافات التي تحدث بين الصناع والمستهلكين بخاصة والصناع وبعضهم ، والصناع والتجار ويصدر أحكامه المختلفة عليهم . وعلى المحتسب الى جانب أعماله السابقة تنفيذ تلك الأحكام [١] .

ويبدو مما ذكر آنفاً ان الحكومة كانت تخشى هذه النقابات والحركات الخفية المحتملة فيها. وفي الواقع كانت (الطوائف) جماعات متضافرة متعاونة وبقدرتها ان تلعب دوراً خطيراً في المنحى السياسي لو أرادت . ولكن التركيب الديني الأساسي لها وانصرافها الى اعمالها جعلها بعيدة الى حد ما عن التأثير السياسي او التوجيه الحكومي حتى عزا بعض المؤرخين الهدف من تضييق المراقبة الحكومية على النقابات الى حماية الصناع انفسهم من انفسهم لا الى منع تمردهم وثوراتهم . أي انها ارادت من وراء عدم السماح بفتح حوانيت جديدة تخفيف حدة المنافسة بين الصناع وتوفير العمل الكافي للصناع الموجودين فعلاً ، بخاصة وان الجميع يعملون في حي واحد ومتجاورين . ولكن الواقع ان الدولة كانت حذرة من هذه النقابات وان بدت مسالمة في المرحلة الأولى من الاحتلال العثماني . وقد صدق حدسها اذ ان هذه الاصناف ستكون مقراً لحركات تمردية عدة ولا سيما عندما انخرط فيها الانكشاريون بعد فساد نظامهم الأول .

ويتضح من كل ماقيل عن الأصناف انها لعبت دوراً مزدوجاً في حياة المجتمع السوري فهي من ناحية قيّدت الصناعة ومنعتها من الانطلاق والتقدم بعيداً، ومن ناحية اخرى حفظت الروابط والصلات بين افراد المهنة الواحدة من التفكك

«١» Gibb & Bowen : Part.I. p . 289

والانحلال . وجعلت الصانع فرداً اجتماعياً صالحاً قبل ان يكون اقتصاديا طموحاً كما دعت للمهنة واتقانها ووقفت تنافح في وجه مايمكن ان يضعف مستواها الفني . وان تشبثها بمبادئها – رغم خنقه روح الابداع – منع الفساد الخلقي من التفشي في نطاق الصناع فقد حرصت على الاخلاق الفاضلة المتسامية ، وعلى مفاهيم الأخوة الصادقة في نطاق الحرفة الواحدة وتعهدتها جميعاً بالرعاية والحماية حتى عرف الصانع العربي والسوري بخاصة في اوربة بالصدق والأمانة والاخلاص في عمله [1] .

وعلى الرغم مما بيّن سابقاً عن تراجع الصناعة في سورية وتقهقرها في بدء العهد العثماني فان سورية لم تفقدفي الحقيقة اهميتها الصناعية وبخاصة في ميدان صناعة الأقمشة الحريرية والقطنية . وساعدها على ذلك اتصالها ببلاد الأناضول بعد احتلالها من الاتراك ، إذ فتح امامها بذلك اسواق جديدة يمكنها ان تصرف منتوجها اليها . وبالفعل فقد ازداد انتاج سورية الصناعي انما فقد من كيفيته السابقة . وقد ذكر « بلون » الذي زار سورية بعد الاحتلال العثماني ان مناديل حمص كانت تباع في جميع اطراف تركيا وهي من حرير ومطرزة بخيوط ذهبية وألوان حريرية بيضاء او حمراء او صفراء [2] .

وقد امتدح هذا السائح بضائع الشام وشهد لأهلها بالمهارة بصناعة السيوف الدمشقية الرائعة والنحاس وتكفيته بالفضة وذكر ان انتاجها في هاتين الناحيتين كان يصدر الى استامبول والقاهرة . ويلاحظ ان الصناعة السورية آنذاك كانت تعتمد على المواد الخام الموجودة فيها ونادراً ما كانت تستورد من البلدان المجاورة لها واذا ما فعلت فانها كانت ترد لتلك البلدان قيمة ما استوردته بضائع مصنوعة .

«١» Gibb & Bowen , parti . p . 292

«٢» Belon DE Mans : Les Observations ... p . 346

وقد كان فيها نوعان من الصناعات احدها يهدف الاستهلاك المحلي فقط وهذا يقوم في مدن المقاطعات ، والآخر يرمي الى الكفاية المحلية والتصدير الخارجي في آن واحد ، ويتركز في المدن الكبرى . والصناعة الرئيسية التي كانت تعتمد عليها سورية في تلك الفترة الزمنية هي الصناعة النسيجية القطنية والصوفية والحريرية على السواء وكانت النساء تقوم بعملية الغزل في البيوتات ، اما النسيج فيجري في بيوت صغيرة وبأنوال يدوية . ومن أشهر المدن بالصناعة النسيجية كانت حمص وصيدا ، وغزة ، وحماة ، وبعلبك وكان يتبع تلك الصناعة الصباغة والتطريز وصنع الخيوط الذهبية والفضية التي اشتهرت بها سورية دون غيرها والتي كانت تمزجها مع الخيوط الحريرية لتنتج منها القماش الحريري المشهور المسمى «البروكار» .

وإلى جانب الصناعات النسيجية تابعت سورية صناعاتها الغذائية المختلفة كصناعة الزيت من الزيتون والسمسم ، ويتبع هذه الصناعة صناعة الصابون ومركزها في نابلس وحلب وطرابلس ، وكانت الصودا يأتي بها البدو عن طريق حرق بعض النباتات القلوية الصحراوية وكان يطلق عليها اسم « الأشنان » . وقد كانت تحتكرها الدولة ، وتسمح بتصدير جزء منها الى الخارج اذ أن اقبال الاوربيين عليها كان كبيراً ولا سيما الفرنسيين في مرسيلية . ومن الصناعات الغذائية الأخرى صناعة السكر ، والدبس ، والقمر الدين ، وطحن الحبوب ، وتقطير الورد والزهر (وكانوا يستخدمونه في الشراب وفي الروائح العطرية) ، وصناعة الحلويات التي اشتهرت بها دمشق وحلب وطرابلس .

واشتهرت سورية في تلك الآونة كذلك بصناعة الدباغة ، وكان معظم صناعها ان لم يكن كلهم من اليهود[1] . وصناعة الخشب للاثاث وبخاصة المحلى بالفسيفساء المعروفة ، والمعادن وبخاصة صناعة السيوف الدمشقية ، والأواني النحاسية المختلفة

«١» Heyd : Hisoire du commerce du Levant. tome I. p. 167

المكفتة بالفضة، ولو أن صناعة الخشب قد ضعفت قليلا لعدم تهافت الناس على الأثاث الفاخر والأبنية الفخمة كما كان عليه الحال ايام المماليك. وقد حافظت سورية على سمعتها الصناعية السابقة بالزجاج والمرايا: وكان الزجاج يصنع بخاصة في صور، والمرايا في الخليل (١).

وهكذا فالصناعة في سورية في مطلع العهد العثماني كانت قد تضعضع موقفها مع ضعف مركز البلاد السياسي والاقتصادي بعامة، وتدنى مستوى انتاجها لعوامل عدة فندناها. ولكن هذا لا يعني ابداً أن بلاد الشام قد اضاعت قدراتها الصناعية بين عشية وضحاها، بل بقيت محافظة على كثير من تلك القدرات، ومحتضنة صناعاتها السابقة بجدب، تلك الصناعات التي تهافت عليها الاوربيون في القرن السادس عشر والسابع عشر، وبخاصة الصناعة النسيجية القطنية المشهورة بصباغاتها الثابتة التي اطلقت عليها اسماء مختلفة مثل « الكلسي » و « الحموي » و « البعلبكي ». كما أن سورية طورت قليلا في صناعتها فخلطت في الصناعة النسيجية خيوط القطن بالحرير (٢). ولقد شاهدت حلب نهضة صناعية كبيرة في القرن السابع عشر نتيجة للنشاط التجاري الخارجي فيها. ولكن هذا الازدهار كان موقتاً اذ أن التجارة الاوربية نفسها عادت الى منافستها في هذا القرن بالذات بعد أن نمت الصناعة الاوربية واخذت تقلد الصناعة الشرقية والسورية.

«١» علي الحسني. تاريخ سورية الاقتصادي. ص ١٨

«٢» Gibb & Bowen : part I . p . 296 .

التجارة

كانت سورية على مر العصور مركزاً تجارياً هاماً لتوسطها العالم المعروف آنذاك واتصالها السهل بالقارات الثلاث ، ولوقوعها على طرق التبادل التجاري الكبرى . وقد استغل شعبها منذ القديم هذه المنحة الطبيعية فعمل بنشاط في ميدان تبادل السلع والبضائع وكانت له شهرته ، وخبرته التي لاتضارع . وبذلك اسهم منذ عهد الفينيقيين والآراميين في ترقية سبل التجارة العالمية ووسائلها ، وفتح بلاده لمنتوجات العالم ، وكان وسيطاً ماهراً بين اجزائه المتباعدة . وهكذا منذ العصور القديمة كانت ترى القوافل التجارية المحملة ببضائع الهند وافريقية تعبر ارض سورية من جنوبها ، وتجتازها عبر « الطريق العالمية » وتصب ماتحمل في المدن السورية الداخلية وعلى السواحل حيث تنقل منها بعيداً الى اوربة . كما يشاهد منذ القديم بضائع فارس وبلاد الرافدين تصلها عن طريق الفرات لتصب شمالها ومنه الى اقصى الشمال الى بلاد اسية الصغرى. وهكذا عاشت سورية قرون تاريخها وهي مفتوحة للتجارة العالمية ، ومسرحاً لنشاط تجاري داخلي نجم بالطبع عن عبور شتى البضائع المتنوعة اسواقها وعن انتاجها الزراعي والصناعي المختلف.

وقد كان الحكم العربي الاسلامي لها والفتوحات الواسعة التي حققها ، والأمن الذي بثه في ربوعها ، والنقد الذي سكه عاملا قوياً في توسيع نطاق

تجارتها الداخلية والخارجية على السواء . فامتدت طرق تجارتها عبر أرمينيا وقفقاسيا الى بلاد روسيا وفنلندة والسويد[1] وأرسلت سورية نسيجها القطني والحريري ومرايا فلسطين المعدنية وبهارات الهند وعطورها الى بلاد الشمال تلك[2]. وقد حاولت بيزنطة أن تقف في وجه التجارة العربية السورية عن طريق القرصنة التي بثتها في البحر المتوسط ، وعن طريق اتفاقها مع البابا في القرن التاسع الميلادي لمنع تجارة الايطاليين معها[3]. ولكنها مالبثت ان عادت الى تحسين علاقاتها معها في القرن الحادي عشر لحاجتها للسلع التي تصدرها ، وكانت تستورد منها الذهب والفضة والعاج والبهارات والقز والكتان .

وقامت الحروب الصليبية ، وأسس الفرنجة على الأرض الشامية امارات واستغلت المدن الايطالية هذه الفرصة فأخذت تتعامل على نطاق واسع مع هذه الاجزاء وبخاصة منها البندقية وجنوة وبيزا . ورافقهم في عملياتهم التجارية هذه سكان جنوبي فرنسا ولا سيما تجار مدينة مرسيلية . ونشطت الحياة التجارية في سورية لهذا التبادل الواسع واتخذت اتجاهاً أوربياً غربياً واضحاً . ووفد اليها التجار الأوربيون يستقرون على أرضها والحجاج المسيحيون يتعرفون على منتجاتها وخيراتها .

وانتهت الحروب الصليبية ، وقررت أوربة المسيحية مقاطعتها تجاريا ولكن المدن الايطالية رغم مسيحيتها ثابرت على التجارة معها لحرصها على مصالحها الاقتصادية ورخاء أهلها . فمعين التجارة السورية الأوربية لم ينقطع ولو انه تضاءل

« ١ » علي الحسني . تاريخ سورية الاقتصادي . ص ٧٧

« ٢ » علي الحسني . تاريخ سورية الاقتصادي . ص ٨٣٠

« ٣ » Huart : Histoire des Arabes. p. 122

لفترة من الزمن ثم عاد أنشط ما كان عليه . واستعادت بعض المدن المخربة نتيجة الحروب بين الصليبين والمماليك نشاطها بالتدريج كمدينة طرابلس ويافا . وغدت سورية مرة اخرى مخزناً لبضائع الهند وبلاد الجزيرة العربية وأفريقية ، وحافظت على مركزها هذا ونشاطها التجاري الواسع حتى مطلع القرن السادس عشر عندما توطدت الطريق التجارية الجديدة التي اكتشفها البرتغاليون عبر رأس الرجاء الصالح فضعفت قيمتها التجارية بتحول الطريق الرئيسية لبضائع الهند عنها . وحدث هذا – كما اشير سابقاً – في نفس الوقت الذي دخلها فيه العثمانيون فاتحين . وقبل التطرق الى بحث التطورات التي طرأت على تجارة سورية الخارجية في هذه الحقبة من الزمن لا بد من الاحاطة بتجارتها الداخلية أولا .

التجارة الداخلية

لقد كانت التجارة الداخلية تجري في سورية كما كانت عليه زمن المماليك وقبلهم الأيوبيين ، أي عن طريق الأسواق الأسبوعية في المدن والمراكز الزراعية حيث يتبادل كل اقليم الفائض لديه من منتوجه مع الفائض من منتوج اقليم آخر او مع بضائع العاصمة والمدن ومصنوعاتها المختلفة وما يفد اليها من سلع البلاد الخارجية .. ويضاف الى تلك الأسواق المحلية الأسبوعية اسواق موسمية (سنوية ونصف سنوية) تعرض واردات الأقاليم المختلفة من زراعية وصناعية ، ويكون التجار في هذه الأسواق عادة هم الصناع أو المنتجين انفسهم . أما الاسواق الرئيسية في المدن الكبرى فهي مزودة بشكل دائم ومستمر بمنتجات الصناعات المختلفة والزراعات العديدة في المدينة والاقاليم وما يحمل الى تلك المدن من البلاد الخارجية .

أما العمليات التجارية الكبرى في ميدان الاستيراد والتصدير فقد كانت تتم في خانات واسعة وكانت المدن السورية تملك منها العديد .

ولم تصب التجارة الداخلية في الفترة الأولى من الحكم العثماني بركود ما .

بل بقيت تتابع سيرتها السابقة ولا سيما ان الحكومة لم تتدخل في مجراها. ولكن لابد ان الأوضاع الداخلية التي تلت الاحتلال من عدم استقرار في الحكم ، ومن ثورات داخلية قد اوقفت قليلاً نشاط الحركة التجارية بين مختلف المدن والقرى الشامية. وحتى عند ما تبلورت الحالة تماماً فان الدولة العثمانية لم تأت بجديد ولذا فان التجارة بقيت كما كانت عليه في العهد المملوكي تصطدم بعقبات عدة أهمها وأولها تأخر وسائل النقل والمواصلات وانعدام الأمن في الطرقات التي تسير فيها القوافل. فوسيلة النقل في سورية كانت الجمال والبغال والاعتماد على الحيوان الاول كان اكثر انتشارا.[1] ولم يكن بوسع التاجر ان ينقل بضائعه من مدينة الى اخرى على جمل أو عدة جمال وحده وانما كان عليه أن ينتظر قافلة كبيرة لتقوم بهذه المهمة، وذلك لعدم استتباب الأمن في كثير من الطرقات : فقطاع الطرق من البدو بخاصة منتشرون في كل مكان يعرفون ان البضائع التجارية تمر منه ، وكانوا يغيرون على القوافل الصغيرة ، ولا يكتفون بنهب ما تحمل وانما يعتدون كذلك على أفرادها ولذا كان التجار يلتجئون الى القوافل الكبيرة المشتركة ويزودونها من لدنهم بالحراس الكافين . وكانت مثل هذه القوافل تسير بانتظام بين دمشق وحلب وطرابلس مارة بحمص وحماة[2]. وقد حاولت الدولة العثمانية في الواقع القضاء على غزوات قطاع الطرق فعملت على انشاء الحصون وترميم الموجود منها على طرق القوافل التجارية ولا سيما تلك القائمة على طريق دمشق ـ القاهرة ، أو المؤدية الى القدس والخليل. ومن هذه الحصون بيت جبرين وجنين ورأس العين وخان يونس[3] . ولم يكن هدفها من وراء ذلك في الحقيقة قوافل التجارة فحسب وانما قافلة الحجيج، ولتكون تلك الحصون مراكز حربية تراقب البدو والدروز المنتشرين في تلك البقاع.

«١» Volney: Voyage en Egypte et en Syrie. 1783-1785. I.p.44

«٢» علي الحسني . تاريخ سورية الاقتصادي . ص ١٣٣

«٣» Heyd (U): Ottoman Documents . pp. 102 - 103

ولكن عملها هذا لم يضع جدا نهائيا لمضايقات الطريق التجارية . فالحكومة العثمانية اذن لم تستطع حماية الطرق الحماية الكافية وان كانت قد بذلت جهداً في تمهيد طرق المواصلات بين المدن. وقد تضافرت هذه العوامل مع فقر الشعب العام وانحطاط مستواه المعاشي لتضعف من التجارة الداخلية وتضيق ساحها : اذ ان فقره يحدد عادة كمية المبادلات التجارية ونوعها مما يجعل أي مشروع للتوسع التجاري — لو فكر فيه — فاشلا. ويضاف الى ذلك إهمال الحكام الجدد للموانيء كميناء اللاذقية وبيروت [1] والضرائب العديدة المفروضة على مختلف البضائع في الخانات والاسواق [2] .

وقد كانت البضائع المتبادلة داخليا هي ما ينتجه البدو الرحل والزراع ويحملونه الى الأسواق والمدن، من منتوجات زراعية وحيوانية كالصوف والجلود والحليب والجبن والسمن ويقايضون هذه البضائع بمنتوجات المدن الصناعية .

وفي الحقيقة لقد اتسع اطار التجارة الداخلية بعد فتح العثمانين لسورية إذ فتح أمامها باب جديد وهو بلاد الأناضول في الشمال . ولكن ليس لدينا في الواقع معلومات واضحة جدا عن التجارة العملية بين سورية وتركيا في مطلع عهد الاحتلال انما لا بد ان علاقات قد قامت بين بلاد الشام والبقاع الجديدة على نطاق أوسع مما كانت عليه في الماضي ، ودخلت الى سورية بعض منتجات تلك البقاع كالثمار المجففة ، والخشب والفرو وانتقل اليها بدورها بضائع من سورية كالمنسوجات والقطن والرز والسكر . [3]

« ١ » يرجع الى ليلى صباغ: الجاليات الاوربية في بلاد الشام في القرن السادس عشر والسابع عشر . رسالة دكتوراه قدمت الى جامعة القاهرة عام ١٩٦٦

« ٢ » يرجع الى الفصل الاول . تنظيم الضرائب ، ص ٥٢ — ٥٧ .

« ٣ » Gibb & Bowen: Part 1. p. 304

وكانت حلب مركزاً لهذه التجارة، وكانت تقوم فيها تجارة كثيفة بالفستق، والعبيد البيض المحمولين من القوقاز [1].

واذا كان نوع المبادلات بين سورية والأناضول غير واضح المعالم فإن العلاقات بين سورية وجيرانها في الجنوب والجنوب الغربي كانت أكثر تبيناً في تلك الحقبة من الزمن والمبادلات أكثر تعيناً. فقد كانت مصر تستورد من سورية كميات كبيرة من الحرير الخام والقطن لمصانعها، وجوز الغال، والصباغ والنيلج، وكذلك بذر السمسم والصابون والزيت والنقوع (المشمش المجفف) والقمر الدين والتين المجفف وأحياناً القمح. وهذه البضائع كانت تصدر بحراً أكثر مما تصدر براً وذلك على ظهر بواخر تركية أو يونانية أو أوربية، وتحمل من طرابلس أو بيروت الى دمياط حيث يجري توزيعها في البلاد المصرية. وكان هناك عدد من القوافل الصغيرة ينطلق عن طريق سيناء ويقوم بقيادته العرب أنفسهم في تلك البقاع، ومن ثم لا تتعرض تلك القوافل لهجمات قطاع الطريق الذين كانوا عادة من البدو المقيمين في تلك الأجزاء. وكانت المراكب والقوافل تحمل في عودتها الى سورية الرز والحبوب، والشعير منها بخاصة، وبعض المنسوجات الكتانية والحريرية والسكر والصدف (لصنع المسابح للمسيحيين في فلسطين) وبعض المنتجات السودانية كسن الفيل والفول السوداني والجلود والعبيد. ورغم الأخطار المتأتية من قراصنة البحر وقطاع الطرق فإن أرباح المتاجرين بين مصر وسورية كانت تتراوح بين ١٠ ٪ و ٣٠ ٪ [2]. وكانت دمشق هي المركز الرئيسي للتجارة مع البلاد المصرية، ويأتي بعدها طرابلس وبيروت.

أما علاقة سورية ببلاد العرب الجنوبية فقد كانت عن طريق اتصالها ببلاد

«١» الغزي: نهر الذهب.. ج ١ ص١٦٨

«٢» Gibb & Bowen: part I. p. 304

الحجاز . ولا بد من الاشارة هنا الى أن الحج كان يلعب دوراً هاماً جداً في حياة سورية التجارية . فقد كانت قافلة الحجيج الدمشقي القافلة الأولى في العدد والأهمية ، وكان باشا دمشق مكلفاً بضرورة السهر عليها وقيادتها بنفسه مع قوة من الجيش لحمايتها من البدو[1] . فالحج لم يكن فقط رحلة دينية يؤديها المؤمنون من الناس وانما كذلك رحلة تجارية يستفيد كثير من التجار عن طريقها : فالقافلة محمية حماية ممتازة والضرائب لا وجـــود لها . وهكذا كان يحمل الحجاج معهم الى جانب مؤنهم الغذائية بضائع لا حصر لها ينقلونها من دمشق الى الحجاز ليبيعوها في تلك الديار المقدسة ، ويحملون بالمقابل عندعودتهم بضائع تلك المناطق أوبضاعة الهند الوافدة عن طريق بلاد العرب الجنوبية كالتوابل واللؤلؤ ، والبن (وكان شرب القهوة قد بدأ بالانتشار حديثاً جداً) ، والشالات ، والموصلين ، والفلفل . وكما كانوا معفيين من رسوم الصادر عند خروجهم من دمشق فانهم كانوا معفيين من رسوم الوارد عند العودة[2] . اذ أن احترام الدولة العثمانيــة للشعائر الدينية الاسلامية جعلها تعفي الحجيج حتى من تفتيش مايحمل . ولم يستفد من هذا الأمر قافلة دمشق فحسب بل جميع قوافل الحجيج حتى المغربية منها .

ويمكن القول أن رخاء دمشق الاقتصادي في العهد العثماني ارتبط ارتباطاً كبيراً بحركة الحج[3] ، إذ أن الموسم نفسه كان يوجد في أسواق دمشق حركة تجارية ضخمة . فقد كان الحجاج يفدون اليها ليتزودوا قبل سفرهم منها بجميع

«١» Gibb. & Bowen: part I.P. 219

«٢» ان «قانون نامه» السلطان سليمان تحتج بعنف ضد سوء الاستعمال هذا ، وتأمر بأن تؤخذ الرسوم المعتادة على جميع البضائع والمواد التي يحملها الحجاج من أية طبقة اذا كانت بهدف البيع. Digeon: Kanoun-Namé p.227

«٣» Sauvaget: Esquisse d'une Histoire de La vie de Damas p. 469 (revue des Etudes Islamiques 1934)

ما يحتاجون اليه من مواد غذائية تكفيهم لثلاثة أشهر كاملة هي فترة الذهاب إلى مكة والاياب منها . وكانت أعدادهم بالآلاف حتى أن بعض القوافل الذاهبة إلى مكة كانت تعد من ثلاثة آلاف جمل الى أربعة آلاف . وكان يتطلب دخول بعضها الى دمشق أو خروجها منها يومين كاملين . [1]

وإلى جانب اعفاء العثمانيين قوافل الحجيج الاسلامية من الرسوم على البضائع فانهم كذلك أعفوا الأسواق السنوية التي تقام بالقرب من ضريح ولي من الأولياء الصالحين وفي حمايته من الضرائب المتوجبة ، مما ساعد الى حد ما على تنشيط التجارة المحلية وأن لم يكن الأمر واسع الانتشار [2] .

وكما أن قوافل الحجيج المسلم كانت تعمل على تنشيط الحركة التجارية في موسم معين في دمشق ومدن سورية الجنوبية فان قوافل الحج المسيحية الوافدة من بلاد الامبراطورية العثمانية نفسها أو من بلاد أوروبة لزيارة بيت المقدس والاماكن المقدسة الأخرى في فلسطين كانت تلعب دوراً مماثلاً وان لم يكن بنفس الاتساع والقوة . فالحجاج لا يدفعون الضرائب المترتبة عليهم فحسب [3] وانما يحملون معهم أحياناً بضائع من الأماكن التي يفدون منها وأن كانت تؤخذ عليها الرسوم ، كما يشترون من البلاد منتوجاتها وبخاصة البضائع الدينية كالمسابح والصلبان وغيرها .

أما علاقات سورية التجارية مع جارتها العراق فقد كانت تجري في عهد المماليك عن طريق الفرات الى بالس (مسكنة اليوم) في سورية ثم توزع بواسطة القوافل الداخلية الى مختلف المدن السورية . وكان مركز هذه التجارة الطبيعي مدينة حلب . ولم تكن المبادلات على نطاق واسع في زمن الدويلات التيمورية ،

«١» علي الحسني تاريخ سورية الاقتصادي. ص ١٣٣

«٢» Gibb & Bowen . Part. I. p. 301

«٣» Mantran & Sauvaget, les réglments .. pp. 41 - 42

وضعفت أكثر فأكثر عندما استولى الصفويون على بغداد ، وانعدمت تقريباً عند فتح سليم لسورية لسوء علاقاته مع الصفويين وللاحقة التجار الذين يتاجرون معهم. فالسلطان سليم منع التجارة مع ممتلكات الشيعة ، وسار ابنه سليمان على نهجه قبل أن يقوم بفتح البلاد العراقية وربما يكون سبب نفي سليم لستين تاجراً حلبياً في عام ٩٢٥ هـ = ١٥١٩ الى طرابزون [١] هو مخالفتهم لأوامر مقاطعة الصفويين . ولكن عندما فتح السلطان سليمان بلاد العراق فان العلاقات بين سورية والعراق عادت الى نشاطها السابق بل غدت هي المورد الرئيسي للتجارة الخارجية مع أوربة. فعن طريق الخليج العربي كانت سورية تستورد بضائع الهند . وقد عمل السلطان سليمان كما ذكر سابقاً على أبعاد البرتغاليين عن الخليج العربي في الحملات البحرية المنظمة التي وجهها ضدهم فاستولى على البحرين عام ٩٦١ هـ = ١٥٥٤ م وحاصر هرمز ، واستطاع لفترة من السيطرة على الطريق عبر الخليج العربي [٢] وتأمين البضائع الشرقية للعراق وسورية. فالمبادلات بين سورية والعراق اذن كانت تعتمد آنذاك على سلع بلاد الهند وفارس لا سلع العراق وحدها . وفعلا فإن العراق كانت تصدر قليلاً من منتوجاتها المحلية، ما عدا بلح البصرة ، أما بقية ماتحمله القوافل والأنهار الى سورية من العراق فهو ما حملته سبل التجارة من فارس وبلاد الجزيرة العربية والهند من لؤلؤ وقهوة وتوابل [٣] . وقد كان يسيطر على هذه التجارة بخاصة الأرمن [٤] .

واذا كان قد اتضح أن عدم استتباب الأمن ، والأحوال السياسية السيئة عوامل هامة في ضعف نشاط التجارة وفي تذبذبها في سورية في مطلع العهد

«١» الغزى . نهر الذهب تاريخ حلب . ج ٣ . ص ٢٥٢

«٢» Stripling: p. 95

«٣» Gibb & Bowen: Part. I.P. 304

«٤» Ibid : p . 309

العثماني فانه يجب الا ينسى ان الضرائب المفروضة على الاستيراد والتصدير والبيع والشراء عامل هام جدا في عرقلتها. فالضرائب عديدة ومفروضة على جميع ما يمكن أن يباع في الاسواق ، ورسم الجمرك يؤخذ على كل ما يؤتى به من خارج المدينة لا على البضائع الواردة من خارج الامبراطورية فقط : فهناك رسوم على بيع الخضراوات والثمار والحرير والصوف والحبوب ... الخ حتى على الثلج الذي يأتي به اصحابه من الجبال ليبيعوه في المدن .

التجارة الخارجية

وفي الحقيقة ان التجارة الداخلية على الرغم من عدم نشاطها في مطلع العهد العثماني في سورية، فانها لاتكون سوى نسبة محدودة من العلاقات التجارية الشامية. فسورية — كما اشير الى ذلك في مدخل هذا البحث — تطل من الغرب على البحر المتوسط الذي يصلها بعالم أوربة والذي يموج بفعاليات تجارية كبيرة يقبض عليها سكان المدن الايطالية أمثال البندقية وجنوة وبيزا، وسكان جنوب فرنسا كالمرسيليين وفرسان القديس يوحنا في رودس ، وكان هؤلاء يتعاملون مع سورية ومصر فينقلون ما يأتي الى هذين البلدين من بضائع الهند وفارس الى أوربة ، ويقومون بتوزيعها على مختلف دولها ومدنها ويحققون بذلك أرباحا طائلة . وكانت المسيطرة الكبرى على هذه التجارة هي مدينة البندقية وتنافسها في ذلك جنوة . فالمدن الايطالية اذن كانت تحتكر التجارة بين بلاد الشرق (الليفانت) وبين أوربة حتى نهاية القرن الخامس عشر عند ما اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح ووصلوا عن طريقه الى الهند . اذ تحولت طرق التجارة الشرقية بعد هذا الاكتشاف من البحر المتوسط الى المحيطين الأطلسي والهندي ، وانتقلت تجارة الشرق من أيدي العرب ومدن ايطاليا الى البرتغاليين وسكان غربي أوربة . وتأثرت سورية ومصر بهذا

الحدث الجلل تأثراً كبيرا ، ونكبت البندقية في تجارتها . ولكن على الرغم مما جرى فان الوضع الجغرافي لسورية ظل يخدم قضية التجارة فيها ، كما ان وضعها السياسي الجديد في كونها جزءا من امبراطورية واسعة تمتد حتى أواسط أوربة لابد وان يعوضها عن قسط كبير من الخسارة التي لحقت بها . وهذا ما كان: فالتجارة الخارجية لم تتقلص تماما من بلاد الشام على أثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وانما تحولت عن الطرق البحرية السابقة لتعتمد على الطرق البرية وبخاصة منها الطريق الذي يصلها ببلاد العراق والخليج العربي [1] وكانت مدينة حلب هي نهاية هذه الطريق الآتية من البصرة وبغداد وأقرب مدينة سورية الى العاصمة العثمانية . وقد جعلها مركزها هذا سوقا تجارية هامة في القرن السادس عشر ، ودفع بها لتحتل المكانة التجارية الأولى في سورية ، وتنافس بذلك دمشق التي فقدت قيمتها بانقطاع بضائع الشرق عنها ، الواردة اليها عن طريق مصر وبلاد الحجاز . فحلب تقع على رأس الطريق الموصلة الى الخليج العربي وبلاد فارس من جهة والى الاناضول والقسطنطينية من جهة اخرى ، وبذلك كانت مجمعا لجميع التجار الآتين من الهند والعراق وآسية الوسطى والذاهبين الى استامبول وبلاد البنادقة ومصر [2] وقد وصف (بلون دومانس)[3] نشاطها التجاي بقوله : (قوافل من الهند والعراق تضع فيها احمالها ، وكل من اراد السفر الى تلك البلاد البعيدة يجد فيها أناسا عازمين على

«١» ان هذه الطريق الموصلة الى شرق آسية قد اقتصرت في الواقع على الطريق البحرية التي اكتشفها البرتغاليون وسيطروا عليها ، وذلك لقصرها النسبي أولا ، ولأمنها إذ كان القرصان يعجون في المحيط الهندي عجيجاً .

Braudel la Hediterauie pp 266 , 444

« ٢ » علي الحسني . تاريخ سوريا الاقتصادي ، ص ١٤٢

« ٣ » طبيب من جامعة باريس زار الشرق الأدنى للتعرف على نباته . وكانت رحلته بين عامي ١٥٤٦ – ١٥٤٩ م وقد كتب كتابا عن رحلته هو الوارد اسمه في الحاشية «١» من الصفحة التالية.

السفر مترافقين متصاحبين . وفيها كل صنائع الشرق . واذا ما وصلت اليها قافلة ما فان بضائعها تباع يوم وصولها مباشرة لما فيها من التجار الاثرياء الذين يسارعون الى شرائها [١] وقال عنها السائح « دارامون » في القرن السادس عشر كذلك (ان حلب تخزن لجميع البهارات والأدوية والحرير وغير ذلك من بضائع الهند الآتية اليها عن طريق البحر العجمي والبصرة، وهي سوق للبضائع الغربية الآتية اليها بواسطة البنادقة والفرنسيين [٢] .

فالتجارة الخارجية — أكانت بين سورية وأوربة أم بين سورية وبلاد الهند عن طريق الخليج العربي — لم تضمحل وانما غيرت منحاها . ولكن هذه التجارة الخارجية بدأت تتوضع اكثر فاكثر في بدء العهد العثماني في أيدي الجاليات الأجنبية التي وضعت رحالها في مختلف المدن والموانيء السورية وبخاصة بعد اتفاقية « الامتيازات » التي وقعت في النصف الأول من القرن السادس عشر بين سليمان القانوني والملك فرانسوا الأول ملك فرنسا . كما تركزت بشكل واضح في ايدي المسيحيين واليهود من أهل البلاد [٣].

وفي الواقع لم تكن الجاليات التجارية الأجنبية بجديدة على سورية : فقد استوطنت كثيرا من مدنها منذ القرن الحادي عشر أي منذ الحروب الصليبية [٤]

«١» Belon De Mans: Les Observations de Plusieurs Singularités trouvées en Grèce, Egypte ...p. 352

« ٢ » علي الحسني • تاريخ سورية الاقتصادي . ص ١٤٣ نقلا عن دارامون . ص ١٠٠

« ٣ » Gibb & Bowen : Part. I.p 308

« ٤ » Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. Tome. 1. p. 165

وأول ثغر دخله التجار الاجانب كان السويدية على مصب نهر العاصي. وكان دخولهم اليه عام ١٠٩٧ م وكانوا من الجنويين . وهم الذين ساعدوا بوهموند على فتح انطاكية مقابل ثلاثين بيتا ومساحة من الأرض لبناء بيت كبير لخزن البضائع واعفاء تلك الأملاك من الضرائب ، كما اعطيت ربع يافا الى سكان بيزا في عام ١١٠٠م لمساعدتهم في فتح البلدة.

وعند ما ساعد البنادقه والجنويون وسكان بيزا الصليبين في نقلهم وحربهم فانهم لم يطلبوا من هؤلاء مكافأة على عملهم كنيسة في أرض الشام يقيمون فيها شعائرهم الدينية كما ينتظر من حرب ذات هدف ديني ظاهري، وانما طلبوا أرضا ليبنوا عليها اسواقا للبيع وبيوتا لخزن البضائع [1] . فقد أرادت هذه المدن توسيع دائرة مبادلاتها التجارية مع سورية ولا سيما أنها كانت معبرا للبضائع الهندية ومخزنا للبهارات التي تباع بأرباح طائلة في اوربة ، ومحطا لكثير من الصناعات . ونال البنادقة في القدس ذاتها قطعة من الأرض لعرض بضائعهم فيها للبيع مع امتياز بعدم الزامهم بدفع ضريبة ما حتى ولا على طواحينهم [2] .

كما ان بعض الفرنسيين التجار اشتروا في عام ١١٥٢م نصف عسقلان واعطى احد الامراء الصليبين الفرنسي الأصل تجار مونبليه رخصة بعمارة أسواق للبيع في عكا [3]. ومنذ ذلك الحين أخذ التجار الفرنسيون يتداخلون باعمال سورية التجارية واكثرهم من مونبليه ومرسيلية. وساعد تدفق الجاليات الأجنبية الى بلاد الشام على اتساع نطاق التجارة الأوربية مع الشرق وتجارة الشرق مع اوربة. وكان البنادقة يرسلون قوافل السفن الكبيرة مرتين في السنة في الربيع والخريف لى سواحل الشام ، والجنويون مرة ، وتجار مرسيلية مرتين [4].

وعند ما انتهت الحروب الصليبية بقيت بعض تلك الجاليات قائمة في مراكزها يعمل أفرادها وسطاء في تجارة الهند فيحملون البضائع المستوردة منها الى اوربة وبالعكس. وحتى يؤمنوا مقامهم ويحموا انفسهم — بحسب ادعائهم — من مضايقات المسلمين لهم ، فكروا في ارسال وكلاء عن حكوماتهم ليشرفوا على

«١» ، «٢» ، «٣» ، يرجع الى :
Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Âge.
T. 1, pp 144 , 148 , 150 , 151.
«٤» ibid : T. I. p. 204

شئونهم ويقوموا بالدفاع عنهم لدى السلطات الاسلامية الحاكمة . واطلق على هؤلاء اسم (قناصل)[1] وقد عم وجود هؤلاء في البلاد الاسلامية قبل انتهاء الحروب الصليبية أي منذ القرن الثاني عشر[2] . ولم يكن ينظر المسلمون في بادىء الأمر الى القناصل الا كرهائن اختيروا من بين شخصيات البلد الهامة ، وهم مسؤلون مباشرة عن سلوك مواطنيهم[3] . وكانوا هم الذين يتفاوضون مع السلطات الحاكمة ليصلوا الى اتفاقات تؤمن مصالح مواطنيهم . وقد كانت تلك الجاليات تتجمع في حي واحد من المدينة وكان يسمى هذا الحي اما الخان أو الوكالة أو الفندق ويكون أحياناً محصناً بسور . فالحي مدينة صغيرة قائمة بذاتها أو هي مستعمرة مسيحية أجنبية يعيش أفرادها تحت سلطة القنصل ، وتقفل ليلا . وكان دخول الخان محرما على سكان البلاد ولا تتدخل السلطات المحلية في ادارته ولا في أمنه بل تركت هذا للقناصل . وكان الحي يحوي عدا المساكن القائمة في الطابق العلوي مخازن في الدور السفلي ، و كنيسة وفرن وحمام وحانة وجزارة .. الخ[4] .

وكان أول مستفيد من هذا الوضع من التجار الأجانب في سورية البنادقة الذين طلبوا من السلطان المملوكي قلاوون في عام ١٢٨٨ أن يعطى القناصل حق التعرف على الدعاوي بين العرب والبنادقة وبين البنادقة وغيرهم من الأجانب وحق الفصل في بعضها . فأعطاهم السلطان الامتيازات التي سألوه اياها ووعد بحمايتهم . كما اتصلوا بعد ذلك بأمير صفد ليمدوا مفعول المعاهدة السابقة[5] . وهكذا كان البنادقة أصحاب المركز الأول بين التجار الأجانب ، وكان قنصلهم يسهر على شؤون

«١» Pelissié De Rausas: le Régime des Capitulations dans l' Empire Ottoman . p. 25

«٢» Ibid . p . 26

«٣» Ibid . p . 26

«٤» Ibid . pp . 43 - 44

«٥» Heyd : Histoire du Commerce de Levant. tome II. p.39

مواطنيه ويقدم لهم النصائح المفيدة لتجارتهم في تلك الأماكن ويسعى لدى السلطان والسلطات الحاكمة الأخرى لتسهيل سبل التجارة بين جمهوريته وبيروت حيث كانت القنصلية قائمة .

ولم تكتف البندقية بما نالته في القرن الثالث عشر بل كانت تجد عن طريق قنصلها للحصول على اتفاقات مع السلطات لتوسيع الامتيازات التي نالتها سابقاً . ويظهر من الاتفاقات التي عقدها البنادقة مع المماليك في القرنين الخامس عشر ومطلع السادس عشر أن المماليك أعطوا القناصل حرية التجوال في أنحاء الاقليم وبحماية السلطات المسؤولة لهم . كما أعفوهم من دفع الرسوم الجمركية على جميع حاجياتهم الخاصة ، ولم يخضعوهم في حال خلافاتهم مع بعض أفراد الرعية لقضاء السلطات المحلية . وتؤكد تلك الاتفاقات عدم التعدي عليهم طيلة مدة عملهم ، اذ كان المماليك ينظرون الى القنصل في الواقع كالمسؤول الأول عن تلك الاتفاقات .

وعندما فتح السلطان سليم دمشق وفد اليه قنصل البنادقة فيها ، كما استقبله عند قدومه اليها التجار الأجانب ونثروا عليه قطع النقود . [1] ولما وقعت مصر بدورها في يد سليم عمل هذا السلطان على تثبيت امتيازات البنادقة التي كانوا قد نالوها تحت حكم المماليك . وفي عام ١٥٢٣ م = ٩٢٩ ﻫ دعمها ابنه سليمان بأن أمضى مع جمهورية البندقية معاهدة تجارية تؤيد المعاهدات السابقة وذلك على يد سفير البندقية (ماركومون) . وكانت هذه المعاهدة مؤلفة من ثلاثين بندا ، ومن أهم فقراتها : [2]

أولاً — لا يقبض على القنصل مهما بلغت ديونه .

ثانياً — لا يدفع البنادقة للأتراك ضريبة الجزية .

ثالثاً — يغير قنصل الجمهورية في استامبول كل ثلاث سنوات ، وله الحق

«١» ابن طولون . تاريخ (مخطوطة توبنغر) ص ١٣٥ .
«٢» Lavisse & Rambaud . Tome IV . p . 720

في النظر في أمر تركات رعيته ، وفي ارسال ترجمان من طرفه لحضور المرافعة التي تجري ضد رعايا حكومته أمام المحاكم العثمانية .

رابعاً — يعاد العبيد الفارون من أسيادهم البنادقة الى أصحابهم .

خامساً — إذا تحطم مركب للبنادقة على الشاطيء فان بضائعه تعاد الى أصحابه ويؤخذ ركابه الناجون أسرى .

سادساً — لا يمكن أن يسافر التجار البنادقة دون اذن من قنصلهم أو اخباره .

ولهذه المعاهدة أهميـــة كبيرة لأنها تعتبر الأساس الذي ارتكزت عليه الامتيازات الأجنبية والمعاهدات الاخرى التي وقعتها الدولة العثمانية . فعلى غرار هذه الاتفاقية وقـع قناصل الفرنسيين في عام ١٥٢٨ م اتفاقية شبيهة مـع سليمان القانوني وهي تأكيد للاتفاق الذي وقع سابقاً زمن المماليك مع القناصل الفرنسـيين. فقد أعطت الدولة العثمانية للكتالانيين والفرنسيين وغيرهم المنضوين تحت لواء القنصلية الفرنســية الأمان والاطمئنان في كل مينـاء من موانيء الامبراطورية في وقت السلم ، وطلب الى الرعايا العثمانيين معاملتهم معاملة لائقـة . كما سمح لهم بتفريـغ مراكبهم وشحنها دون أية صعوبة ، وبشراء البضائع المسموح بها من أي مكان يرغبون . واذا تحطم مركب من مراكبهم فان على الموظفين العثمانيين حماية تلك البضائع في مكان التحطيم حتى ترد لأصحابها . واذا مـا حدث خـلاف بين الرعايا الكاتالانيين أو الفرنسـيين فان القنصل يقضي فيه ما عدا جرائم القتل التي يرجع الفصل فيها الى الحكام العثمانيين . ولا يسأل الفرد الا عن نفسـه ، ولا يعاقب القنصل أو تجاره إلا عن طريق القضاء. وأنهيت المعاهدة بالطلب الى التجار أن يسيروا في جميـع أعمالهم ومفاوضاتهم بحسب الطرق القديمـة وبحسب الأمر الشريف الصادر في الثلاثين من حزيران عام ١٥١٢م. ويتضح من هذا أن جميع الاتفاقات السابقة ليست إلا تأكيداً

لما كان قد اتفق عليه في الاعوام ١٥٠٧ م و١٥١٢ م و ١٥١٧ م في عهد المماليك وبدء عهد العثمانيين . [1] .

وفي الحقيقة لا تفرض الاتفاقات الانفة الذكر وجود طرفين كل واحد له مصالحه المتبادلة مع الآخر وانما هي اتفاقات تمنح تجار هذه البلاد أو تلك امتيازات من طرف واحد ويمكن للسلطان العثماني أن يطبقها اولا يفعل . ولم تصل هذه الاتفاقات الى مستوى المعاهدة الحقة بين دولتين الا في عهد سليمان القانوني وفرانسوا الأول . وقد ولدت هذه المعاهدة الجديدة في ظروف سياسية وحربية معينة [2] كان من جرائهـا ان أرسل ملك فرنسا فرانسوا الاول بعثة برئاسة « جان دولافوره » الى القسطنطينية مع تعليمات سرية خاصة . [3] وقد خرج لافوره عام ١٥٣٥ م الموافق لسنة ٩٤١ هـ من مباحثاته مع الباب العالي والسلطان بتلك المعاهدة ذات الأهمية الكبرى في تاريخ بلاد الدولة العثمانية بعامة وسورية بخاصة.

«١» Pélissié De Rausas : Le Régime des Capitulations. pp. 51-53

«٢» Ibid : pp.56 - 57

لقد قامت الخصومة بين فرانسوا الأول ملك فرنسا وشارلكان امبراطور النمسا لأسباب سياسية وشخصية ، ودار النزاع بينهما حول دوقية ميلانو في ايطاليا . ونشبت حرب شديدة بين الطرفين خرج فرانسوا الأول من الجولة الأولى فيها منهزما ، فجالت في فكره قضية التحالف مع السلطان العثماني ضد شارلكان ، اذ ان هذا الاخير هو عدو للامبراطورية العثمانية وحامل لواء الحرب الصليبية في أوربا ضدها . وأقدم فرانسوا الاول على خطوته الجريئة هذه ووضع مصلحته فوق اعتبارات الرأي العام آنذاك الذي كان ينظر باشمئزاز الى مد ملك مسيحي يده الى ملك مسلم . ونجم عن البعثات التي ارسلها فرانسوا الى سليمان القانوني وابتدأت بـ « فرانغيباني » وانتهت بلا فوره المعاهدة الملخصة في الصفحة التالية .

«٣» ان التعليمات السرية الخاصة هي اقناع سليمان بعدم مصالحة شارلكان الا اذا قبل هذا الاخير رد دوقية ميلانو الى ملك فرنسا واعترف بسيادته على الاراضي المنخفضة، وفي حالة رفضه لهذه الشروط عليه أن يهاجمه ويبدأ باحتلال سردينيا .

كما كانت تلك المعاهدة انطلاقة جديدة في العلاقات الدولية والارتكازة الضخمة للامتيازات التي تمتع بها الأجانب الأوربيون في الشرق العربي حتى ١٩٣٧م في مصر حيث ألغيت في مؤتمر مونترو وحتى ١٩٤٧ في سورية [1].

ومن بنود تلك المعاهدة اتفاق الملكين على الحفاظ على السلام بينهما والتفاهم التام طيلة حياتيهما، والتعاهد على ان يتاجر أفراد الرعية من الطرفين أو من ينضوي تحت علميهما ، مع بضائعهم وبشرهم ومراكبهم المسلحة وغير المسلحة بأمان وحرية في جميع المدن والموانيء التي يملكها الملكان حاليا أو سيملكونها في المستقبل. كما يسمح لهؤلاء الرعايا بالتجوال والاقامة في الموانيء والمدن التابعة لكل من الملكين بحرية ،ويحق لهم كذلك تبادل البضائع بالبيع والشراء دون ما حرج،ونقل المسموح بها بالبر والبحر من أي بلد الى آخر على شرط أن يدفعوا العائدات والضرائب المفروضة قديما عليهم . ولكن معلوما أن الاتراك يدفعون في بلاد الفرنسيين ما يدفعه الفرنسيون أنفسهم وبالمقابل يدفع الفرنسيون ومن ينضوي تحت لوائهم من التجار الأجانب في بلاد العثمانيين ما يدفعه رعايا الدولة العثمانية . ويعين الملك الفرنسي في المدن

« ١ » رزق الله انطاكي الوجيز في أصول المحاكمات المدنية والتجارية ،ص٦٠
عندما انفصلت سورية عن السلطنة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى ووضعت تحت الانتداب الفرنسي ، بقي النظام القضائي الذي كان معمولا به في تركيا سائدا في سورية وأحدث المفوض السامي الفرنسي المحاكم المختلطة بالقرار رقم « ٢٠٢٨ » المؤرخ في ٧ تموز ١٩٢٣ م وأعطيت لهذه المحاكم بالقرار المذكور وبنصوص تشريعية لاحقة اختصاصات تفوق بكثير الاختصاصات التي كانت ممنوحة للمحاكم القنصلية في سورية. على أن المحاكم المختلطة زالت من الوجود في سورية بزوال الانتداب الفرنسي عنها فألغيت نهائيا بالمرسوم التشريعي رقم « ٨٠ » المؤرخ في ٣٠ حزيران عام ١٩٤٧ م اذ نصت المادة «٢٥» منه أنه على المحاكم والدوائر القضائية السورية على اختلاف أنواعها ودرجاتها أن تنظر في جميع الدعاوي والمعاملات التي تعرض عليها في حدود اختصاصها دون النظر الى جنسية المتقاضين أو الى أي نص تشريعي آخر .

والموانيء الرئيسية « بيلا » أي قنصلا يعامل بالاحـــترام اللائق به كممثل لدولة صديقة . وهو يقضي ويحكم في الشؤون المدنية والجنائية أي في جميع الخلافات التي تقوم بين التجار ورعايا الملك . ولا يمكن للقضاة العثمانيين أو الصباشية الحكم في تلك الخلافات أو تنفيذ حكم من الاحكام الا اذا اقر المتخاصمان ذلك . ولا يمكن لهؤلاء الموظفين الاستماع لخصومة أو الحكم فيما اذا كانت لرعـــايا الملك ، دون حضور القنصل .

فالمعاهدة في حقيقتها معاهدة سياسية دفاعية هجومية ، وفي ظاهرها تجارية. ولقد حيّرت هـــذه المعاهدة والاتفاقات السابقة الباحثين : اذ كيف تعطي دولة المماليك أو الدلة العثمانيـــة مثل هذه الامتيازات لعناصر أجنبية تقيم على أرضها ، بملء ارادتها ، هـــذا مع العلم ان الدولتين كانتا عزيزتي الجانب عندما وقعتا مثل هذه الاتفاقات .

فالأجانب في هـذه المعاهدة كانوا وكأنهم يعيشون خارج الامبراطورية العثمانية فهم معفيون من بعض الضرائب السارية على الرعايا أنفسهم ، كما أن ليس من حق السلطات أن تدخل بيت أجنبي منهم دون أخذ موافقة من قنصله، وهذا احتقار للسيادة العثمانية واستضعاف لها . ولكن لو نظر الى الأمر من زاوية ذاك العصر الذي تم الاتفاق فيه فانه يتبدى ان السلطان سليمان عندما عقد معاهدة عام ١٥٣٥ كان ينظر اليها كمنحة من قوي لضعيف استنجد به واستغاث، لا كدليل على عجز أو ضعف لأنه كان في الواقـــع في أوج قوته ونفوده . كما ان مفهوم « السيادة الأرضية » لم يكن له تلك الصفة التزمتية والمعنى الضيق الذان له اليوم ، كما أنه لم يكن يرى في تطبيق قضاء دولة على أخرى مساساً به : فقبل ستين عاماً من فتح القسطنطينية كان فيها جالية اسلامية تحت ادارة قاض منها يقوم بالقضاء بحسب

القوانين الاسلامية . فليس غريباً اذن ان يعطي محمد الثاني بعد الفتح تجار جنوة والبندقية حق الاستمرار في التمتع بامتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها تحت حكم الأباطرة المسيحيين ، اذ أن هذا جزء من العدالة التي ينادي بها الدين الاسلامي[1] . ولا بد أن الفكرة نفسها كانت تجول في نفس سليمان وهو يوقع معاهدة ١٥٣٥ م. واذا كانت الامتيازات قد ازدادت مع الزمن واتسع نطاقها بحيث شملت معظم الدول الاوروبية ، واستغل الملوك الاوروبيون ضعف الدولة العثمانيـــة ليحققوا مآربهم الاستعمارية عن طريقهـــا ، فانها في المرحلة الاولى لم تكن ذات مفهوم استثماري واستعماري .

ومهما يكن فان الامتيازات الممنوحة ثبتت الجاليات الأجنبية في الموانيء والمدن التي كانت تقيم فيها وأفسحت المجال لتدفق أعداد جديدة منهم اليها ، ولا سيما من الفرنسيين .ويذكر « دولا بروكيير » ان عدد التجار الأجانب الذين صادفهم أثناء مروره بدمشق كان كبيراً وانه كان بها قنصل للبنادقة كالذي كان في بيروت، وخان للفرنسيين وحدهم ، على مدخله شارتهم الخاصة وهي زهرة الزنبق . كما أن طرابلس كانت تضم هي الأخرى جاليـــة من البنادقة وقنصلا .[2] ويبدو أن العلاقات التجارية بين سورية وأوربة كانت تنحصر في بعض المدن الرئيسية وبخاصة منها طرابلس وبيروت ودمشق وحلب، والأولى كانت ميناء مدينة حلب والثانية ميناء دمشق . ويلاحظ ان النشاط التجاري الاوربي قد تركز في هذه الحقبة من القرن السادس عشر في مدينتي حلب وطرابلس لكون الأولى ـ كما أشير الى ذلك ـ مجمعاً لتجارة الشرق الواردة عن طريق خليج البصرة فالفرات ، ومركزاً متوسطاً بالنسبة للامبراطورية العثمانية تفد اليه بضائع مختلف الجهات . فدمشق

«١» Encyclopédie Française. art. Capitulations.

«٢» علي الحسني : تاريخ سورية الاقتصادي ص ١٣٣ .

فقدت اذن مركزها التجاري حتى أن البنادقة نقلوا قنصليتهم العامة منها الى طرابلس في عام ١٥٤٥ ومنها الى حلب في سنة ١٥٤٨ ، واكتفوا في العاصمة السورية بوكيل قنصل وظيفته تسهيل المناقلات القليلة بين دمشق وحمص وطرابلس [١] .
وقد ذكر « دارامون » ان البندقية كانت تأتي الى حلب ببضائع قيمتها ثلاثمائة وخمسون الفاً من الدوكات الذهبية وتصدر بضائع بنفس القيمة . بينما لا تزيد واردات التجار الفرنسيين عن مائة الف من الدوكات الذهبية وكذلك صادراتهم . ومن هذا يتضح أنه على الرغم من تدفق الفرنسيين الى سورية بعد نيلهم الامتيازات ومنافستهم للبنادقة في طرابلس بالذات ، فان تجارة البندقية مع سورية بقيت بمجموعها هي الأولى ، اذ كانت تتاجر بما قيمته نصف مليون من الدوكات في مختلف المدن السورية بما فيها دمشق وحمص [٢] وحلب .

وقد عاش التجار الأجانب الاوروبيون في المدن السورية الآنفة الذكر في خاناتهم الخاصة تحت اشراف قناصلهم . وقد زادت سلطات القناصل مع الزمن على رعاياهم واتسعت وأخذ مواطنون من بلدان اخرى غير تلك التي تتمتع بالامتيازات تنضوي تحت حمايتهم لتستفيد مما يستفيد منه رعايا الدولة المميزة كما فعل السويسريون [٣] . وهذا ما أوجد في التشريع القنصلي طبقة (المحميين) . ونجد من رعايا الدولة العثمانية نفسها من يسعى للاستفادة من تلك الامتيازات وبخاصة المسيحيين منهم . وفعلاً سمح في القرون التالية للقناصل باصدار « براءات » تعطي لبعض من يعمل مع التجار الأجانب من الرعايا العثمانيين حق التمتع بما يتمتع به هؤلاء التجار وكأنهم تجنسوا بجنسيتهم [٤] .

«١» Berchet : Relazioni dei Consoli Veneta nello Siria p.19
«٢» Mantran & Sauvaget. p. 60.N
Chesneau : Le voyage de Monsieur d' Aramon P. 100
«٣» Encyclopédie Francaise. art. Capitulations
«٤» Gibb & bowen: Part I. P. 310

ويلاحظ ان فرنسا كانت حريصة في البدء على انتقاء التجار الذين ترسلهم الى تلك البقاع . ولذا وضعت شروطاً لمن يرغب في الاقامة والاتجار في موانيء الشرق (الاسكالات) ، وبذلك كانت لا تخرج من بلادها الا المواطنين الذين يثق بأخلاقهم وامكاناتهم المالية حتى لا يسيئوا الى علاقاتها مع تلك الأجزاء ومن ثم مع الدولة العثمانية نفسها . وقد احتكر تجارة الشرق (الليفانت) من مدن فرنسا مرسيلية التي كانت لها علاقات تجارية سابقة من زمن الصليبيين . وقدنظمت عذه التجارة ووضعت لهـا قيودها ووجهتها غرفتها التجارية التي اسست في عام ١٥٩٩ م . وقد سعت فرنسا بعد أن حصلت على الامتيازات لاحتكار التجارة في سورية وابعاد البنادقة والجنويين عن منافستها . ولكن مساعيها لم تصطدم فقط بمقاومة المدن الايطالية وانما ظهر لها منافسون جدد في التجار الانكليز الذين تنبهوا لقيمة التجارة في هذه البقاع في القرن السادس عشر . وفي الواقع ليس لدينا معلومات واضحة عن مدى علاقات الانكليز بالاتراك والتجارة في البحر المتوسط قبل القرن الخامس عشر . ولكن من المعلوم ان التجار الانكليز منذ القرن الخامس عشر اتجهوا بمغامراتهم نحو البحر المتوسط ، وقامت علاقات مباشرة بينهم وبين المدن الايطالية . ولا بد أن هذه العلاقات هي التي دفعتهم أكثر فأكثر نحو شرق البحر المتوسط ، وكانت المحطات التجارية للبندقية هي محطاتهم الرئيسية . ففيعام ١٤٤٦ م أرسل تاجر انكليزي مركباً مليئاً بالحجاج وسفينة محملة بالصوف والقصدير وغيرها من المواد الى يافا ، ولكنها في طريق عودتها مزقتها العواصف على الساحل اليوناني . وفي عام ١٤٥٧ م سافر بنفسه بحمولة من القصدير والجلد والصوف لمختلف أنحاء (الليفانت) حيث حصل على التوابل . ولكن الجنويين وقد ضايقهم التدخل الجديد بما فيه تهديد لتجارتهم تصدوا لمركب (ستارمي) التاجر الانكليزي هذا عند مالطة [١] .

«١» Wood : A History of The Levant Company. P. 2

ولكن هذا التعدي لم يمنع الانكليز من متابعة تجارتهم مع كريت وخيوس وموانيء سورية وقبرص . « ففي عام ١٥١١ م كانت مختلف المراكب الكبيرة في لندن وساوثامبتون وبريستول تحمل النسيج الانكليزي الى كانديا ، وقبرص ، وطرابلس وبيروت في سورية مقابل مبادلتها بالحرير والتوابل والسجاد والموهير »(١) .

وتوسعت تجارة انكلترة مع هذه الأجزاء تدريجياً ، وعينت انكلترة قناصل لها في خيوس وقبرص ، وأخذ بعض التجار يقيمون هناك والمراكب تقوم برحلاتها . وفي عام ١٥٥٣ م كان أحد التجار الانكليز وهو (أنطوني جينكينسون) في مدينة حلب والتقى فيها بالسلطان سليمان القانوني الذي كان يستعد فيها لحملة ضد فارس وطلب إليه أن يحمي تجارته وممثليه وشركاءه وأن يعطى حرية التجارة في الامبراطورية العثمانية على نفس الأسس المعطاة للبنادقة والفرنسيين . واستجاب سليمان للطلب وسمح له ولشركائه بجلب بضائعهم إلى الموانيء العثمانية على مراكب انكليزية وتحت العلم الفرنسي .(٢)

ولكن يشاهد بعد هذا التاريخ وثلاثين عاماً أن التجارة الانكليزية مع الشرق قد توقفت لأسباب عديدة منها القرصنة التي ازدادت حدتها بازدياد القوة البحرية للدولة العثمانية ، وسيطرة العثمانيين على رودس عام ١٥٢٢م وعلى قبرص سنة ١٥٧٠م.(٣) هذا إلى جانب أنه لم يكن هناك ما يقنع التجار الانكليز بمجابهة تلك الأخطار ، لأن منتوجات الهند التي كانت تصل في الماضي عن طريق البحر الأحمر والخليج العربي إلى مصر وسورية أصبح من الممكن الحصول عليها من

«١» Hakluyt: The Principal Navigations ,Voyages , Traffiques & Discoveries of The English Nation. Vol III. p . 2 ,

«٢» Hurewitz : Diplomacy In The Near & Middle East . pp. 5 - 6

«٣» Wood : A History of The Levant Company. PP. 4 - 5

مكان أقرب وبأسعار أرخص . فهي موجودة في الأراضي المنخفضة عبر قناتهم لأن التجارة البرتغالية تحولت في النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى أيدي تجار الأراضي المنخفضة ، وبدّت أنفرس البندقية باعتبارها المخزن الأكبر لتجارة الشرق . [1]

انما مالبث اهتمام انكلترة بالشرق الأدنى أن عاد ثانية ، وشعرت بضرورة تدخلها ولاسيا بعد أن هاجم سليان القانوني فينا في عام ١٥٢٨ ، وتداعت حصون المسيحية كرودس وقبرص . واتضح هذا الاهتمام في عهد الملكة اليزابيت ولاسيا أن العلاقات بين انكلترة والأراضي المنخفضة قد ساءت عن السابق كما أن ثورة هذه البقاع زعزعت ورود المنتجات الشرقية منها إلى انكلترة . ويضاف الى ذلك أن ضم اسبانيا البرتغال إليها في عام ١٥٨٠ م وابتلاعها لامبراطوريتها الاستعمارية كان يهدد بتسلم اسبانيا وهي عدوة لانكلترة آنذاك السيطرة على التجارة العالمية . كل هذا إلى جانب تفتح روح المغامرة في نفوس التجار لفتح أسواق جديدة في أية رقعة من العالم دفع بريطانيا لمعاودة نشاطها التجاري في بلاد الشرق الأدنى . ولا بد أن نجاح الفرنسيين التجاري قد أثار غيرة الانكليز فسعت الملكة اليزابيت لعقد معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية على غرار معاهدة فرانسوا الأول وسليمان القانوني . وعلى الرغم من معارضة الفرنسيين فان المفاوضات بين الأتراك والانكليز أسفرت في عام ١٥٨٠م عن معاهدة بين الطرفين تحوي اثنين وعشرين بندا تعين الحريات المعطاة للرعايا الانكليز المتاجرين في الأراضي العثمانية [2]. وعلى هذا الأساس طلب بعض التجار الانكليز من حكومتهم تصريحاً بتشكيل شركة يكون لها احتكار التجارة الانكليزية في ممتلكات الأتراك . وفي عام ١٥٨١ م أعطي التصريح

«١» Wood : op. cit. P. 5

«٢» Hakluyt: The Principal Navigations... Tome III. pp. 57 - 61.

بتشكيل شركة « الليفانت » الانكليزية التي تحصر التجارة في أيدي بعض من من التجار وتحرم جميع الرعايا الأخر من المتاجرة في أرض السلطان . وبقيت هذه الشركة تمارس نشاطها حتى عام ١٨٢٥ م .[١]

ويتضح مما ذكر أن النصف الثاني من القرن السادس عشر قد رأى مطلع التنافس الاقتصادي بين الدول التجارية الكبرى في منطقة الشرق الأدنى بعامة وسورية بالذات. وذلك التنافس الذي سيحتد مع الزمن ويتحول الى تنازع أمبريالي في القرن التاسع عشر . فسورية بدأت تكون هدفاً استعماريا واضحاً للدول الأوربية وخاصة منها فرنسا منذ هذه الحقبة التاريخية ، وتغلغل الأوربيون في البلاد العربية عن طريق التجارة التي فتح أبوابها لهم الأتراك . ومن ثم يمكن القول أن التجارة الخارجية بين سورية وأوربة كانت مركزة بيد الجاليات الأجنبية الأوربية ويساعدهم في ذلك بدافع المصلحة والتعاطف الديني الواحد المسيحيون من أهل البلاد وكذلك اليهود .

ولم تكن البضائع التي تصدر من سورية الى أوروبة هي بضائع الهند فقط كالتوابل [٢] أو حرير فارس وانما كان الاوربيون يصدرون منتوجات البلاد نفسها كالصابون الحلبي والقطن والمنسوجات القطنية والحريرية وبخاصة منها المحلاة بالخيوط الذهبية والفضية والمسماة (البروكار) . هذا بالإضافة الى المصنوعات النحاسية المكفتة بالفضة ، والمصنوعات الزجاجية ، وبعض المنتوجات الزراعية أو الزراعية الصناعية كالفستق الحلبي ، والجوز ، والصنوبر ، والزبيب . وإلى جانب هذه الصادرات هناك المواد الطبية والصناعية ، وبعضها من انتاج سورية كالراوند والنيلج ، وبعضها من

«١» Wood: P. 202

«٢» لقد بقيت توابل البحر المتوسط تصل الى أنفرس طيلة النصف الأول من القرن السادس عشر Braudel:p. 425

الحجاز والهند. وكان هناك تعرفة جمركية لكل نوع من أنواع هذه السلع المصدرة [١].

أما البضائع والسلع المستوردة من أوربة الى سورية فكانت المنسوجات الصوفية (الموهير) أو ما كان يسمى آنذاك (الحارة)، و (والجوخ الملون) والأطلس المزين بخيوط الذهب والفضة الذي كانت تشتهر به البندقية وتصدره الى الشرق لصنع الملابس الفخمة المترفة والذي كان يطلق عليه اسم (كمخا)، والمرجان الذي كان يعاد تصديره الى بلاد الهند ويأتي به تجار مرسيلية من شمال أفريقية والعنبر الأصفر والقصدير والنحاس والبقم (خشب البرازيل) والبورة (البوراكس) والكبريت والحديد ، والورق والزجاج والاقداح .

وقد نافست هذه البضائع الاوربية مع الزمن المنتجات المحلية وكانت بذلك سبباً من أسباب ضعف الصناعة المحلية .

وكانت عمليات التصدير والاستيراد الكبرى تجري عادة في « الخانات » حيث تخزن البضائع عادة في الطابق الارضي منها .

ومما ساعد كذلك على منافسة التجار الأوربيين لسكان البلاد من المسلمين التجار عدم اعتماد هؤلاء الآخرين على العمليات المصرفية .فالاسلام يحرم الربا بكل أنواعه ومن ثم كانت المصارف لا وجود لها في سورية الا ما كان قائماً منها في أيدي اليهود. وعندما يضطر أحد التجار الى اللجوء الى هذا الطريق فان الفوائد كانت تتراوح بين ٧٪ و ١٢٪ مما يثقل كاهل التاجر ويصرفه عن المبادلات التجارية الواسعة التي تتطلب رأسمالاً ضخماً . [٢]

وكان النقد المستخدم آنذاك نقداً متنوعاً أي أن الدولة العثمانية لم تلجأ

«١» Mantran & Sauvaget : p. 63.

«٢» Gibb& Bowen . Part I. p. 301

إلى توحيده في ولاياتها المختلفة. والعملة المتداولة كانت (الاقجة) أو العثماني [1] والى جانبها عملتان فضيتان أجنبيتان أطلق عليها الاتراك اسم « قروش » احداهما ذات أصل هولاندي وتحمل صورة الأسد وتعرف بـ «الأسدي» أو «الأرسلاني» وقد تضاءل استخدام هذه العملة وحل محلها القرش النمسوي المسمى بالريال أو (قره قروش).

والى جانب النقد الفضي كان التجار يتعاملون بالنقد بالذهبي الأجنبي وبخاصة (الدوكات البندقية) وقد سماها الأتراك بالفيلوري أو (الفلوران)، والدوكات النمسوية المسماة من قبلهم بـ (المكارا لتيني) أي (الماجيار الذهبي). ولم تكن هذه الأنواع من العملات هي المستعملة فحسب وانما يضاف اليها العملة العثمانية الذهبية التي سكها محمد الفاتح على غرار الفلوران وأطلق عليها بعد فتح العثمانيين لبلاد الشام ومصر اسم (الأشرفي) [2].

ولم تحافظ الأقجة على قيمتها الأولى بل أنها هبطت إلى نصف هذه القيمة في عهد السلطان سليم الأول، ولم يكن هبوطها فجائياً بل على مراحل من عهد أورخان الى زمن السلطان سليم.

ويظهر أنه منذ حكم السلطان سليمان سكت في سورية ومصر عمله فضية أكبر وزناً من الأقجة ولعلها البارة [3]. وإن سماح الدولة العثمانية في بادىء الأمر

«١» وهي العملة الفضية الصغيرة العثمانية. وكان السلطان أورخان أول من سكها، ووزنها ثلث درهم من الفضة الصافية (٩٠ ٪).

«٢» Mantran & Sauvaget : p. II. n.I. عملة ذهبية سكت من قبل السلطان المملوكي الملك الأشرف برسباي عام ٨٢٩ هـ = ١٤٢٥ م وأخذت عنه اسمه. وقد سكت على نمط دوكات البندقية التي كانت تسيطر على أسواق الشرق وبنفس القيمة. وقد حدد الأشرفي في مصر بخمس وعشرين بارة في القرن السادس عشر. وللتشابه القائم بين الدوكات العثمانية والأشرفي أطلقت التسمية الأخيرة على الأولى.

«٣» علي الحسني. تاريخ سورية الاقتصادي. ص ١٤٦

بتداول العديد من النقد الأجنبي في أراضيها أدى إلى استغلال الدول الأوربية المتاجرة معها هذه الناحية ، فتفشى تزوير النقد الأوربي وبخاصة في القرن السابع عشر مما كان سبباً من أسباب فقر البلاد ، وكثير من الأزمات الاقتصادية وبالتالي السياسية . ولذا لجأت الدولة إلى تكليف المحتسب بمراقبة النقد ومنع تداول أية عملة أجنبية فضية أو ذهبية غير مدموغة من قبلها .

ومن هذا يستدل أن جميع سبل التسهيل التجاري قد فتحت أمام الأوربيين بل أن الضرائب المفروضة عليهم كانت ضئيلة . ولكن لم تكن المدن السورية جميعها تستقبلهم بالروح نفسها ، فدمشق مثلاً لم تكن لتظهر تجاههم تسامحاً كبيراً : فالرعية رقيبة على حركاتهم وتعاملهم كعناصر غريبة ودخيلة عليها ، على عكس مدينة حلب التي كان وجودهم فيها ومبادلاتهم معها يدر عليها أرباحاً طائلة وفائدة مادية ضخمة . وبالطبع فإن اختلاط سكانها بهذه الجاليات كان على نطاق أوسع مما هو عليه الأمر في دمشق . وهذا جعل حلب مدينة أكثر انفتاحاً على الوسط الخارجي وأكثر تأثراً بتطور الغرب ، وأشد تحرراً من الناحية الفكرية وبخاصة في أوساطها المسيحية [1] .

ولكن من الواضح أن التجارة الخارجية في سورية لم تكن بذات نفع كبير لها طالما أن البضائع المصدرة لها كانت بضائع مصنوعة ، والسلع سلع كماليات للطبقة الغنية فيها ، بينما كانت صادراتها إلى أوربة تتركز في المواد الخام مما كان له أسوأ الأثر في الصناعة السورية . ويضاف إلى ذلك أنها ضغطت على توازنها النقدي : فمن ناحية لم تكن الدولة العثمانية لتسك كمية كافية من النقد تسد به حاجات هذه التجارة ولذا كان يصدر كل عام إلى بلاد الشام ومصر ، ومن فرنسا وإيطاليا ، كميات كبيرة منه ، ومن ناحية أخرى فإن التجارة الهندية والغربية كانت

«١» Volney : Voyages...T. II. p. 51

تسبب نقصاً واضحاً في الذهب والفضة في بلاد الشام لأن هذه التجارة لم تكن لتأخذ من سلعها ما يقابل ماتشتريه منها .

وكما كان الصناع في سورية ينضوون في نقابات أو أصناف ، فإن التجار بالمقابل كانوا يتجمعون في وحدات تنظيمية على نفس النمط السابق ، ولو أن تنظيمهم لم يكن ليخضع لنفس القيود التزمتية والتقاليد المحافظة . فهناك مثلاً بائعو الصابون ، وتجار الملابس ، وتجار البن والتوابل . وقد كان تجار كل سلعة يتجمعون في أسواق خاصة بهم تسمى باسمهم ، ولكل سوق شيخه . ولا يذكر لنا المؤرخون شيئاً عن احتفالات « الشد » إذا ما وجدت ولكن يذكرون أنه كان للتجار رئيس يدعى في دمشق بـ « المتقدم بين التجار » وكان يؤخذ من أكثرهم ثراءً ، وله سلطة عليهم جميعاً ، ويحل الخصومات بينهم وينظم أمورهم داخلياً ، وكان المحتسب هو الذي يراقب تلك الجماعات ، ويجمع المتوجب من الضرائب عليهم.[1]

وعلى الرغم من خضوع التجار للمصادرات من قبل السلطات الحاكمة ، بين فترة وأخرى ، وبخاصة عندما تفتقر الخزينة إلى المال فإن التجار كانوا يكوّنون طبقة اجتماعية غنية ومحترمة ومتنفذة . فهم مع قسم من العلماء يكونون الطبقة المتوسطة الحقيقية التي يمكنها أن تؤثر في سير الحكم وتضغط على الحكومة في مناسبات معينة . وكثير من العائلات التجارية الكبرى ارتبطت مع الارستقراطية الحربية الحاكمة بصلات التزاوج والمصاهرة ؛ وعديد منها كان غنياً جداً بحيث بنى المساجد وأوقف عليها الأموال ، وفتح لتجارته فروعاً في مختلف المدن ، وكان له عملاء فيها ، كما كان لبعضهم قافلة خاصة به يسيّرها لحسابه ويضع عليها الحراس الاشداء المسلحين .

ويستخلص من كل ماذكر سابقاً أنه على الرغم من كشف البرتغاليين لطريق

«١» Gibb & Bowen : part. I. P. 303

رأس الرجاء الصالح فإن سورية لم تفقد أهميتها التجارية التي كانت لها نظراً لموقعها الجغرافي بين قارات ثلاث ، ولاهتمام الأوربيين بالطريق البرية التي تمر منها وتوصل إلى شرقي آسية واحيائها ، ولاحتفاظ البحر المتوسط ببعض قيمته السابقة حتى أواخر القرن السادس عشر . ولا أدل على ذلك من حرص أوربة المتفتحة على اقتصاد جديد في مطلع العصور الحديثة ، على تثبيت أقدام تجارتها فيها. فقد تهافت البنادقة والفرنسيون وبعدهم الانكليز على انشاء بيوتات تجارية فيها، وتعيين قناصل لهم لمتابعة عمليات تجارتهم مع الهند وبقية أجزاء الشرق الأدنى . ولكن هذا لا يعني أن سورية حافظت في هذه الفترة التاريخية على جميع الفوائد المادية التي كانت تأتيها من تجارة المرور بل على العكس كانت أحوالها — على الرغم من تحول التجارة فيها إلى الطرق البرية — بتدهور حتى أن حياتها الزراعية والصناعية قد تأثرت بهذا الحدث الاقتصادي الهام فسارت تدريجياً بطريق الانحطاط . وساعد على ذلك عجز الحكومة العثمانية عن تأمين الحراسة الكافية للسواحل ، ومكافحة القرصان الذين كانوا ينهبون السفن التجارية على طول الشواطيء .

وأخيراً فإن ضعف الادارة العثمانية ، واختلال الأمن ، وصعوبة النقل ، وكثرة الضرائب ، وازدهار الصناعة في أوربة ، وانتقال طرق التجارة العالمية قد حرم التجارة السورية من كثير من الفوائد . فهي لم تزدهر كما كان منتظراً لها بعد دخول سورية في نطاق امبراطورية واسعة الأرجاء ، عديدة السكان ، وإنما بقيت في خطوطها العامة على ما كانت عليه في نهاية عهد المماليك .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

يتضح من البحث السابق عن الحياة الاقتصادية ومجتمعها أن النظام العثماني في الحكم نظام استثماري بحت يهدف صالح الفئة الحاكمة لا مصلحة الرعية ورفاهها. فكل مـــا وضعته الدولة العثمانية من تنظيمات وقوانين لم تكن لترمي من ورائه مصلحة الشعب وسعادته وانما الحصول على اكبر نسبة ممكنة من الدخل لتحقق به مشاريعها التوسعية ومطامحها الحربية . فهي بذلك لا تفرق عن الدولة المملوكية التي سلفتها فكلتاهما غريبة عن الشعب وأمانيه وأهدافه . وهكذا بقي المجتمع في سورية بعد الفتح العثماني منقسماً إلى شطرين متنافرين ، الأرستقراطية الحاكمة ممثلة بالجيش والحكام ، والرعية بزراعها وصناعها وتجارها وعلمائها . وقد نظم كل من الطرفين نفسه داخلياً بشكل مستقل عن الآخر ودون أن يسأل الطرف الثاني رأيه كما لا يتداخل واحدهما في شؤون الفريق الثاني وتنظيماته في الأحوال الطبيعية العادية الا ماندر. فالعلاقات بينهما كانت اذن علاقات رسمية وسطحية فيها برود وانكماش وعدم ثقة . فالطبقة الحاكمة في مطلع العهد العثماني كانت من الجند الذين عملت الدولة على اعدادهم للحرب والقتال ثم حولتهم الى أداة حكم لأنها لم تكن تفرق تلك الحقبة من الزمن بين أداة الحرب وأداة الحكم . وكان لهذه الطبقة امتيازاتها، فهي الطبقة الاقطاعية التي تعيش على نسبة مئوية يقدمها لها الشعب من انتاج أرضه وكد

يديه ، وكانت لا تتحرج وقد جمعت في شخصها قوة الحرب والحكم عن استغلال الرعية ولو بأساليب البطش والقهر[1] . وكان هم معظم أفراد هذه الطبقة الحصول على المال والرفاه ، ولما كانت تشعر دائماً بأنها مهددة بالعزل من قبل السلطان في أي وقت فإنها كانت تلجأ الى جمع أكبر كمية ممكنة من المال في أقصر وقت دون النظر إلى تذمر الرعية وضيقها . ولم تكن تحاول اجراء أي تعديل في الأوضاع القائمة خشية أن يؤدي هذا التغيير الى ازدياد سوء الحال ، كما أنها لا تجرب أن تحتك بطبقات الشعب المختلفة لتتعرف على رغباتها ولتوجد صلة ما بينها وبينها . وقد كانت تصل الى مناصبها في بادىء الأمر معتمدة على كفاءتها الحربية وهذا ما كان عليه الأمر في عهد السلطان سليم وبدء عهد السلطان سليمان . ولكن الحال تطور مع الزمن وأخذت المناصب تباع وتشرى ، وتفشت الرشوة ، ووصل الى الحكم كل طامع به دافع لثمنه ، فتضاعفت المفاسد ، وثقل العبء على الرعية المحكومة[2] .

وقد كيفت الرعية في الواقع حياتها بحسب هذا الوضع منذ الفترة السابقة للاحتلال العثماني واستقرت عليه . فانشطار المجتمع الى شطرين ليس جديداً على سورية ، اذ عندما دخل المحتلون الجدد أرضها فانهم لم يفعلوا سوى أنهم حلوا محل الأسياد القدامى المتعالين فشغلوا بذلك أماكن شغرت بخروج المماليك منها . فالفتح العثماني لم يحدث هزة في كيان المجتمع العربي القائم ، وانما رعشة خفيفة بثت في حناياه انفعالاً طارئاً أزال بعض شوائب الماضي ، وتململا سلبياً لم يخلق حركة ارادية مصممة تبني من جديد . فبقيت الهوة هي الهوة ، والحاجز بين الطرفين هو الحاجز .

«١» Heyd (U): Ottoman Documents . p. 60

«٢» الدكتور احمد عزت عبد الكريم . المقدمة في كتاب (حوادث دمشق اليومية) للبديري الحلاق . ص ٢٤ .

وتبدو سلبية المجتمع العربي تجاه المحتلين الجدد في تمرد السوريين النفسي على العثمنة والتتريك . فعلى الرغم من جيش تركي وطبقة حاكمة في معظم أنحاء الأرض السورية، وعلى الرغم من تزاوج أفرادها مع سكان البلاد العرب فان العناصر الوليدة لم « تتعثمن » ، وإنما خرجت عربية بلغتها وتفكيرها وأمانيها بل عربت أهلها الأتراك حتى نسي كثير منهم لغته التركية[1] . وفي الواقع لم يكن الجيش التركي جديداً بتركيته على سورية فقد سبقه الجيش المملوكي ، وكما وقفت سورية أمام هذا الأخير سداً منيعاً فإنها وقفت في وجه الجيش العثماني ومحاولته التسرب إلى مجتمعها . وساعد على هذا طبقة الاداريين من العلماء العرب المسلمين، فقد حمى هؤلاء التراث الحضاري العربي في سورية في العهد المملوكي وصانوه في العهد العثماني فبقيت سورية محافظة على أطرها الادارية العربية ، ومصطلحاتها العربية وطرق اداراتها العربية. وعلى الرغم من أن هذه الفئة كانت تعمل بشكل مستمر مع العناصر التركية الحاكمة فإنها لم تترك أبداً ، بل على العكس نجد أن الحضارة العربية الاسلامية المصانة قد أقلمت العناصر التركية المحتلة وأثرت فيها تأثيراً كبيراً .

فالاحتلال الجديد لسورية لم يغير من تركيبها الاجتماعي وأسسها الحضارية السابقة . فإذا ذكر بعض المؤرخين أن سورية قد تأثرت أكثر من غيرها من البلدان العربية بالحكم العثماني لقربها من الأناضول وبخاصة المناطق الشمالية منها وحلب بالذات ، فإن الأثر العثماني لم يتعد في الحقيقة مستوى الطبقة الحاكمة ولا يشاهد أبداً في الطبقات الدنيا . فحتى بعض العائلات الارستقراطية من العلماء في دمشق مثلاً التي كانت بعلاقات دائمة مع العلماء الأتراك وتزاوجت معهم كانت تبدي سخطها على تسرب العادات التركية أو اللغة التركية الى بيوتها ، ولم يكن يتقن اللغة التركية منهم الا من تعلم في استامبول[2] .

«١» Gibb & Bowen. Part I. pp. 210 - 211

«٢» Ibid: Part I . P.211

ولم تجرب الدولة العثمانية بدورها أن تفرض عثمنتها بالقوة على البلاد العربية أو غيرها من البقاع التي احتلتها بل تركت المجتمع يعيش كما كان يعيش سابقاً ، وأفسحت المجال للطبقة الدينية أو طبقة العلماء المحليين لتحمي كتلة الشعب من زراع وصناع وتجار من تدخل القوة الحربية في تنظيمهم ونشاطهم . وبقيت هي بعيدة تمثل السلطة الباطشة الغريبة ، والبنية السطحية في الكيان الاجتماعي القديم : هذا الكيان المرتكز على أصول تاريخية وعلى أسس راسخة لم تعمل الحكومة العثمانية الجديدة على التعرض لها او مسها بأذى .

والمجتمع العربي في سورية الذي ابقت الدولة العثمانية على نظمه الأساسية وتوضعه القديم لم يكن في الحقيقة منسوجاً نسجاً متداخلاً ومنسجماً وانما كان مركباً من عدد من الجماعات البشرية الصغيرة المتناثرة . ولكن هذه الجماعات على كثرتها وحكمها نفسها بنفسها وانكماشها على ذاتها لم تكن لتحمل صفات طبقية تشبه التبطق التزمتي المشاهد في بلاد الهند مثلاً . فليس هناك من حواجز بين تلك الجماعات ولا من فواصل تحجب الواحدة عن الأخرى . وهذا ما جعل الوضع الاجتماعي مرنا يسمح للعبقريات الفردية الفذة بأن تظهر وتلعب دورها في أية طبقة من تلك الطبقات. وصحيح أن المجتمع كان ينظر آنذاك الى الطبقة الحربية كطبقة أرستقراطية عليا الا ان العلاقات الاجتماعية بينها وبين غيرها من الطبقات كانت طبيعية وعادية لا يشوبها سوى استعلاؤها . وفي الحقيقة ان عقلية المجتمع العربي الاسلامي المستندة على مفاهيم العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع الديني الواحد تلفظ فكرة التمايز الطبقي والفواصل القاطعة بين فئة اجتماعية وأخرى.

واذا كان الاحتلال العثماني قد لاقى المجتمع العربي السوري في مطلع القرن العاشر للهجرة مكوناً من جماعات عدة تعيش كل واحدة منها في اطارها الخاص فان هذا لا يعني ان الروابط الاجتماعية العامة في نطاق ذاك المجتمع روابط ضعيفة ،بل على العكس يلاحظ ان العلاقات بين الافراد في نطاق الجماعة الواحدة

علاقات قوية ومتماسكة جداً ويزيد هذه العلاقات رسوخاً ومتانة التقاليد الأسرية: فالعنصر المسيطر في العائلة هو الأب وقد جرى التقليد أن يتبع الولد أباه في عمله وان يقتدي به في سلوكه الفاضل. كما جرت العادة ان تتزوج البنت ضمن الاسرة أو القرية أو الجماعة التي ينتمي اليها والدها، وهكذا يضاف الى رابطة العمل المشترك التي تجمع بين افراد الجماعة الواحدة رابطة الدم. فالمجموعة المهنية أو القروية هي في الواقع أسرة كبيرة كثيرة الفروع والتشعبات لا يؤثر نظام الارث الاسلامي الذي يوزع الملكية على تبعثرها[1]: اذ تعود الجماعة بتقاربها وتصاهرها الى جمع ما تفرق وجعل الصلات بين أفرادها أكثر التصاقاً وتجانساً. واذا كانت العلاقات بين أفراد الجماعة قد تأصلت برابطة الدم فان التقاليد الاجتماعية قد تضاعف مفعولها بالروابط العائلية وبالسلطات التي تتمتع بها الأسرة وتمارسها على افرادها. وبذلك عاش الفرد وسط الجماعة وكل ما حوله يقنعه ان النظام الاجتماعي الذي ينضوي تحت لوائه هو أفضل النظم رغم القيود التي يرسف فيها[1].

ولم تكن علاقات الجماعات مع بعضها بعضاً بمثل ذلك الانتظام والحرارة والتماسك فالصناع والزراع والتجار مرتبطون كل بالاقتصاد الطبيعي لمهنته ومقاطعته، وتقتصر اتصالاتهم على تبادل المنافع والخدمات الاقتصادية تبادلاً مادياً نقدياً أو نوعياً. وماعدا اشتراكهم في المناسبات الدينية والاحتفالات الموسمية، أو اسهامهم أحياناً مشتركين في بعض الأخوات الصوفية فإنه لا تحاك مباشر بينهم. فكل مجموعة تعيش في حيها الخاص في المدينة أو القرية، وكل جماعة لها شيخها والمشرف على شؤونها، ولكل فريق تقاليده ومراسمه المنبثقة من جذور تاريخية عميقة[2].

«١» Gibb & Bowen: Part 1. p. 212.

«٢» يراجع فصل الحياة الاقتصادية وبخاصة الصناعة.

وان عدم الترابط الوثيق بين هذه الجماعات ، والتكاثف في نطاق الجماعة الواحدة كان صمام الأمان بالنسبة للحكومة المحتلة من جهة وبالنسبة لمجموع الشعب ذاته من جهة أخرى . اذ أن عنف الحاكم وقسوته لم تكن لتصيب المجموعة الكلية وانما الجماعة المحدودة وإذا ماأصيبت هذه الجماعة فان جرحها لا يودي بها لأن التماسك القائم بين أفرادها يدفعها للنمو ثانية وان كان يفقدها لفترة من الزمن بعضاً من قوتها العددية وقدرتها الاقتصادية . فالحكومة مثلاً يمكنها أن تضغط على الفلاح وتمنعه من زراعة أرضه ، كما يمكنها أن توقف فرعاً من فروع الصناعة عن العمل ولكن لا يمكنها بأية حال أن تتدخل بعلاقات الأفراد مع بعضهم بعضاً في نطاق الجماعه أو بتقاليدهم . وفهمت الدولة العثمانية هذا الواقع فتركت الأمور تتابع سيرتها الطبيعية وبقيت قوة التقاليد هي التي تسير الحياة الاجتماعية ، ولم يحاول السلطان أو حاكم أية مقاطعة ان يعاندها .

والتقاليد التي كانت تدفع الحياة الاجتماعية في سيرها لم تكن قوانين مكتوبة وانما كانت ارادة مشتركة . وقد استطاعت هذه الارادة مقاومة الفساد والانحلال لثمانية قرون أي منذ الحروب الصليبية حتى القرن العشرين، وركزت القيم الاجتماعية في نطاق تلك الجماعات التي تكوّن الشعب . وان حفاظ الدولة العثمانية على تلك التقاليد ومراعاتها لها أبعد المجتمع العربي عن العثمنة وجعل العلاقات بين الحكومة والشعب محددة فقط في ميدان الضرائب التي كثيراً ما تجبى بعنف وشدة وقسوة وظلم [١].

ومن هذا يستنتج أن المجتمع السوري كان في مطلع العهد العثماني منقسماً الى جماعتين رئيستين الطبقة الحاكمة والرعية . والرعية بدورها منقسمة الى فئات بحسب مهن أصحابها وأعمالهم وأهم هذه الجماعات الزراع والصناع والتجار [٢]

«١» Weulersse: Les Paysans de Syrie. p. 59

«٢» ان حياة هذه الجماعات الاجتماعية قد درست في فصل الحياة الاقتصادية .

ولكن يجب ألا يفهم من ذلك أن الهوة القائمة بين الرعية والحكومة بقيت بعيدة الغور ، جارفة الهاوية بل كانت هناك فئة من المجتمع تعمل على رأب الصدع بين الفريقين وربط الجماعات المختلفة بعضها ببعض . وهذه الفئة هي ما يمكن تسميتها «بالمؤسسة الدينية» ، وهي تقابل المنظمة الادارية التي تعمل هي الأخرى على ربط أطراف المجتمع بعضها ببعض ولكنها فشلت في ذلك لسلبيتها واستبدادها . فالدين الاسلامي ، كان في الواقع هو الرابطة الوحيدة التي يمكن أن تجمع العربي آنذاك الى جانب التركي وتشعره بشيء من الدفء العاطفي وتدع الفلاح العربي المسكين يعمل للسلطان التركي بصمت وسكوت .

فئة العلماء :

وطبقة العلماء هذه هي الطبقة من الناس المتفقهة في الدين والمتبحرة في العلم وقد حرصت هذه الجماعة منذ العصور الاسلامية الأولى على الدفاع عن سنية الدين الاسلامي وأصالته وابعاد البدع والخزعبلات عنه والوقوف سداً أمام الفئات التي أخذت تشن حربها الشعواء على كثير من عقائده وتقاليده . وقد حاولت هذه الجماعة منذ الماضي ان تركز السلطة الزمنية والدينية معاً في يدها ولكن التجربة علمتها بأن عليها أن تعترف بسلطة زمنية خارجة عنها تفرض هي نفسها رقيبة عليها . ومن هنا نشأ شبه تنافر بين الحكومة والمؤسسة الدينية ، واختص كل طرف بنوع من الأعمال مغايرة لأعمال الآخر : فكان من نصيب المؤسسة الادارية الشؤون الحربية والادارية والاقتصادية ، ووقع على كاهل المؤسسة الدينية التفرغ لأمور العقيدة والشرع والتعليم والحياة الفكرية والعلاقات الاجتماعية . واتخذت مبدأ لها تنظيم حياة المجتمع العربي القائم بالحفاظ على تقاليده التي اكتسبها منذ القدم ومع الزمن ، وحمايتها من أية هزة أو صدمة ، وجعل المجتمع ثابتاً في وجه التقلبات السياسية التي يمكن أن تطرأ عليه . فالمؤسسة الدينية اذن لعبت في تاريخ المجتمع

العربي وهو يدخل في نطاق الحكم العثماني دوراً خطيراً ، وهو حفاظها على الجماعة الاسلامية متحدة ومتجانسة في تركيبها غير مبالية باختلافات الجنس ، وبعيدة عن التنظيمات السياسية الجديدة وتغيراتها .

وقد اعتمدت هذه المنظمة الدينية في قوتها على خضوع من تسوسه للمثل التي تبنتها وعلى احترام الجماعة الاسلامية لمثلها . وتحقيقاً لهدفها في الابقاء على الجماعة الاسلامية متحدة كان عليها أن تضع مبادىء لجميع طبقات المجتمع بما فيهم المنظمة الحاكمة وتلقينهم العادات الفكرية القديمة وأسس الحكم المنسجمة مع تلك المبادىء ، كما كان عليها ان تربي مجموعة من المعلمين يحمون بعملهم مبادئها ويكسبون بطريقة حياتهم الفاضلة احترام الشعب وعطفه (١) .

ولقد أيدت الحكومة العثمانية الاسلامية ، المؤمنة بقيمة المؤسسة الدينية ومبادئها ، هذه المؤسسة بأن شجعت نشاطها الديني ، فبنت المساجد ، والمدارس ، والتكايا ووقفت عليها الأوقاف الشاسعة . ولكنها في نفس الوقت أوجدت عليها نوعاً من الرقابة بأن جعلت بعض أفرادها موظفين لديها ولا يقومون بعمل يرتبط بالشرع وفقهه وتطبيق أحكامه فحسب وانما بعمل اداري : كالقاضي الذي سلمته الى جانب أعمال قضائه سلطة ادارية بحتة ، والمحتسب الذي سلمته الاشراف على النقابات المختلفة .

وطبقة العلماء القابضة على المؤسسة الدينية هي جماعة متضافرة ومترابطة في كل اقليم ، لها رئيس يشرف عليها وتضم عادة ثلاث مجموعات :

أولاً ـ . القضاة وهم الذين يطبقون أحكام الشريعة الاسلامية في المحاكم .

ثانياً ـ . المشرفون على المساجد كالخطباء والائمة والمختصون بشؤون المسجد الأخرى .

«١» Gibb & Bowen: Part II. PP. 81 - 82

ثالثاً ـ . المشرفون على المدارس والمعلمون فيها .

وليست هناك فواصل جامدة بين كل قسم وآخر ، بمعنى أنه يمكن للفرد أن ينتقل من عمل الى آخر ومن جماعة الى ثانية بشروط معينة .

واذا كان المماليك قبل العثمانيين قد رعوا هذه الجماعة وشجعوها هم الآخرون بفتح المدارس ووقف المساجد[1] فان الحكومة العثمانية بدورها كانت حريصة على نهضتهـــا ورفعة مستواها . ولا ادل على ذلك من تأسيسها المدارس الكبرى لتخريج هذه الفئة في كل من بورصة وأدرنة واستامبول ، والتدقيق في المستوى العلمي الرفيع لأصحابها . فقد جعلت شرط الحصول على منصب من مناصب تلك الجماعة ليست الدراسة فقط والتخرج من احدى المدارس المشار اليها وانما التعليم فيها كذلك وحمل شهادة تخول صاحبها حق التوظف . وعندما وصل الى السلطنة سليمان القانوني اوجد لهذه الفئة تنظيما لم تشاهد البلاد الاسلامية مثيلاً له من قبل . فقد أوجد أولا كرئاسة علمية دينية كبرى منصب « شيخ الاسلام » وأعطاه نفس الرتبة التي يتمتع بها الصدر الأعظم ، ومنحه من السلطات الكثير فلا تعلن حرب أو تعقد معاهدة الا بأخذ رأيه[2] . ويتلوه في المقام القاضيان الكبيران (الملا*) وهما قاضي عسكر الروملي وقاضي عسكر الأناضول . والأول يقوم بتعيين القضاة على القسم الأوربي من الامبراطورية ويشرف عليهم والثاني يختص بالبلاد الآسيوية أي أن سورية تقع في محيط عمله . ويتسلسل بعد القاضيين الكبيرين قضاة الدرجة الأولى ، ويدخل فيهم قاضيا المدينتين المقدستين (مكة والمدينة)

« ١ » ينظر النعيمي الدمشقي : الدارس في تاريخ المدارس . جزءان.

«٢» Encyclopédie de L'Islam . Art . Shaikh - al - Islam .

وقاضيا عاصمتي الخلافة سابقا (دمشق والقاهرة) وقاضيا القدس وحلب [١] . واشترط سليمان شروطا قاسية لوصول « العالم » الى أحد هذه المناصب الكبرى فعليه أن يمر كطالب علم أولا ثم كمدرس في اثنتي عشرة مدينة بتسلسل تدريجي وهذا يتطلب من الفرد أربعين عاما على الاقل . ولا يمكن لواحد من القضاة ان يرتقي من منصب الى آخر الا بشهادة القاضي الأعلى منه مركزا. فليس باستطاعة قاضي القدس مثلا الوصول الى منصب قاضي دمشق الا بشهادة منقاضي القاهرة أو المدينة أو استامبول [٢] ويتلو تلك المناصب القضائية الاولى مناصب القضاة من الدرجة الثانية . وهذه قسمان مناصب (كبارالقضاة) ومنهم قاضي بغداد ودياربكر ومناصب صغار القضاة وهم القضاة العاديون المتفرقون في المدن الصغرى ونوابهم في القرى .

والى جانب هذا التنظيم لمراتب القضاء في الامبراطورية نظم سليمان بشكل محاذ لها مناصب «الافتاء» و«نقابةالاشراف». أما الاولى فتشمل مناصب الفقهاءالذين يعطون آراءهم في كثير منالقضايا الشرعية المختلف حولها. وهم فيالواقع لا يبتكرون جديدا في الشريعة الاسلامية اذ ان باب الاجتهاد قد أقفل منذ تثبت المذاهب السنيةالاربعة، وانمايعطون أجوبة علىأسئلة تطرحفي قضايا معينةبالاستناد الى قواعد سابقة قائمة. وتنظيم هؤلاء كان أكثر مرونة من تنظيم القضاة لانهم

« ١ » D'Ohsson: Tableau Géneral De l' Empire Ottoman. IV . p 542

ويضاف الى طبقة القضاة الكبار المذكورين خمسة من العلماء مقيمونفي استامبول هم : معلم السلطان (الخجة) الذي يعلمه مبادىء الدين ، اثنان من الائمة ليؤما المصلين في مسجد السراي والحكيم باشي (المشرف على صحة السلطان وله عدد من المساعدين) ، والمنجم باشي ويعيء الروزنامة اي التوقيت السنوي .

« ٢ » Hammer. Tome IV. p.250

لا ينالون في الواقع أجرا من الدولة كما هو الحال في القضاء ، ولا يرتقي واحدهم من منصب الى آخر ، ويحصل على منصبه لا لسنة فقط وانما لمدى الحياة [1].

ولا يشترط تخرج رجال الافتاء في الاقاليم من مدارس استامبول وكذلك القضاة الصغار ونوابهم ، وانما يقبل تخرجهم من أية مدارس دينية أخرى ويأتي المفتي في الترتيب تحت القاضي وفوق نائبه في المقاطعات . ولما كان العثمانيون يؤيدون المذهب الحنفي في التشريع فانهم كانوا يعينون دائما من هذه المدرسة على غير ما كان عليه الحال أيام المماليك . اذ كان هؤلاء يعينون مفتيا من كل مذهب في « دار العدل » القائمة في عاصمة كل نيابة . وكان رجال الفتوى هؤلاء يأتون في المرتبة تحت قضاة العسكر [2] ولكن هذا لا يمنع من وجود رجال الافتاء من مذاهب أخرى في المدن الكبرى . ويلاحظ أن الحرية التي كان يتمتع بها رجال الافتاء في الولايات العربية اكثر مما كان يتمتع بها غيرهم في الولايات الاخرى ، وبخاصة في مصر بالذات اذ أن العلماء المحليين هم الذين كانوا يختارون مفتييهم الحنفي والشافعي ثم تعمل السلطات الزمنية على الاعتراف بهما [3].

ويتبع تنظيم طبقة العلماء منصب «نقيب الاشراف» وهذا المنصب هام . وتعني كلمة « اشراف » أولئك الافراد الذين هم من نسل الرسول محمد أكان عن طريق الأم أو الأب . ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين محترفين وانما كان منهم التاجر والصانع ، الا أنهم جميعا كانوا يتمتعون باحترام خاص من مجموع الشعب ويشكلون جماعة منفصلة ومتميزة . وحتى تراقب الدولة هذه الجماعة وتمنع الناس من ادعاء النسب الشرفي أوجد العباسيون ، ثم المماليك بعدهم رئيسا لهم اطلقوا عليه اسم « نقيب الاشراف ». وسارت الدولة العثمانية على نفس هذا النهج

« ١ » Gibb & Bowen: Part II. pp. 135 - 136

« ٢ » Demombynes. La Syrie.. p. IXXXVII

« ٣ » الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والاخبار. ج ٢ ص ١١٨، ٥ ج ٤ ص ٦٢

فأوجدت هذا المنصب في عهد بيازيد الثاني . ويأتي نقيب الأشراف في استامبول بالمرتبة بعد شيخ الاسلام ، وبالطبع يشرف على تثبيت نقباء الأشراف في مختلف المقاطعات وله سلطة قضائية عليهم .[1]

ولم يحط تنظيم سليمان لطبقة العلماء القضاة والمفتين ونقباء الأشراف فحسب وانما امتد الى المشرفين على شؤون المساجد والقائمين بالخدمة فيها . ولم يحدث في الواقع من جديد في أمر هؤلاء وانما ثبت التنظيمات الموجودة سابقاً . فهناك الائمة الذين يؤمون الناس في الصلاة ، والخطباء والقيمون والقراء . أما الأول فيعينون من قبل السلطات القضائية العليا في المنطقة اذا كانت الدولة هي المشرفة على المسجد أو من قبل « الواقفين » على المسجد ، ويعتمد تعيينهم ديوان السلطان أو السلطات القضائية . وكذلك القيّمون والخطباء وقراء القرآن . أما القيّم فهو المشرف على جميع شؤون المسجد من نظافة وترتيب وتهيئة لوسائل الصلاة والوضوء .

وقد خص سورية من هذا التنظيم الواسع لطبقة العلماء قاض عثماني من الدرجة الأولى يقيم في دمشق ومعين على راتب سنوي من استامبول ، وقاضيان آخران من القضاة الكبار إلا أنهما دون قاضي دمشق درجة وهما قاضيا القدس وحلب . أما في باقي المدن والقرى فهناك قضاة عاديون ونواب لهم . والى جانب هؤلاء تعين استامبول في سورية كذلك نقيباً للأشراف ويكون تعيينه سنوياً أو يعاد تعيينه بوثيقة من العاصمة وترفق هؤلاء العلماء بالمفتي الحنفي الرئيسي وهذا الأخير هو في معظم الأحوال رئيس العلماء المحليين ، وكانت تعين القاضي الأكبر في دمشق سنوياً قاضياً للمحمل ليساير قافلة الحجاج الذاهبة من دمشق الى مكة[2].

وإذا كانت الحكومة العثمانية في عهد سليمان القانوني قد اطمأنت مبدئياً على

«١» D'Hosson: op -cit IV. pp. 555 - 566

«٢» المرادي : سلك الدرر . ج ٣ . ص ٨٩ .

سيادتها القضائية في هذه البقاع عن طريق تلك التنظيمات الآنفة الذكر فان سيطرتها الفعلية تقاس بالمدى الذي يمكن فيه لسلطات استامبول أن تثبت مرشحيا لهذه المناصب: فالسلطات التركية كانت في الواقع مجبرة في معظم الأحيان على الاعتراف بتعيين اولئك الذين رشحتهم طبقة العلماء المحليين. وكان الأمر يختلف بالطبع من مدينـــة إلى أخرى بحسب قرب المدينة أو بعدها عن استامبول، فتأثير التنظيم العثماني في طبقة العلماء في حلب كان أقوى مما هو عليه في دمشق: إذ بقي في هذه المدينة بناء سطحياً يحمل أفراده ألقابهم الجديدة وهم لا يزالون محافظين على أنماط سيرهم السابقة. وقد كانت الدولة تحاول بين الفينة والأخرى أن تبعث بالقضاة والمفتين ونقباء الأشراف من استامبول ولكنها كانت تصطدم بمقاومة شديدة من طبقة العلماء المحليين وبخاصة من الأشراف. ويلاحظ أنه في بعض المدن السورية كانت بعض المناصب العلمية تتوارث في نطاق أسرة واحدة كنقابة الأشراف في حماة [1]، ويسري نفس الأمر على مناصب الافتاء، كما كان عليه الحال في مدينة دمشق حيث كان الافتاء بيد أسرة العمادي ثم انتقل إلى أسرة المرادي. [2]

ومهما تمتعت طبقة العلماء المحليين في سورية بحرية فإنها كانت أضيق من التي عاش فيها علماء مصر. ولعل وجود الجامع الأزهر فيها كان عاملاً قوياً في تدعيم طبقة العلماء المصريين وتثبيت مركزهم، وتوحيد جهودهم، ووقوفهم قوة صامدة في وجه السلطات العثمانية. بينما كثرة المدارس الدينية في سورية وتبعثر العلماء وعدم ترابطهم ترابطاً كافياً مهد السبيل أمام السلطات العثمانية لتمارس حقها التنظيمي بين آونة وأخرى. ففي مدينة حلب مثلاً كان هناك رئيس للفقهاء وآخر للقضاة أي أن طبقة العلماء لا تشكل وحدة واحدة متماسكة الاجزاء في مختلف

«١» المرادي. سلك الدرر. ج ١. ص ٢١٩ — ص ٢٢٠ (كانت وراثية في أسرة الكيلاني وهم احفاد مؤسس الطريقة القادرية).

«٢» المرادي. ج ٢. ص ١١ — ١٩.

الولايات الشامية . ومهما يكن من أمر فإن الحكومة العثمانية بتنظيمها السابق للعلماء أو للمؤسسة الدينية كانت تهدف إلى تثبيت الشريعة الاسلامية ما أمكن على أسس نقية صافية وطرد الشوائب التي لحقت بالنظام القضائي في أواخر العهد المملوكي [1] ، وابعاده عن التدخلات السياسية [2] . فقد لاحقت سوء استعمال القضاة لمناصبهم ومنعتهم من بيع « حق العدالة » إلى نوابهم أو من يحل محلهم . وحتى تضمن نزاهة القاضي قدمت له راتباً معيناً وسمحت له أن يتقاضى($\frac{1}{2}$ ٢ ٪) من قيمة ما يقضي فيه ، كما أعطته حق جمع الرسوم على المبيعات والمنقولات . وقد وسع سليمان سلطة القضاة فأوكل اليهم إلى جانب عملهم القضائي الرئيسي الاشراف على الشؤون الادارية كالتحقيق في الحسابات الجمركية ، وجعلهم وسطاء بين المتخاصمين من الاحزاب السياسية المتنافسة ، وسلم للقضاة الرئيسيين منهم حق الاشراف على المدارس والاوقاف ومراقبة سيرها واعتماد المرشحين للأستذة في المدارس . كما أعطى للقاضي حق تسجيل العقود والاشراف على أموال اليتامى . وفي الحقيقة كانت هذه الاعمال الادارية تشغل القاضي أكثر مما تشغله الخصومات والمنازعات بين الافراد وكيفية حلها ، إذ كانت تترك مثل هذه القضايا للجماعة أو النقابة لتقوم عليها . وبذلك ضمنت الدولة العثمانية القسم الاكبر من طبقة العلماء إلى جانبها وشغلتهم بشؤونها الادارية عن التفكير في مراقبة أعمالها .

وعلى الرغم من هذا فان طبقة العلماء المحليين في سورية لم تفقد حريتها الفكرية نسبياً وحاولت أن تتدخل في المجالات السياسية [3] ، وأن تدافع عن

«١» ابن أياس . ج ٤ . ص ٤٦٩ — ٤٧٠ .

«٢» Gibb & Bowen: Part II. P. 122

«٣» Ibid: Part II. P. 101

ففي حلب مثلاً كان الاشراف يدخلون في نطاق الجيش وكانوا في عداء مستمر مع الانكشارية وكان نقيب الاشراف يدخل في المنافسات السياسية ويكن عداءً خفياً للسلطات العثمانية .

الحقوق القائمة ضد طغيان الحكام واستبدادهم[1]، وأن تتحسس مسؤولياتها وتحفظ التقليد الاخلاقي والديني الموروث أجيالاً عن أجيال دون أذى . وفي الواقع كانت طبقة العلماء تمثل الفئة المفكرة المستنيرة من الشعب العربي في سورية في مطلع العهد العثماني ، وكانت تتمتع باحترام المسلمين لها لعلمها الحق ونزاهتها . ولم تكن لتشكل طبقة مغلقة على نفسها كما يتبادر الى الذهن . اذ ليس هناك من خط فاصل واضح بين الشيخ والتاجر والكاتب والمعلم والصانع لأن التربية الأساسية لجميع هؤلاء تربية دينية متشابهة . وكانت الأخوّات تتابع تلك التربيــة وتثبتها في النفوس . ولهذا يشاهد أن كثيراً من الصناع قد تحولوا الى شيوخ علم وكثيراً من الشيوخ ابتدأوا حياتهم كأولاد لعسكريين . ولكن من النادر في الواقع أن يسمع أن أولاد العلماء غدوا صناعاً أو تجاراً لأنهم كانوا ينظرون الى تلك الخطوة كتدن في مستواهم الاجتماعي . واذا كان هذا يدل على شيء فانه يثبت أن للعلم في تلك الحقبة من الزمن مكانة رفيعة وقيمة كبرى في ذاك الوسط .

وبالنظر الى مركز هؤلاء العلمــاء والشيوخ وشعبيتهم ، ولاحترام الحكومة العثمانية نفسها لهم ، فانهم كانوا يتمتعون بامتيازات عدة منها اعفاؤهم من الضرائب والمصادرات وسماع صوتهم في القضايا الادارية المختلفة . ولم تكن العلاقات في الواقع بين السلطة الحاكمة والعلماء علاقات متوترة بل كانت تتصف بالاحترام المتبــادل ما عدا بعض الحوادث الصغيرة[2] . وقد نجحوا في تحقيق أهدافهم وبخاصة المحافظة على الأوضاع الاجتماعية كما كانت عليه وان كان عملهم هذا قد جمد المجتمع وأوقف حركته .

واذا كنا قد استعرضنا طبقة العلماء وأثرها كطبقة ملطفة للجو الاجتماعي

«١» ابن طولون. تاريخ. (النزاع بين ابن فرفور القاضي وجانبردي الغزالي).

«٢» Gibb & Bowen: Part II. P. 122

في سورية ، وكجماعة لها هي الأخرى تقاليدها ونظمها على نمط الجماعات السالفة الذكر ، فانه لا بد من الاشارة الى ان اعتماد الحكومة عليها لرأب الصدع بينها وبين الشعب جعل فئة أخرى من المجتمع تبقى خارجة عن نطاق عمل هذه المجموعة وهي فئة اهل الذمة. ولاعطاء صورة قريبة من الواقع عن الحياة الاجتماعية في سورية في مطلع العهد العثماني لا بد وأن تدرس أحوال هذه الجماعة وتنظيماتها وما طرأ عليها بعد الفتح العثماني .

فئة أهل الذمة

ويقصد بأهل الذمة بالطبع العناصر غير المسلمة في سورية أي هم المسيحيون واليهود ويسمون ايضاً بـ « الكتابيين » والتسميتان تكمل احداهما الأخرى . فهم أهل ذمة بمعنى انهم دخلوا في ذمة المسلمين اي حمايتهم وهم انما استحقوا هذه الحماية لأنهم اهل كتاب منزل ولم ينخرطوا في الجيوش والفتوحات التي تهدف نشر الاسلام ، فوضعت عليهم الجزية وهي بمثابة البدل الذي يدفع اليوم اعفاء من الخدمة العسكرية . ولتفهم موقف الدولة العثمانية من هذه الفئة وأحوالها لا بد من التعرف على موقفها من هذه العناصر في البلاد التي فتحتها قبل احتلال سورية . فالمعروف أن الدولة العثمانية باكتساحها الجنوب الشرقي لأوربة أو بمعنى آخر بلاد الامبراطورية البيزنطية ، قد ادخلت في محيطها عدداً ضخماً من المسيحيين يفوق عدد المسلمين فيها . وقد عامل العثمانيون هؤلاء في بدء توسعهم معاملة تشبه معاملة العرب المسلمين للمسيحيين عندما قاموا بفتح سورية (١) . اذ نظروا اليهم كمجموعة بشرية لها ديانتها السماوية وعقائدها الخاصة ، واتبعوا مبدأ التسامح فحفظوا لهم حياتهم وعليهم املاكهم وصانوا لهم حرية عبادتهم على أن يدفعوا الجزية والخراج . ولم يحاولوا ان يتدخلوا في علاقاتهم فيما بينهم بل تركوها

«١» Gibb & Bowen : part II. P. 209

لرؤسائهم الدينيين . وهكذا كان يمثل المسيحيين بطاركتهم واليهود حاخاماتهم والحكومة تتصل بهؤلاء لتأمين علاقاتها مع رعاياها الذميين . وبعد فتح محمد الثاني للقسطنطينية أوجد لغير المسلمين تنظيماً مركزاً :

فقد أطلق على كل مجموعة منهم لقب « ملة »[1] ، والموظف المسئول امام الدولة عن ادارة شؤونها سمته « ملة باشي » . وعلى الرغم من ان هناك دقائق جديدة في التنظيم العثماني لهـــذه الفئة ، فان النظام بحد ذاته ليس بجديد . اذ ان جذوره ترجع الى عهد الامبراطورية الرومانيـــة التي كانت تسمح لمجموعة من رعاياها بالاحتفاظ بقوانينها الخاصة وتطبيق تلك القوانين على نفسها تحت اشراف عام من قبل سلطة معترف بها تكون مسؤولة أمام السلطة الحاكمة .

وهنا لا بد من التمييز بين الرعايا الذميين الخاضعين للدولة العثمانية وبين الجاليات الأجنبية المقيمة فيها والذي كان يطلق على افرادها في العهود الاسلاميـة الأولى اسم « المستأمنين » اي الذين طلبوا الأمان فأعطوه . وقـــد كان هؤلاء يعيشون على قدم المساواة مع الرعايا المسيحيين في البلاد العربية[2] . ولكن منذ القرن الثاني عشر أصبحوا مجموعات تجارية منظمة تحت اشراف قناصل أممهم مع امتيازات خاصة في الضرائب والمعاملة وذلك نتيجة اتفاقات بين حكوماتهم وبين الحكومات العثمانية[3] ،

فنظام الملة اذاً ليس جديداً ، وقد طبقه العثمانيون أنفسهم بمعانيه العريضة قبل فتح القسطنطينية ، انما ثبت على أصول تنظيمية صحيحة منذ عهد محمد الفاتح . فعندما قام العثمانيون باحتلال بلاد البلقان وجدوا فيها في الواقع ثلاث كنائس

«١» ان كلمة ملة عربية تعني « الدين » ثم أطلقت على الجماعة الدينية المعينة .

«٢» Gibb & Bowen: Part . II. P. 213

«٣» يرجع الى الفصل الثاني . بحث التجارة الخارجية ص٩٣ فما بعد.

أرثوذكسية لا تختلف عن بعضها بالعقائد وانما ظهرت نتيجة لحركات عنصرية أو قومية . ولما كان من العسير سياسة هذه المجموعات بفرديتها عمل محمد الثاني على توحيد الاشراف عليها وجعلها جميعها تحت سلطة بطريرك الأرثوذكس في القسطنطينية . وبذلك جعل الارثوذكس جميعاً ملة أطلق عليها اسم (ملة الروم) ، واعطي لبطركها رتبة باشا بثلاثة ذيول (طوغات) [1] . وكان لهذا البطريرك حاشيته الخاصة ومساعدوه الخاصون ، وسجن لرعاياه في حي (الفنار) ، وزود بسلطة مدنية لا محدودة على مسيحيي كنيسته ومنها توزيع الضرائب والاشراف على جمعها . فعلى الرغم من أن الكمية قد حددت من قبل موظفي الباب العالي بالاتفاق مع السلطات الدينية ، على المجموعة ككل ، فان توزيعها على الأفراد ومسئولية تسليمها الى الباب العالي أنيطا بالبطرك العام [2] .

وكما اعترف بالمسيحيين الارثوذكس ملة فقد اعتبر اليهود ملة أخرى . وسمح لهم محمد الفاتح بالاقامة في استامبول وعين لهم (حاخام باشي) بسلطات تشبه تلك التي أعطيت للبطريرك الارثوذكسي ، بل زاد على ذلك بأنه اعطي حق التقدم على البطريرك ويأتي في الاحتفالات الرسمية بعد رئيس العلماء . وقد تحسن وضع اليهود تحت الحكم العثماني فبعد ان كانوا في ظل الدولة البيزنطية مجموعة منعزلة لها حق حل منازعاتها أمام محاكمها الخاصة ، ومحرومة من الوصول الى

«١» الطوغ Tug هوذيل حيوان (الياق) وقد استبدل فيما بعد بذيل الحصان. ويبدو أنه رمز تركي قديم ، ولعله ذو أصل طوطمي . وكان يعلق كما تعلق الراية من أحد أطرافه وتعلوه كرة ذهبية ، أو الهلال . وقد استعمل كرمز للمراتب العسكرية في الدولة العثمانية: فبيك السنجق له الحق بواحد ، والبكلربك باثنين والوزراء بثلاثة والصدر الاعظم بخمسة ، والسلطان في حالة الحرب بتسعة .

«٢» Gibb & Bowen: Part II. P. 216

المناصب العامة ومن الشهادة ضد المسيحيين [١] فانهم خرجوا قليلاً عن هذه العزلة ايام الحكم العثماني وتقربوا من السلاطين واكتسبوا ثقتهم ، حتى عين واحدهم حكيماً للسلطان . ولم يتشدد العثمانيون في ضرورة ارتدائهم لباساً يميزهم عن المسلمين بل اطلقت لهم حريتهم . ولذا يلاحظ أنهم تدفقوا على الامبراطورية العثمانية من بلاد اوربة وبخاصة من اسبانيا بعد سيطرة ايزابيلا وفرديناند على تلك البقاع واضطهادهم المسلمين واليهود على السواء . وقد استقبلهم العثمانيون بحماسة وحفاوة ولا سيما انهم كانوا يرافقون العرب المسلمين المهاجرين . وسمحوا لهم بفتح الحوانيت التجارية والعمل في الصناعة [٢] . ويفسر بعض المؤرخين تقريب الاتراك لليهود بعدم ثقتهم بالمسيحيين في امبراطوريتهم ، وتوجسهم خيفة من مدّهم يد العون لمسيحيي أوربة المعادين للدولة العثمانية والمحاربين لها .

أما الأرمن فقد تأخر الاعتراف بهم كملة إلى عام ١٤٦١ م . والكنيسة الأرمنية تختلف عن الكنيسة الأرثوذكسية بأنها كنيسة مونوفستية [٣] . ولما لم تكن بلاد الأرمن الأصلية في شرقي الأناضول وفي منطقة طوروس قد دخلت بعد في نطاق الامبراطورية العثمانية عند تنظيم محمد الفاتح للملل فانه تأخر قليلاً في اطلاق لقب ملة عليها ، وعندما أوجدها فعلاً فانه ضم إليها جميع الرعايا المسيحيين الذين لم

«١» Encyc. Britannica: Art. Jews.

«٢» Franco: Essai sur L'histoire des Israélites de l' Empire Ottoman, P, 32

«٣» تسمى الكنيسة الارمنية عادة بالكنيسة الغريغورية نسبة الى منظمها في القرن الثالث (غريغوري المنير) . وهي في اعتقادها مخالفة تماماً للكنيسة النسطورية والارثوذكسية . فهذه الاخيرة تؤمن بطبيعتين للمسيح احداهما إلهية والاخرى بشرية وتشكل الاثنتان شخصية واحدة ، بينما المنوفستية تقول بأن المسيح ليس شخصية واحدة فحسب وانما هو طبيعة واحدة .

يصنفوا في ملـــل ، فكأنها جمعت جميع الكنائس الخارجة عن الكنيسة الأرثوذكسية (١) .

أما الكاثوليك فقد كان عددهم عند فتح القسطنطينية صغيراً ، ومعظمهم جاليات أجنبية كالجالية الجنوية ، وقد سمح لها السلطان في أن تتابع حياتهـــا السابقة . وازداد عددهم قليلاً بعد فتح بلاد اليونان الوسطى والمورة عام ١٤٥٦ م ولكن رغم هذا فانه لم يعترف بهم كملة قائمة بذاتها .

ومن الملل الثلاث التي اعترفت بها الحكومة العثمانية كانت الملة الأرثوذكسية هي المميزة عن غيرها . ولو أن الآراء اختلفت فيما إذا كان هذا التمييز لصالحها أو لطالحها : فقد كانت هي الملة الوحيدة التي تخضع لنظام « الدفشرمة » أو ضريبة تقديم الأطفال الصغار إلى السلطان ليقوم بتربيتهم واستخدامهم عبيداً له في الحرب أو الادارة . أما الملل الأخرى فقد أعفيت من هذا الواجب . وفي الواقع كانت الحكومة العثمانية ، وهي تطبق نظامها هذا ، تعتبره عقاباً لهذه الملة . والدليل على ذلك أنه عندما فتح محمد الثاني القسطنطينية أعفى جميع المسيحيين فيها مهما كانت ملتهم من هذه الضريبة مداراة لشعورهم . وقد علل بعضهم هذا الامتياز المعطى لليهود والأرمن والكاثوليك بأن اليهود والأرمن كانوا سكان مدن والدولة العثمانية بحاجة إلى أفراد أشداء من أهل الريف : اذ بذلك تضمن بأسهم وتعمل على تمدينهم ، وتؤمن سيطرتها على البقاع التي يفدون منها . كما أن معظم الأرثوذكس يقيمون في الأرض الأوربية ، وهذه الأرض هي (أرض حرب) أي أن أهلها في حالة قتال مع الأتراك المسلمين أو بمعنى آخر تبيح الشريعة الاسلامية لامام المسلمين في هذا الوضع الاحتفاظ بعدد من الأسرى كأرقاء عاملين لديه . وهكذا طبق مبدأ « التجنيد » على الأراضي الأوربية دون غيرها لأنها أرض حرب وأعفيت الأراضي

«١» Lybyer : The Government of the Ottoman Empire. P.34 . N

الآسيوية التي دخلها الاسلام منذ زمن بعيد . وعلى هذا فإن الولايات العربية التي ضمها سليم ثم سليمان الى الامبراطورية العثمانية كانت لا تخضع لهذا النظام.[1]

وفي الحقيقة أن فتح السلطان سليم لسورية ومصر ثم السلطان سليمان لبلاد العراق أوجد تغييراً كبيراً في تركيب الامبراطورية العثمانية الديني وفي حالة أهل الذمة ، اذ إن معظم سكان الولايات العربية مسلمون . فاذا كان المسيحيون قبل الاحتلال العثماني للبلاد العربية أكثر عدداً من المسلمين في الامبراطورية العثمانية فان الآية انعكست بعده ، وأصبح المسلمون يشكلون الأكثرية فيها. ونتج عن هذا اهتمام أكبر من قبل السلاطين بالجماعة الاسلامية ، وتحولهم نحو مبادىء السنة الضيقة . كما أن الجماعات الذمية نفسها الموجودة قبل الفتح في الامبراطورية العثمانية قد ضاعت وسط الأعداد الجديدة من الطوائف الذمية المقيمة في الأراضي المفتوحة جديداً ، يضاف إليها طوائف من المسيحيين لم تكن معروفة سابقاً في الامبراطورية .

فبضم سورية ومصر إلى السلطنة العثمانية دخلت كراسي البطاركة الأرثوذكس الثلاثة في أنطاكية والقدس والاسكندرية في نطاق الامبراطورية. ويلاحظ أن الكنيسة الأرثوذكسية تختلف عن الكاثوليكية بألا رأس واحدة عليالها : فهي محكومة بأوليجاركية من البطاركة كل واحد منهم يتمتع بسلطات في منطقته مشابهة لسلطات البابا في روما . ولم ينجم عن وجود بطاركة أربعة في دولة واحدة صعوبات في ادارة شؤون الكنيسة ، اذ ترك السلطان سليم لكل واحد عمله السابق ، واحتفظ البطرك في القسطنطينية بلقب (رئيس الملة)،ولكنه يتقاسم الاشراف الروحي على الارثوذكس مع زملائه كما كان في الماضي .[2]

«١» Gibb & Bowen: Part II. p.224

«٢» Encyclopedia Britannica: Art, Orthodox Eastern church

وتظهر الحرية التي تمتع بها البطاركة في ادارة كنائسهم من أن البطرك (جرمانوس) أوجد بعد فتح سليم لبلاد الشام بمدة قصيرة، تنظيماً مجحفاً بحق العرب الارثوذكس في المقاطعات الشامية ولم تتدخل الدولة العثمانية في ذاك الاجراء. فحتى يضمن هذا البطرك العناصر الرومية في الكنيسة الارثوذكسية منع السكان العرب في سورية من دخول الاديرة الرومية وبذلك منعهم بالطبع من الوصول إلى الرئاسات الدينية العليا، وقيدهم بمراتب الاكليروس الزمني فقط [1]. فالملة الارثوذكسية لذن اكتسبت بفتح سليم لسورية ومصر قوة جديدة عددية وروحية.

وكذلك فان الملة اليهودية قد زادت عدداً وقوة من جراء الفتح. فقد أضيف إلى الجماعات المقيمة سابقاً في الامبراطورية العثمانية المجموعة اليهودية القائمة في سورية ومصر والعراق. ويظهر أن الدولة العثمانية، كما أفسحت المجال لليهود في الهجرة من اسبانيا إلى أراضيها ورحبت بهم، فانها سمحت لليهود من المجر ومولدافيا بالهجرة إلى سورية [2]. هذا مع العلم أن الفرانسيسكان المقيمين في القدس قد طلبوا من البابا منع البنادقة من حمل اليهود المهاجرين إلى الارض المقدسة. وكانت صفد والقدس ودمشق هي مراكز الاستقرار لليهود الوافدين [3]. وقد عمل السلطان سليم بعد فتح مصر على ايجاد تنظيم جديد للملة اليهودية يخالف في أعماقه نظام الملة الذي أقامه محمد الثاني فقد كان يشرف على اليهود في سورية ومصر «ربي» يسمى «ناجد» أو «ريس» سلطته تشبه سلطة الحاخام باشي في القسطنطينية. ويظهر أن السلطان سليم خشي من تصادم سلطة هذا الريس مع سلطة الحاخام باشي فيما لو وحد الاشراف على

«١» Gibb & Bowen: Part II. P. 225 N. I

منذ القرن السادس عشر كان بطرك فلسطين الارثوذكسي يختار من «أخوة القبر المقدس» وهي أخوة مقصورة على الروم (اليونان).

«٢» Graetz, History of The Jews, vol IV, P, 293

«٣» Ibial: Vol IV . P. 427

الملة اليهودية ، فألغى العمل بحاخام موحد ، وقرر أن كل جماعة يهودية تحكم نفسها بنفسها ويشرف عليها حاخامها. ولكن مرة أخرى يسمع في عهد السلطان سليمان عن الحاخام باشي ممثلاً لجميع اليهود في الامبراطورية العثمانية . ويظهر أن السلطان سليم بتنظيمه السابق أطلق يد « الربي » في الحكم المحلي لجماعته ، وأتى السلطان سليمان فحدد حرية هذا الحكم المحلي ،[1] وأضاف جديداً في تنظيم هذه الملة بأن عين لها « كخيا » على نمط كخيا النقابات ليمثل مصالحها لدى الحكومة . وهو يهودي يحمل إلى السلطان والوزراء مطالب «رعيته» وتظلماتها من حكام المقاطعات أو المسيحيين المتعصبين .[2]

ولم يدخل في نطاق الحكم العثماني في عهد السلطان سليم الامبراطورية المملوكية فقط وانما معظم بلاد الارمن أيضاً . وقد وجد السلطان سليم كثيراً من أراضيها قد أقفرت من سكانها لهربهم إلى الجبال يطلبون مأوى فيها . فعمل سليم على اسكان الاكراد الذين ساعدوه ضد عدوه الشاه اسماعيل في تلك البقاع الشاغرة، وقسمها إلى سناجق ونظم أمورها ، وأبقى الارمن كملة تابعين للبطرك الغريغوري في استامبول . ويظهر من هذا أن شوكتهم قد ضعفت عن السابق ولاسيما أنهم وقعوا في نزاع مرير مع الاكراد المقيمين الى جوارهم وفي أراضيهم السابقة .

هذا فيما يخص الملل المعترف بها ، أما الكنائس الاخرى التي يعتبرها الارثوذكس مهرطقة ودخلت في الامبراطورية العثمانية بعد الاحتلال، فهي أولاً الكنيسة اليعقوبية [3] في سورية وهي كالكنيسة القبطية في مصر تدين بالعقائد المنوفستية . وقد اضطهدت هذه الكنيسة وأتباعها قبل الفتح العربي الاسلامي

«١» Ibid: Vol IV. pp. 421 - 422

«٢» Ibid: Vol IV. p. 425

«٣» سميت بذلك نسبة إلى « يعقوب البرادعي » أسقف اديسا الذي نظمها في مطلع القرن السادس .

لسورية. وقد كانت تشكل الكنيسة القومية ضد الكنيسة الرومية الارثوذكسية وقد ساعد أتباعها العرب المسلمين في عملية الفتح وكان لها بطرك مقيم في أنطاكية وازدهرت في العهد الاسلامي الاول حتى كان لها خمسة عشر أسقفاً موزعاً في مختلف الانحاء . وقد جربت الاتحاد مع الكنيسة الارمنية في القرن الثامن ولكنها عادت فانفصلت عنها . ولم تتمكن من الصمود طويلاً أمام اعتناق كثير من أتباعها الدين الاسلامي . وعندما أتت الحملات الصليبية الى سورية اضطهدت هذه الكنيسة فاضطر أتباعها للهجرة إلى مصر . وبذلك تناقص عدد اليعاقبة في سورية حتى أن عددهم قدر بعد الاحتلال العثماني بقليل بخمسين ألف أسرة فقط . [1]

وثاني الكنائس غير المعترف بها الكنيسة المارونية . وأتباعها يؤمنون بالمونوثيلية Monothelism أي أن للمسيح ارادة واحدة على خلاف ما يعتقد الارثوذكس من أن له طبيعتين مختلفتين ولكل طبيعة ارادة خاصة بها . وترجع هذه الكنيسة إلى زعيمها الاول « القديس مارون » الذي توفي حوالي عام ٤١٠ م ، ونقل تلاميذه رفاته إلى مكان قرب أفامية على العاصي ، وأقيم عليها دير احياء لذكراه . وقد التجأ اتباعه بعد مذبحة حدثت بينهم وبين اليعاقبة في هذا الدير إلى شمالي لبنان . وإذا كان مارون هذا هو قديس هذه الطائفة فإن « يوحنا مارون » كان بطل هذه الفئة ومنظم كنيستها ويمكن أن يكون هو الذي تلقت الطائفة منه اسمها . وتحت نفوذه أصبحت هذه الطائفة قوة تعاكس الخليفة المسلم [2] والامبراطور البيزنطي . وقد عزل الموارنة أنفسهم في المناطق الجبلية منذ مطلع القرن الثامن ، وغموا بذلك فرديتهم التي تميز عادة سكان المناطق الجبلية ، وأقاموا كرسياً لبطريركهم.

«١» Gibb & Bowen: Part II. p. 229

يقيم البطرك اليعقوبي حالياً في الجزيرة في دير الزعفران قرب ماردين كما هناك بطرك آخر في حمص .

«٢» Hitti: History of Syria. p. 521

في « بكركي » في لبنان .وقد تأثر الموارنة بالحملات الصليبية ، وجذبوا أنظار روما أثناءها حتى قيل أن بعض أساقفتهم أظهر الخضوع للبابا في القرن الثاني عشر . وقد اتحدت الكنيسة المارونية في عام ١٤٤٥ م بعد مجمع فلورنسة الذي انعقد في سنة ١٤١٩ مع الكنيسة الكاثوليكية . ولكن بطركها لم يستطع اقناع رعيته بهذا الاتحاد فظلوا لقرون ثلاثة منكمشين عن روما أي حتى القرن الثامن عشر (١٧٣٦م). وقد طالب كثير من مفكريهم بضرورة البقاء مستقلين عنها كالدويهي الذي توفي عام ١٧٠٤ م وابن نمرون المتوفي سنة ١٧١١ م .فالموارنة عند الاحتلال العثماني لسورية اذن كانوا يشكلون مجموعة تختلف عن مثيلاتها في الامبراطورية ما عدا واحدة فقط وهي مجموعة الكنيسة الأرمنية المتحدة في كيليكيا التي أعلنت انضمامها للبابا بعد مجمع فلورنسا كذلك : فهاتان الكنيستان ترتبطان بسلطة عليا خارجة عن حدود الامبراطورية العثمانية ونفوذها . الا أن موقف الكنيسة المارونية من البابا كان أقل وضوحاً مما هو عليه موقف الكنيسة الأرمنية المتحدة . اذ إن اتحاد الاولى كان اسماً فقط فقد ظلت في الواقع محتفظة بنظمها وتقاليدها ، ورجال دينها ولغتها . فاللغة المستخدمة في صلواتها هي السريانية ورجال الدين فيها يتزوجون على خلاف الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية [١]. وقد تركت الحكومة العثمانية لهذه الجماعة أوضاعها السابقة : يدير شؤونها العامة رئيسها الديني ويشرف عليها مقدموها الخاصون الذين كان من ضمن اعمالهم جمع الضرائب وتقديمها إلى الحكومة العثمانية وأشهر مقدميها المتميزين في تلك الفترة التاريخية مقدمو بشري والبترون وجبيل [٢].

والى جانب تلك الجماعات غير الجماعة المذكورة آنفاً هناك الكاثوليك اللاتين،

«١» Hitti: History of Syria. p. 521

«٢» Poliak: Feudalism ... p. 58

المقدم هو الملتزم لقرية من القرى . ويعطيه هذا اللقب أمير لبنان ، ويمكنه أن يرتقي الى رتبة أمير .

ولم يكن عددهم في سورية كبيراً لان معظمهم غادروها بعـــد انتهاء الحروب الصليبية ولم يبق الا الجاليات الاجنبية المشار اليها آنفاً . اما بعثة الفرانسيسكان التبشيرية فقد احتفظت بكيانها بعد الفتح العثماني حتى عام ١٥٧١ م حيث طردوا من ديرهم على جبل صهيون في القدس وانتقلوا الى حلب [١] .

فالسلاطين العثمانيون بعد محمد الفاتح لم يتابعوا سيرته في تنظيم غير المسلمين في ملل ، بل احتفظوا بالملل الثلاث السابقة وجعلوا بقية الجماعات تحت اشراف الارمن وبذلك اصبح الارمن كملة للمهرطقين من النساطرة واليعاقبة والكاثوليك. وكان لبطركهم رسمياً حق الاشراف المدني عليهم الا انهم عملياً كانوا يرجعون الى رؤسائهم مباشرة . ومما يميز الملل المعترف بها عن غيرها ان لهـــا حق التظلم لدى السلطان وبخاصة عندما تحاول كنائس اخرها بطرقها المختلفة جر اتباعها اليها .

اما اثر الاحتلال العثماني للبلاد العربية على علاقات العثمانيين والمسلمين بعامة بغير المسلمين فيبدو في روح التعصب الاسلامي الشديد الذي نما في نفوس السلاطين الجدد نتيجة زيادة عدد المسلمين السنـــة في امبراطوريتهم ومن ثم دعمهم السني القوي للسلاطين . وبذلك ضعفت روح التسامح التي كانوا يعاملون بهـــا غير المسلمين ، حتى أن السلطان سليم ــ اذا صحت الرواية ــ أمر بتحويل جميع الكنائس الى مساجد ، واجبار المسيحيين على اعتناق الديانة الاسلامية وقتل كل من يرفض منهم ذلك . ويقال ان الوزير راعه امر دموي كهذا وتشاور مع مفتي استامبول، فأوعز سراً الى البطرك اليوناني ليبرز للسلطان سليم تعهد محمد الثـــاني له بأنه لن يحول الكنائس الى مساجد ويترك للمسيحيين حرية دينهم [٢]. وهكذا كان .

«١» Gibb & Bowen: Part II . p. 231

«٢» Hammer: Tome IV. pp. 364 - 365

ولم يتأثر السلاطين فقط بالوضع الاجتماعي الجديد في الامبراطورية العثمانية، وانما المسلمون انفسهم الذين نظروا الى حصر المناصب العليا بأشخاص ذوي مولد غير مسلم امراً غير منطقي بخاصة وقد أصبحوا الآن أكثر عدداً وهم في واقعهم اعمق حضارة. وكانوا يعتقدون في قرارة نفوسهم أن المسيحين لابد وأن يكونوا حلفاء طبيعين للقوى الاوربية المسيحية التي كانت تتكتل آنذاك لتقف في وجه العالم الاسلامي وتعمل على افنائه. ولكن على الرغم من نظرة المسلمين والسلاطين العثمانين هذه فان هؤلاء لم يعاملوا معاملة سيئة على وجه العموم بل بقيت معاملتهم حسنة. وكان تسامح الاتراك مع المسيحين في الولايات العربية حيث كانوا أقلية أكثر من تسامحهم مع مسيحي البلقان الذين كانوا في بلادهم أغلبية دائمة التآمر مع النمسا.[1]

ومهما ساءت معاملتهم -كما يعتقد بعض المؤرخين[2] - فانها لم تصل إلى حد التعدي على أملاكهم وحريتهم وكنائسهم كما حدث مثلاً في عهد الفاطميين وفي فترات من تاريخ المماليك بل نجد أنهم كانوا يتمتعون بحرية العمل أكان في الزراعة أو الصناعة أو التجارة. وقد لوحظت مساواتهم لزملائهم المسلمين في جميع النقابات ومعاملة اخوانهم المسلمين لهم بود وعطف. كما أشير إلى تفوقهم عليهم في ميدان التجارة الخارجية. ولكن هذا لا يمنع من القول بأنهم كانوا غير مساوين لهم في الضرائب. فالضرائب الشخصية على الفلاح المسيحي هي أكثر مما هو مفروض على الفلاح المسلم وكذلك الامر فيما يخص بعض الضرائب الاخرى.

أما ضريبة الجزية فهي التي كانت تؤخذ منهم منذ الفتح العربي الاسلامي. وقد جرى العثمانيون في فرضها على النمط الذي سارت عليه الدولة الاسلامية في جميع

«١» كيرك: موجز تاريخ الشرق الاوسط. ترجمة عمر الاسكندري ومراجعة الدكتور سليم حسن. ص ٨٩.

«٢» ومعظمهم من أمثال ميخائيل مشاقة صاحب مشهد الاعيان بحوادث سورية ولبنان، والمطران يوسف دريان في كتابه (نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية).

عهودها . أي أعفت منها النساء والعجزة والأطفال ورجال الدين، وقسمت الرعايا إلى أغنياء ومتوسطين وفقراء ، وجعلت الكمية تختلف بحسب حالة الفرد . وفي الحقيقة لم يكن يدفع ضريبة الجزية في مطلع العهد العثماني سوى ثلث السكان المسيحيين تقريباً لكون الكثيرين معفيين منها . ويلاحظ أن الكمية المفروضة لم تكن لتختلف من فرد إلى آخر فحسب وانما من مقاطعة إلى أخرى . [1] ولم تتوحد ضريبة الجزية في أنحاء الامبراطورية إلا في القرن السابع عشر[2] بينما كانت موحدة في سورية ومصر من زمن المماليك . فقد كان مفروضاً على كل بيت غير مسلم قطعة ذهبية ، مع أجزاء صغيرة كرسم للجباية . ولابد أن يكون الحال قد بقي على ما هو عليه في سورية ، و كان يؤخذ ثمانون أقجة من المسيحيين واليهود على السواء . [3] وكما خضعت جميع الضرائب لنظام الالتزام فإن ضريبة الجزية التزمت أيضاً و كان هذا منذ عهد السلطان سليمان .

ان تدعيم العثمانيين لانقسام المجتمع على أساس الدين ، وتنظيمه تنظيماً ملياً جعل الجماعات الدينية القائمة تتحرك في نطاق هذا المجتمع و كأنها مجموعات سياسية متمايزة حتى أن أكثر من زار الامبراطورية العثمانية أطلق على تلك الجماعات اسم « الامم » . ويبدو أن الحياة المستقلة التي تركت لهـا ، والحرية التي عاشت فيها أخرجتها من كونها طوائف عقائدية فقط ، فتحولت الى منظمات اجتماعية تتنافس

«١» Gibb & Bowen. op. Cit . part II. p. 254

«٢» ان الذي وحدها هو الوزير مصطفى باشا الكوبرلو . فقرر أن تدفع الطبقات الثلاث كما يلي : «٤» أشرفي من الأغنياء، «٢» أشرفي من متوسطي الحال، و «١» أشرفي من الفقراء .

«٣» Mantran & Sauvaget: p. 32

لقد عينت الجزية في السابق (أي قبل عهد سليم الثاني) بثمانين أقجة، ولكن بمجرد وصول السلطان سليم الثاني الى العرش زاد الجزية على المسيحي خمس أقجات وعلى اليهودي عشر أقجات .

فيما بينها من أجل امتلاك الارض التي تود التثبت عليها والتشبث بها. وهكذا نما بين تلك الجماعات مركب الاقلية الذي يجعل هذه الطائفة أو تلك تفسر أية حركة أو اشارة من الطائفة الاخرى بالعداوة والتحدي ، ويدع كل طائفة متضامنة متضافرة فيما بينها . وقد أثر هـــذا الوضع على حالة الريف في سورية بخاصة ، اذ ولد عدم استقرار في نفوس الفلاحين وفكك مفهوم الوحدة الاجتماعية المستندة إلى وحدة الارض. وزاد الامر خطورة عجز الدولة العثمانية عن السيطرة على الحال في المناطق الجبلية بخاصة ، وعن توطيد الامن . فأخذت كل طائفة تدافع عن وجودها ضد الطائفة الاخرى لا بالتكتل فحسب وانما بالتسلح وشن الغزوات[١] . ويتضح هذا الامر في لبنان حيث كان النزاع قائماً بين الموارنة والطوائف المسيحية الاخرى وبين الموارنة والدروز[٢] .

الاسرة الشامية

ولكن على الرغم من الانقسام الطائفي والوحدات الاجتماعية المشار اليها آنفاً فان المجتمع السوري كان مجتمعاً موحداً . والعـــامل الرئيسي في بث روح الوحدة بين أطرافه وحدة الخليـــة الاولى التي تركب وجوده وهي الاسرة . فالاسرة السورية في تركيبها العام وحياتها وعاداتها الشتى وروابط أفرادها لاتختلف مع اختلاف الطبقات والطوائف فهي ذاتها حتى عنـــد اهل الذمة واذا وجدت اختلافات ما فهي فروق سطحية تمس مظاهر الحياة لا أعماق البناء .

والأسرة السورية في الوقت الحاضر لم تتطور في خطوطها الكبرى كثيراً عما كانت عليه لأنها كغيرها من المؤسسات الاجتماعية المكينة تتطور تطوراً بطيئاً.

«١» Hitti: History of Syria. P. 679

«٢» Weulersse. Les paysans de Syrie et du Proche Orient. pp. 68 - 70

وفي الواقع ليس لدينا معلومات وافية عن الأسرة الشامية في منتصف القرن العاشر للهجرة . ولكن استناداً إلى ما ذكر يمكن القول أن الأسرة الشامية بتركيبها وكثير من أحوالها في الوقت الحاضر وفي القرى والبيئات المحافظة بالذات هي نفس ما كانت عليه الاسرة في تلك الحقبة من الزمن . ولا أدل على ذلك من ان أحد مظاهر حياتها — والمظاهر عادة تتبدل بسرعة أكبر من الأسس — كالأفراح مثلاً بقي بصورته التي أعطيت له في مطلع القرن العاشر للهجرة ، حتى ساعتنا هذه في كثير من القرى والأحياء القديمة المحافظة في دمشق . وعلى هذا يمكن اعطاء صورة قريبة من الحقيقة عن الأسرة الشامية في ذاك الزمن بالاعتماد على الدراسات التي أجريت على الأسرة حديثاً والمشاهدات المباشرة وما ورد في كتب القرن العاشر مبعثرا .

وكلمة (أسرة) في بلاد الشام يعبر عنها بألفاظ عدة تختلف من ساكن المدينة الى ساكن القرية الى البدوي في الصحراء . فعند المدنيين تشير كلمة « عيلة » وهي الكلمة الدارجة وتحريف لكلمة عائلة — الى جميع الأفراد الرجال منهم والنساء الذين يحملون نفس اسم الأسرة ويرتبطون ببعضهم بعضا برابطة الدم عن طريق التسلسل البنوي (أي عن طريق الأفراد الذكور) . كما تعني كلمة «عيلة» بنفس الوقت « الاسرة الزوجية » أي المؤلفة من الرجل والمرأة والاولاد . ويتسع المعنى أحيانا فيطلق على جميع الافراد الذين يعيلهم الرجل فيقولون « صاحب عيلة » و « ابو عيلة » اذا كان عدد من يعيلهم كبيرا بخاصة .

وكما يطلق على الاسرة لفظ « عيلة » فانه يطلق عليها كذلك اسم « بيت » عند سكان المدن وسكان القرى . ويقصدون بذلك نفس المعنى الاول أي جميع الأفراد الذين يحملون اسم الأسرة من قديم وجديد ، أي بعمقه التاريخي وتسلسله البعيد . فيقال مثلا بيت حمزة أي أسرة حمزة . ويستخدم الفلاحون البعيدون عن المدن

والبدو المستقرون كلمة « حمولة » للدلالة على الأسرة الكبيرة أي جميع الأعضاء رجالا أو نساء الذين يرتبطون مع بعضهم برابطة الدم البنوي والذين يدعون النسب الى جد واحـــد ، كحمولة الحريري مثلاً في حوران . ويسمى الفرع من الحمولة « فندة » في حوران ولدى البدو، ويضم مجموعة الافراد من جيل واحد أو من عدة أجيال الذين يرجعون الى عضو معين من الحمولة ويحملون كلهم اسم هذا العضو. ويتفرع من الفندة فندة أخرى وهكذا . ويضاف الى اسماء الاسرة الواردة سابقاً كلمة « أهل » وهي تعني مجموعة من الاب واولاده وأحفاده العزاب والمتزوجين الذين يعيشون عادة في نفس المنزل [١] . اما الابن الذي يعيش تحت سقف أبيه مع زوجته واولاده فيسمى مجموعهم بالعيال [٢] . وكانت تستخدم هذه الكلمة على نطاق واسع في القرن العاشر لورودها بكثرة في كتب مؤلفي ذاك العصر .

أما العشيرة فتضم عند البدو مجموعة أسرية أوسع من كل ما ذكر ، أي تحيط بجميع من توالد في نطاق التسلسل البنوي حتى الجيل العاشر أو بمعنى آخر تضم الاجيال المتولدة من خمسة أحفاد . وتضم العشيرة عدة حمايل أو حمولات وتعترف كلها بسلطة شيخ واحد . أما القبيلة فتضم عدة عشائر تعترف هي الاخرى بنفوذ شيخ واحد وتحمل اسم الجد الاول . [٣]

وفي جميع العائلات الشامية ساكنة المدن والقرى والبدو فان تسلسل النسب يكون عن طريق الافراد الذكور في الاسرة أي ان الطفل يدخل عند مولده في مجموعة أبيه لا في مجموعة امه او انه ملك لاسرة الاب حتى ولو ترعرع في

«١» Daghestani. K:La Famille Musulmane Contemporaine en Syrie . pp. 147 - 153

«٢» الغزي . الكواكب السائرة . ج ٢ ص ١٩٢

«٣» Daghestani. ob. cit. p. 161

كنف أسرة أمه . فالابن هو الوحيد الذي يسلسل الاسرة ويحفظ اسمها ولا ينقل اسم الاسرة الا عن طريقه . ولذا يلاحظ حرص الاسرة السورية على انجاب البنين للحفاظ على اسم الاسرة وحمايتها من الاندثار [1] ويأتي اسم الاسرة دائماً بعد اسم الفرد ويبتدىء عادة بأل التعريف وينتهي في معظم الاحوال بياء النسبة . ويلاحظ أن الاسر في بلاد الشام تنسب اما الى مكان (مدينة أو قرية) كآل الحموي، وآل الغزي وآل الحمصي ، أو الى طريقة صوفية كأسرة الكيلاني والرفاعي والجباوي او الى مهنة من المهن كآل البيطار وآل الصواف او الى صفة من الصفات كآل الطيب . وقد لعب اسم الاسرة الموحد هذا دوراً كبيراً في زيادة الروابط الخلقية والمعنوية والروحية بين مجموع الافراد فيها . كما انه ساعد على تكوين عادات خاصة وتقاليد معينة تتبناها الاسرة ويعمل جميع افرادها على المحافظة عليها . وهذا عكس ما كان عليه الامر عند التركمان في سوريا نفسها فهم يسمون بأسمائهم الخاصة مع اسماء ابيهم فقط ، وبذلك يعدمون الصلة الجذرية التاريخية في بناء الاسرة [2]

وللأسرة روابط دموية عن طريق الاب وعن طريق الام ، والرابطتان في بلاد الشام حتى الوقت الحاضر متداخلتان للتزاوج القائم بين الاهل . فالزواج في نطاق الاسرة هو المحبذ وبخاصة في الحقبة الماضية . فجميع الافراد اذن هم ابناء عم للآخرين ، والفتاة مثلاً في الاسرة ليست « عرضا » (شرفا) لابيها واخيها فقط وانما لجميع افراد اسرتها من خؤولة وعمومة وعليهم حمايتها والحفاظ عليها .

ويلاحظ ان الاسرة كانت تسكن بجميع افرادها في الماضي في منزل واحد ومنه نجمت تسميتها بالبيت . وقد كان يصل العدد احيانا الى الخمسين او ما

«١» Daghestani : op. cit. p. 164

«٢» Ibid : p. 169

ينوف . وكل ابن من الابناء كان يقيم مع زوجه واولاده في غرفة او غرفتين على الاكثر ، كما ان كبير الاسرة يقيم هو الآخر مع زوجه في غرفة او اكثر ، اما بقية الاولاد غير المتزوجين فقد كانوا يقيمون في غرفة واحدة ، واحـــدة للبنين واخرى للبنات وتضم الاسرة احيانا الجد والجدة والاخوات البنات والعمات.

ولم تكن الفكرة الانفصاليـة او الفردية قد ظهرت في المجتمع الشامي بعد . فقد كان جميـع الافراد يأكلون مع بعضهم بعضا ، ويجهز الطعام في مطبخ واحد من قبـل نساء المنزل . وكانت كبيرة الاسرة (الجدة او الام او العمة) هي التي تدير ذاك المنزل فتوزع العمل على نسائه بحيث يخص كل زوجـة ابن او اخت عمـل يوم او اسبوع بشكل دوري ، او عملا معينا بشكل دائم كالطبـخ والمسح والكنس . هـذا الى جانب اختصاص كل اسرة صغيرة في نطاق الاسرة الكبيرة بتنظيف جناحهـا الخاص . ويساعد نساء الاسرة في اعمال تدبير المـنزل احيانا الاماءولو انهن لم يكن متوافرات الا لدى البيوتات الغنية او الارستقراطية. وينفق على هـذه الاسرة في العادة كبير الاسرة ، وبخاصة اذا كان اولاده هم الذين يعملون له في الحقل او المتجر. فهم يقدمون عملهم ونتاجهم اليه وهو يقوم بالانفاق ، ويخصص لكل واحد منهم « خرجية جيب » اي بعض المال لمصروفه الخـاص . وقد كان الاب يتمتع باحـترام كبير من جميـع افراد الاسرة ، وكان له هيبته الخاصة وسلطته . وكان جميـع الابناء حريصين على رضاه اذ ان اكبر خطب يمكن ان يصيب الابن هو غضب الوالد عليه . وتمـاثل سلطة الاب سلطة الام ، فعـلى جميـع الابناء المتزوجين وغير المتزوجين تقديم فروض الطاعة والولاء لامهم بتقبيل يدها كل صباح ، واطاعة اوامرها ونواهيها واخضاع زوجاتهم لها . فهي صاحبـة الكلمة المسموعة في البيت اذا لم يكن لهـا حماة فيه وهي الـتي تأمر وتدبر وتنظم وتحل الخصومات بين زوجات اولادها. ولا ادل على تلك السلطة من بعض المظاهر

المؤيدة التي تبدو في مطلع القرن العاشر الهجري ، عندما كانت لا تسمح لابنها وزوجه أن يتخطيا عتبه الزوجية إلا بعد المرور من تحت ساقيها[1] . وان سلطتها هذه مع سلطة الأب كانت تضمن للأسرة التماسك والبقاء ، ولا ينازعها منازع في سيطرتها على الأسرة إلا الحماة أو ابنة الحماة اذا كانت أكبر منها سناً . وفي هذه الحالة تحدث المنازعات والمشادات مضافة إلى هنهنات زوجات الأبناء الآخرين.

واذا كان من العسير أن يضم البيت جميع أفراد الأسرة المترابطين دموياً فانهم في الواقع كانوا يسكنون حياً واحداً في بيوتات متقاربة . وكانت الرابطة العائلية الموحدة لا تقوم فقط وأفراد الأسرة أحياء وانما الالتصاق الأسري كان يتسلسل إلى ما بعد الموت فكل العائلات المتوسطة والكبرى وحتى الصغرى أحياناً لها مدافنها وتربتها الخاصة أو قبورها المتجاورة .

وعندما يتوفى كبير الأسرة فان الابن الأكبر هو الذي يرث مكانته . ويمكن في هذه الحالة للأسرة أن يتفرق أفرادها كل في بيت خاص، ويمكن أن يعيش الأخوة مع بعضهم بعضاً بخاصة إذا كانت الأم لاتزال على قيد الحياة .

أما العمل الاقتصادي ففي معظم الأحوال مشترك، ويعمل الجميع حسبما يعينه الأب أو الأخ الكبير ثم يقدم ناتج العمل لرب الأسرة . وقد كان جميع الأخوة يعملون معاً في معظم الأحوال متعاونين متضامنين متحابين حتى أن الاعتقاد كان سائداً لدى السوريين أن الحياة الأسرية المشتركة هي مصدر بركة ورخاء . بل أنه في بعض القرى أبقي ملك الأسرة مشاعاً حتى لا يتمكن الأفراد من التصرف به وبيعه ، والتفرق شذراً مذراً في كل مكان وادخال الغريب بينهم . وحتى يحفظ الأب للأسرة ملكها ويمنع تصرف الأبناء تصرفاً سيئاً بذاك الملك فانه كان يلجأ أيضاً إلى الوقف الأهلي أو الذري . فهو يوقف أمواله على أهله ويعينهم با « لحجة » أو الوصية ، وعند

«١» الشيخ علوان : نسمات الاسحار في كرامات الاولياء الاخيار . مخطوطة في دار الكتب الظاهرية ـ دمشق (رقم ١٤١٥ تصوف) ص ٢٦٨ - ٢٧٩ .

انقطاع تسلسل الأسرة فان تلك الأملاك توقف لهدف خيري . وبالطبع فإن الوقف لا يباع ولا يرهن ولا يقسم . وفي حماة بالذات كانوا يتخذون الوقف حجة لحرمان الفتاة من أملاك أبيها حتى لا يتوزع الملك بين رجال أغراب عن الأسرة هم أزواج البنات ، وتفقد الأسرة جزءاً من ممتلكاتها [٢].

وقد كان لبعض الأسر في ذلك القرن تأثير كبير في المجتمع تستمده من عدد أفرادها أو غناها أو رابطتها النسبية بالرسول أو بولي من الأولياء . وقد كان الحكام يحسبون حساباً لتلك العائلات ونفوذها .

والأسرة ترتكز في بنائها وتكوينها على مؤسسة الزواج . والزواج بالنسبة للسوريين – مهما كان دينهم – من الأعمال المسرة جداً في الحياة أي أن حياة الأسرة عزيزة عليهم ، ومن تمنياتهم لكل شاب « ان شاء الله نفرح بك » . ومن النادر أن يبقى رجل دون زواج بعد العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره ولا سيما أنه كان ينخرط في سلك العمل في سن مبكرة ربما تكون الخامسة عشرة . ولم تكن تقلقه تكاليف الحياة عند الزواج لأن الأب والام كانا يتكفلان النواحي المادية في زواجه : فقد كان يقيم معها في بيت الاسرة الكبير ويعمل الاب من طرفه على الانفاق على الاسرة الجديدة . ومن ثم فمنذ أن يبلغ الفتى السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمره فان الاسرة كانت تبحث له عن زوجة . وفي معظم الاحوال يتزوج الفتى فتاة من فتيات الاسرة أ كانت من بنات عمومته وهن يفضلن عادة ، أو من بنات خؤولته . فالقرابة والاخلاق الطيبة والدين الصحيح كانت تأتي عند البحث عن زوجة ، في المرتبة الاولى من الشروط المتوجب توافرها في الزوجة ، أي قبل الجمال والمال . ومن أمثال الشعب في ذاك الزمن « خذ الاصل ونم على الحصر » . أي لا يهم الفقر .

Daghestani : La Famille ... PP. 190 - 195 «١»

ويتراوح سن الفتاة المرشحة للزواج بين التاسعة والثامنة عشرة أي كثيراً ما كانوا يزوجون الفتاة قبل سن البلوغ .

ولكن يبدو أن الرجل أخذ يبحث في مطلع القرن العاشر الهجري والبلاد بعامة تمر بفترة عصيبة اقتصادياً عن الفتاة الغنية الجميلة أي غدا يسأل « عن جمالها وجهازها ، وهل معها قماش كثير وجهاز ثقيل »[1] .

وقد كان زواج الفتاة بيد أهلها ، وصحيح كان لها الحق شرعاً في أن ترفض الزواج من فرد معين انما لا يحق لها بالمقابل عرفاً أن تطلب الزواج من آخر. فالتعارف بين الفتاة والفتى قبل الزواج كان غير جائز ، ويدل على سلوك شائن من قبل الفتاة ويعتبر عاراً على الاسرة ولو انتهى إلى زواج .

وفي الحقيقة كان لا يمكن أن تزوج فتاة في أسرة إلى أي فرد آخر من أفراد الاسرة أو خارجها اذا كان ابن عمها يريدها ، حتى يقال في المثل الشامي « يخطفها من الجلوة »[2]. ويعيب الفتاة من أسرة معينة أن تتزوج من فرد لا يتكافأ مستواه الاجتماعي مع أسرتها حتى أنه يقال « اترك العسل في أكواره حتى تأتي أسعاره » ، بينما هذا الامر لا يعيب الفتى أو أسرته .

والرجل عند المسلمين هو الذي يقدم المهر لعروسه أو لوالديها ويسمى (النقد) أو (الصداق) على عكس ما عليه الامر عند المسيحيين . وهو قسمان المعجل ، والمؤجل : والمعجل هو مايقدمه مباشرة يوم عقد القران أو قبله ، والمؤجل ما يكتبه على نفسه ويكون حقاً للزوجة يمكنها أن تطالبه به في كل وقت ، ويكون لها ارثاً بعد وفاته إذا لم تنله في حياته . وتختلف بالطبع كمية المهر بحسب المكان والظروف الاقتصادية والرتبة الاجتماعية للأسرتين ومدى قرابة الطرفين لبعضهما

«١» الشيخ علوان : المصدر السابق. ص ٢٦٨ .

«٢» Chatila : Le Mariage Chez Les Musulmans en Syrie P . 56,P . 94

بعضاً ، ويكون ما لا نقدياً أو مواشي أو أرضاً أو حبوباً . ومهر الفتاة العذراء أكبر من مهر المرأة الارملة او المطلقة ويسمى مهر الاخيرة « نقيصة » ويعادل عادة نصف المهر العادي في حال العذراء (١) .

ويوجد في سورية زواج يدعى بزواج(البديلة)وهو دارج في القرى بخاصة : ويعني زواج الفتى من فتاة مقابل زواج أخته من أخ فتاته ، أي يجري تبادل في الأخوات ، وفي هذه الحالة لا يدفع الطرفان مهراً .

ويتم اختيار الزوجة من قبل أم الفتى وأخواته ، ويرسل الفتى أو والده جماعةمن الفقهاء أو أغنياء الحي للتوسط له في الزواج من الفتاة المختارة . ويحاول أن يظهر أمام أسرتها بالغنى وأن لقمته « طيبة » وأنه غير بخيل فيمرر لحماًوطعاماً على رأس حمال ليقال هذا عشاء فلان . (٢) واذا تم الوفاق بين الطرفين وفصل المهر تقرأ الفاتحة من قبل جميع من دخل المفاوضة ايذاناً باتمام العمل ، ثم يجري عقد النكاح . وبعض الأفراد يجرون عقد النكاح لدى القاضي مباشرة ، ويلاحظ أن العثمانيين فرضوا رسوماً على تلك العقود (٣) . وبعض الأسر الأخرى تقيم احتفالاً تدعو إليه القاضي والأقرباء والأصدقاء ويكون ذلك في بيت العروس حيث يقرؤون المولد النبوي ويجرون المراسم الضرورية من أخذ موافقة الفتى والفتاة ويوزعون الحلويات والسكاكر . وقد تفننت بعض الأسر في كتابة العقد فرفضت كتابته على الورق وانما على قطعة من الحرير طولها ذراع أو أكثر (٤) .

وكانت تترك مهلة بين عقد القران وليلة الدخول ليتم فيها تجهيز الفتاة .

«١» Daghestani : La Famille . p . 23

«٢» الشيخ علوان : ينظر المصدر السابق ص٢٦٨ - ٢٧٩ .

«٣» ابن طولون : تاريخ . الغزي — نهر الذهب في تاريخ حلب ج ٣ — ص ٢٥٣ .

«٤» الشيخ علوان ، ينظر المصدر السابق ص ٢٦٨-٢٧٩ .

لأن ما أخذ من مهر يعمل به على تأثيث منزل الزوجية ، وكان عادة وفي المتوسط غرفة واحدة وأحياناً غرفتين في بيت الأسرة الكبير، كما تشتري الفتاة ألبسة لها. وكان الجهاز يضم مراتب ولحفاً ومخدات وصندوقاً خشبياً وسجادة أو بسطاً، وفي القرى أدوات المطبخ النحاسية، وستائر وارتفاعات خشبية مزخرفة تستر بمراتب والمراتب بدورها تستر بأغطية حريرية أو قطنية . ولم تكن الأسرة مستخدمة وانما كان في غرفة كل منزل ما يسمى « ليوكا » وهو فجوة في الجدار بعمق ذراع تقريباً ويمتد على طول الحائط وتضع فيه المرأة مراتبها ولحفها . وهي تفرشها ليلاً وتطويها نهاراً بحيث تبدو الغرفة دائماً بشكل مرتب ونظيف . وتحمل المرأة في جهازها كذلك بعض « الزبادي » (السلطانيات) من الصيني الثمين لتضعها في فجوات الجدار الأخرى المسماة بـ « الكتابي » . وتحمل العروس معها ألبسة معينة هدايا لزوجها ووالد زوجها وأخوته المتزوجين إذا كانوا مقيمين معه في نفس المنزل .

وقبل ليلة العرس بأيام يحمل جهاز العروس الى بيت الزوج . «ويذهب أهل محلة الزوج صغيرهم وكبيرهم ويصحبون معهم البغال لنقل الجهاز . ويمتنع عليهم أهل محلة العروس ويطلبون منهم رؤوساً عديدة من الغنم ، فإذا أحضروها هيأ لهم أهل محلة الزوجة المآكل. وبعد انتهاء الوليمة يحمل الأثاث والمتاع وينتشر النساء والرجال في الطرقات رافعين الأصوات بالزغاليط »[1] .

ويكون أهل العروس من النساء في هذه الفترة قد دعون إلى حمام العرس جميع من يرغبن من النساء ، وتحضر العروس هذا الحمام . وتأتي كل امرأة بأجمل ما عندها من الملابس إلى الحمام العام الذي تستأجره الأسرة في ذاك اليوم. وإذا كانت الأسرة من الأسر الكبيرة الغنية فان عدد مدعواتها يكون كبيراً ومن ثم فإن يوم الحمام يدوم أياماً تمتد حتى السبعة .

«١» الشيخ علوان : المصدر السابق .ص٢٧٢.

الزغاليط: الزغاريد بالفصحى . وعامة دمشق يقولون (الزلاغيط) .

وتزين العروس وتجلى في القسم « البراني » (الخارجي) من الحمام العام. وتتنافس النساء في ألبسة الحمام ، وتسمى عادة « فوطة » وهي من قماش حريري مقصب ومذهب . ويوزع علين الصابون ، وتخصص « مقاصير الحمام » (حجراته) كل واحدة منها لجماعة متعارفة .

وفي الحمام تمد أسمطة الطعام وتنطلق الزغاريد . وبعد الانتهاء من ذلك تلبس كل امرأة أجمل ما عندها ، ويتوجه الجميع إلى بيت العروس حيث يحيون ليلة طرب بينما تعمل الماشطة على « نقش الوشم على يدي العروس وأرجلها » [١].

وفي الليلة الثانية وهي ليلة الدخول يدعو أهل الزوج أصدقاء هم من غني ووجيه وأكابر العلماء وأعيان الناس،ويولمون لهم وليمة فخمة . وبعد الانتهاء من الطعام يكلف الزوج أحد أصحابه للمناداة بالشاباش [٢] . ويتقدم المدعوون « لنقوط » العريس أي لتقديم المال له كهدية . فإذا أعطى أحدهم (نقوطه) إلى المنادي نادى « شاباش يا فلان » والنساء من الداخل يستمعن إلى قول المنادي ويرفعن أصواتهن بالزغاليط إذا كان المنادى باسمه من وجوه القوم . . . أو دفع كمية كبيرة . وبالطبع تقع المفاخرة بين الأقران ويرغب كل واحد أن يدفع أكثر من الآخر ليظهر أكثر غنى . وينادى المنادي كذلك « أخلف الله عليك يا فلان » [٣] .

وكما حدث عند النساء فان الرجال يأخذون الزوج ويتوجهون به الى الحمام مصطحبين معهم أخوانه الذين يشرفون على الباسه ملابسه ، فكلما لبس قطعة منها هللوا « صلوا على محمد » ويضيفون كلمات لا يفقه لها معنى مثل « نير وغدير »

«١» الشيخ علوان ، المصدر السابق.ص٢٧٣ .

«٢» كلمة فارسية للتعجب أو الثناء مثل مرحى بالعربية .

«٣» الشيخ علوان : المصدر السابق . ص ٢٧٤ .

و « ولشور »[1] وتسمى صرخات الفرح هذه بالشوباش أيضاً . ويخرج الجميع من الحمام « بعراضة » أي جماعة ضاجة ، وتهليلات وتكبيرات وشوباش ، ويلعبون بالسيف والترس .

وتكون نساء المحلة قد اجتمعن في دار وفي معظم الأحوال دار أسرة الزوج، «في الثياب والزينة والخضاب والتحلي بالذهب، وبين أيديهن الشموع موقدة والوجوه بادية والزينة ظاهرة لاحجاب ولا جلباب »[2] . وتكون العروس قد أحضرت من قبل بعض أفراد أسرة العريس إلى منزل الزوجية، وعادة تقوم بعملية الاحضار هذه خالة العريس وعمته . أما والدته فحفظاً لمقامها ومركزها تبقى في البيت وتستقبلها حين وصولها .

«ويدخل الزوج للجلا فتتلقاه النساء بالشموع والزغودة وهن سافرات عن وجوههن وتأخذ بيده اثنتان من أقاربه واحدة عن يمينه وأخرى عن شماله ويدخل معه أبوه وأخوه أحياناً ، ويجلس على مكان رفيع مخصص له ، وتتقدم كل امرأة مدعوة من أهل العريس إليه وتلصق الدراهم بين عينيه . »

« وبعدبرهة تخرج العروس هي وماشطتها وقد زججت حواجبها وحمرت وجهها وخضبت أصابعها ووضعت على رأسها الشربوس[3] وعند وصولها الى الزوج فانه يقوم لها ويكشف عن وجهها ما يسمى (الجلاية) ، وتدور أمامه،وكلما دارت دورة لصق الزوج ومن معه من أبيه وأخوته الدراهم في جبهتها وعلى خديها. وعند

«١» يحاول بعض السوريين أن يعطي لهذه الكلمات معاني بتقريبها من كلمات عربية فصحى أو دارجة . فمعنى نير وغدير (نير . تحمل) أي أن الزواج نير فتحمله . أما ولشور فاختصار لكلمات (بيض الله وجهه أي وجه العريس أو وجه والده) .

«٢» الشيخ علوان: المصدر السابق . ص ٢٧٤ .

«٣» من الفارسية (سربوش) لباس تضعه النساء على الرأس وهو يشبه التاج ، وكان قديماً لباس الأمير .

دخول الزوج غرفته الخاصة مع عروسه فـان أم الزوج تجبر الطرفين على الانحناء والمرور من تحت رجليهـا . وبالطبـع تتبارى الأسر في احياء هـذه الليلة من طعام مقدم ورقص وغناء[1] .

ويلاحظ أن تعدد الزوجات كان قائمـاً في الأرياف أكثر منه في المدن لحاجة الزوج الى الذرية من الأولاد الذكور بخاصة ، ولتساعده نساؤه في أعمـال الحقل . وقد درج على لسان العامة أن الرجل يكتفي بزوجة واحدة طالما هو فقير الحال أو متوسطه ولكن « عندما يشم رائحة أنفه » أي عندما يغتني فـانه يبحث عن زوجة أخرى . وفي هذه الحال يلاحظ أن الزواج مع فارق السن الكبير بين المرأة والرجل قائم : اذ أنه يتزوج فتاة صغيرة رغم أنه يكون قد تجاوز الخمسين من عمره ، كما تلاحظ نفس الحال في الأرمل من الرجال أو المطلق . ونسـاء الزوج يقمن في معظم الأحيان في بيت واحد معه كل في غرفة خاصة بها، ويتنادين بلقب (أختي) ، وبالطبـع فان المشادات لا تنتهي بينهن .

والمرأة في بلاد الشام تقوم بجميـع أعمال المنزل مهما ارتفع مستوى الأسرة الاجتماعي فهي تشغل وقتها بترتيب المنزل والطبـخ والخياطة والتطريز . أما اعتمادها على الاماء فقليل جداً بالنسبة لبلدان عربية أخرى كالحجاز والعراق، مع العلم أن مدينة حلب كانت سوقاً من أسواق الرقيق .

ولم تكن هناك دور علم مخصصة للفتيات أو النساء بعامة. وانما هناك بعض الكتاتيب الصغيرة يتعلمن فيها من سن السابعة الى التاسعة أحياناً القرآن الكريم ، كما أن الفتيات من الأسر المتعلمة تأخـذن الحديث والفقه عـن أبيهن وأخوتهن . وقد تميزت بعض الشخصيات العلمية منهن في هـذه الحقبة يعددها (الغزي) في كتابه أشهرها (خديجة الصالحية) وكانت حنبلية وكان للناس اعتقاد بحديثها وبخاصة الاروام

«١» الشيخ علوان: المصدر السابق . ص ٢٧٥ — ٢٧٩ .

منهم ، وقد قدرها والي دمشق أياس باشا حتى أنه أغدق عليها من المال الكثير[1] . وكذلك (خديجة بنت محمد العامري الحنفي) وكانت صالحة فاضلة فقيهة أخذت عن علماء عصرها وتوفيت عام ٩٣٥ هـ[2]. ومن الاسماء اللامعة كذلك (فاطمة بنت قرنزان) الشيخة الفاضلة الحلبية شيخة الخانقتين العادلية والدجاجية معاً[3] . كان لها خط جيد ونسخت كتباً كثيرة، وكان لها عبارة فصيحة وتعفف وتقشف وملازمة للصلاة وقد توفيت عام ٩٦٦ هـ[4] . كما نبغت في هذه الحقبة الشاعرة الفضلى (عائشة الباعونية)[5] .

والفتاة تضع الحجاب على رأسها ووجهها منذ التاسعة من عمرها ان لم يكن قبلاً ، ويصبح خروجها من المنزل في تلك السن مكروهاً . ولكن لا بأس من العمل كمتمرنة على الخياطة في منزل الجارة اذا كانت هـذه الاخيرة تعمل بهذه المهنة . وكانت الفتاة تعيش في بيت أبويها تنتظر الزوج المرتقب ، وإذا تجاوزت العشرين ولم تتزوج تعتبر أن الركب قد فاتها وينظر اليها نظرة شفقة لانها لم تجد زوجاً ملائماً يتقدم إليها . وإذا لم تتزوج فإنها تساعد الام في أعمال المنزل ، وتنصرف الى الخياطة والتطريز .

وإذا كانت المرأة في المدن في تلك الحقبة من الزمن تقوم بأعمال المنزل فقط فإنها في الريف كانت تساعد رجلها في العمل الخارجي ، ولا تضع الحجاب الا على رأسها . فهي إلى جانبه في الحقل وتطحن له القمح وتنقل الماء من النبع إلى البيت وتجمع الحطب وتساعده في الحصاد ، وتغزل الصوف والقطن .

«١» الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ١٤٠ .
«٢» الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ١٤٠ .
«٣» خانقتان في مدينة حلب .
«٤» الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ٢٣٨ .
«٥» الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ٢٨٧ – ٢٩٢ .
لقد اجيزت في الافتاء والتدريس وألفت عدة كتب وتوفيت عام ٩٢٢هـ.

وقد كانت المرأة آنذاك تؤمن بأن الرجل هو صاحب المقام الأول في المنزل فهو رب الأسرة وهو الذي يعيلها اقتصادياً ويتعب ويشقى لأجلها. ولذا فانها كانت تكن له احتراماً عميقاً وتطيعه طاعة عمياء وكثيراً ما كانت تقبل يده بكرة وعشية عند خروجه صباحاً الى عمله وعند عودته مساء. ولما كان عمل الرجل يدوم من الصباح الى المساء فان وجبة الطعام الرئيسية كانت هي العشاء فالطعام يجهز لهذه الفترة. وكانت تسعى لاطعام أولادها واضجاعهم في مضاجعهم قبل حضور زوجها ليتمكن من تناول وجبته بهدوء دون الاستماع لصياح الأولاد وشغبهم. فالاولاد لا يشاركون إذن أباهم الطعام الا بعد أن يبلغوا سناً معينة تتجاوز العاشرة. ولم تكن الام لتشترك مع زوجهابالطعام الا نادراً لان عليها أن تقوم بخدمته أثناء تناوله له، ولا تبدأ بالكلام إذا لم يبدأها هو به[1].

وقد كان الرجل بصفة عامة في معظم المدن الشامية يعامل زوجه معاملة معتدلة أي لا لطف زائد فيها ولا قساوة مجحفة أو بمعنى آخر يعاملها بشيء من البرود والتحفظ حتى يحفظ هيبته. وفي بعض المدن كحماة مثلاً فانه كان يعد اللطف ضعفاً منه ولذا فانه كان يظهر أمام زوجه وأولاده قاسياً طاغياً[2].

أما أفراح الاسرة الخاصة فقد كانت تحتفل بميلاد الطفل الاول عادة احتفالاً كبيراً بالنسبة للاحتفالات التي تجريها للأولاد التالين، الا إذا تأخر ميلاد الولد الذكر فانه يحتفل في هذه الحال ولو كان العاشر في التعداد احتفالاً ضخماً. كما يحتفل كذلك في نطاق الاسرة بختان الاولاد الذكور — ولا تختن الفتاة كما هو الحال في مصر —، وبختمهم للقرآن الكريم (أي انتهاؤهم من تعلمه وقراءته وحفظ بعضه)، وبالاعراس والعودة من الحج، ومن السفر البعيد. وفي تلك الاعياد

«١» ان جميع المعلومات الواردة أعلاه مستقاة من حياة البيئات المحافظة في بلاد الشام الآن وما يرويه كل فرد عن أجداده السابقين.

«٢» Daghestani : La Famille ... p . 48

الخاصة كان يحتفل بالطبل والزمر وتوليم الولائم وتوزيع الحلويات ودعوة الاهل والاحباء ولبس الملابس الفاخرة .

هذا فيما يخص الاسرة واعيادها ، اما الاعياد العامة - وكانت الاسرة بالطبع كخلية اجتماعية اولى تحتفل هي الاخرى بها - فهي لدى المسلمين عيد الفطر وعيد الاضحى (النحر) وعيد المولد النبوي. وجميع هذه الاعياد دينية ويقابلها عند المسيحيين عيد الميلاد وعيد الفصح ، ويلاحظ عدم توحد تاريخ هذين الأخيرين عند جميع الطوائف فكل طائفة قد تحتفل بنفس العيد في يوم غير الذي تحتفل فيه الطائفة الاخرى ، هذا قد يحدث ولكنه ليس قاعدة . ويتلخص الاحتفال عامة بتبادل الزيارات والتهانيء والتباريك ، وبالنسبة للمسلمين بزيارة الترب والقبور ، وبصنع الحلويات في البيوت وتوزيع الصدقات على الفقراء ، وبلبس الملابس الجديدة وبخاصة الاطفال . وكانت الدولة تحتفل بالاعياد الاسلامية المذكورة آنفاً احتفالاً رسمياً فينزل الوالي لصلاة العيد بموكب فخم يضم كبار رجال الدولة والاعيان والوجهاء ، ويعود إلى منزله او سرايه بنفس الموكب ليتقبل التهانيء بالعيد. وتنحر الذبائح ولا سيما في عيد الاضحى وتولم الولائم لطبقة العلماء بالذات وكبار الاعيان ، وينقطع الأفراد بالطبع عن العمل وتغلق المحال التجارية .

أما في عيد المولد النبوي فتزين المدن زينة بديعة وتوقد الفوانيس والشموع وتنشر السجاجيد في الطرقات أمام المحال التجارية ، وتستخدم أغصان الأشجار في زينة البيوت والأسواق . ويقرأ المولد النبوي في المساجد والبيوت وتوزع السكاكر وتعقد حلقات الذكر في زوايا المتصوفة .

ويضاف الى تلك الأعياد الدينية الرئيسية ايام دينية أخرى أو (مواسم) كان المجتمع السوري يحتفل بها ولا يزال وهي يوم السابع والعشرين من رجب والخامس عشر من شعبان والأول من رمضان والسابع والعشرين منه . ويكون

الاحتفال بالنسبة للأسر بزيارة القبور وايلام الولائم على ارواح الموتى الجدد والقدامى ، وتوزيع الطعام على الفقراء . أما بالنسبة لمجموع الشعب فان الاحتفال يكون في المسجد حيث تقام حلقات الوعظ والذكر والتسبيح : كل فرقة صوفية وكل جماعة بحسب تقاليدها . ويضج الناس بالتهليل والتكبير ، ويقرأ المعراج في ليلة السابع والعشرين من رجب على اعتبار أنها ليلة الاسراء ، كما يقرأ دعاء نصف شعبان في ليلة النصف منه ، وتحيى ليلة القدر في العشر الأخير من رمضان وبخاصة في السابع والعشرين منه . وتقيم النساء في البيوت لتلقي التعازي بأمواتهم الذين لم تمر سنة بعد على وفاتهم [1] .

وتجرى الفرق الصوفية في القرى والمدن حيث هناك مزارات لبعض الأولياء الصالحين احتفالات في مواسم معينة تتناسب مع ميلاد الولي أو وفاته . (كخميس المشايخ) في حمص ومثله في حماة ، و(اسبوع برزة) حيث يقال ان ابراهيم الخليل مدفون [2] ، واسبوع قطنة [3] والزبداني [4] والمعرة [5] . وتخرج الفرق في تلك المواسم بملابسها الخاصة حاملة الرايات وعلى رأسها شيخها الذي يظهر كراماته في هذه المناسبة : (فالرفاعية) مثلاً تعمل على ادخال الشيش في أجسام أتباعها في أصداغهم وبطونهم دون ان يصاب أحدهم بأذى و (الجباوية) [6] تستخدم

(١) المعلومات مستقاة من البحث الشخصي المباشر في العادات القائمة حاليا في الطبقات المحافظة .

(٢) الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ١٣٣

(٣) قرية تقع الى الجنوب من دمشق على بعد ٢٠ كم

«٤» قرية ينبع بالغرب منها نهر بردى .

«٥» مدينة صغيرة الى الجنوب من حلب .

«٦» طريقة صوفية . ينظر الفصل الرابع .

(الدوسة) [1] . وفي برزة يحاول الشيخ ان يدخل بفرسه من باب ضيق هناك ، ويدقون الطبول وتسمى طبول (النوبة) ، ويذهبون لزيارة الولي ويرافقهم الشعب بجميع طبقاته وافراده .

يحتفل القرويون المسيحيون حتى الآن بعيد الميلاد ويسمونه الليلة الحلوة كما يحتفلون بتقدم الربيع في الرابع من نيسان الشرقي وتسمى احتفالات الرابع ، وقد تستمر هذه الاحتفالات ثلاثة أيام بين رقص وغناء ، كما يحتفل العلويون بعيد رأس السنة تحت اسم « الميلاد » .

والى جانب تلك المواسم المحلية هناك موسم كبير تحتفل به دمشق بالذات احتفالاً كبيراً ورائعاً وهو موسم الحج . وقد ازداد احتفالها به في العهد العثماني لان حجيجها لم يعد يضم حجيج الشام فحسب وانما الحجيج الوافد اليها من بلاد الاناضول والعراق وايران . وان ما كتبه البديري الحلاق [2] في القرن الثامن عشر ليعطي فكرة واضحة عن ذاك الموسم والاحتفالات المختلفة التي تجرى فيه . ويظهر اهتمام العثمانيين بهذه الناحية ، وهي تسير قافلة الحجاج الشامية واستقبالها ، بأن السلطان سليم اول ما استلم العمل في سورية طلب تسيير الحج والمحمل والعناية بها .

وقد ذكر سابقا ان موسم الحج كان موسم تجارة او موسم خير وبركة لمدينة دمشق اذ اعتاد الحجاج من بلاد العجم وتركستان والاناضول ومن مدن سورية بالذات ان يحملوا معهم منتجات بلادهم لبيعها في دمشق والاستعانة بثمنها على اداء نفقات الحج . وهكذا كانت خانات دمشق واسواقها تعج بالناس والبضائع والابل

---

(١) احتفال يقيمه رجال الطريقة السعدية « الجباوية » . وكان عدد من رجال الطريقة ينبطحون أرضا على وجوههم ثم يمر شيخ الطريقة فوقهم ممتطياً جواده فيدوسهم واحدا بعد آخر فلا يصيب أحدا منهم بضر .

(٢) احد ابناء الشعب في دمشق في القرن الثامن عشر . ألف كتابا دون فيه حوادث دمشق اليومية بين سنتي « ١١٥٤هـ - ١١٧٥هـ » « ١٧٤١-١٧٦٢م » .

ودواب الحمل . وكانت دمشق تتهيأ لهذا الموسم من كل عـــام فتعمل الدولة على تشديد المراقبة على الأمن والاسعار ، وتعد قافلتي الحج والمحمل الشريف والقوة العسكرية الـــتي ستصحبها للدفاع عنها ضد اي عدوان من البدو في الطريق ، كما تكشف عن الآبار ومراحـل الطريق وتشدد حراستها ، وتقـدم الهدايا للبدو حتى لا يغيروا على القافلة . وقدكانت الدولة تتحمل نفقات الاستعدادات هذه ، وتعهد بامارة الحج لواحد من كبار العسكريين في دمشق او من زعماء العشائر العربية في فلسطين [1] . ويهيأ هذا الامير للخروج بالحج قبـل حلول الموسم بثلاثة اشهر ، فيقوم اولا بـ(الدورة) اي بزيارة المناطق الجنوبية من دمشق لجمع المال اللازم لاعداد القافلة والمحمل ، ولبث هيبة الدولة في تلك الجهات التي ستمر بالقرب منها قافلة الحج والمحمل في طريقها الى بيت الله .

وفي الاسبوع الاخير من شهر شعبان يبدأ الحجاج بالوفود الى دمشق ، وفي منتصف شهر رمضان يصل موكب «الصرة اميني» او امين«الصرة» وهي المال الذي اعتادت الدولة ان ترسله من عهد السلطان سليم لأشراف الحجاز .

وعندما يحل عيد الفطر تكون الترتيبات النهائية لاعداد قافلة الحج وركب المحمل على وشك الانتهاء . وفي منتصف شهر شوال تقريباً يخرج امير الحج من السراي قرب القلعة على رأس ركب المحمل يحف به مختلف العسكريين بألبستهم الرسمية ويتخذ طريق الميدان مجتازا باب المصلى ثم الميدان الفوقاني الى باب الله ، الى القبيبات فالجنوب . والمحمل اشبه ما يكون بالهودج ، مغطى بمخمل أخضر مطرز بخيوط ذهبيـة صفراء ، ويحمل المحمل جمـل جميل الشكل لا يستخدم لاي عمل سوى للحج .

« ١ » الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : المقدمة في كتاب « حوادث دمشق اليومية » للبديري ص ٤٩٠ مقدمة.

وقد يكون أمير الحج الوالي نفسه .

ويسبق خروج المحمل احتفالات شعبيه كبيرة اذ يخرجون اولا بالشموع الضخمة المخصصة للأماكن المقدسة في الحجاز، ثم يخرجون بالسنجق واخيرا المحمل ويمضي الركب في طريقه الى الحجاز. ويظهر ان الحجيج كان يلاقي أحياناً الاهوال من هجوم البدو عليه ، الى مشقة السفر من تعب وعطش .

وبعد ان ينتهي الحجاج من القيام بشعائر الحج فانهم يغادرون مكة الى المدينة ثم الى دمشق فيصلونها في اوائل شهر صفر . ويأتي البشير بسلامة الحجيج، «ويخرج الوالي لاستقباله وكذلك القاضي بعمة خضراء . وكان يطلع في هذا اليوم غالب أهل دمشق وكان الموكب عظيما يتزين فيه العسكر بالزينة العظيمة . اما الوزير فيلبس الابيض الاطلس بالفروة السمور والكل بالرماح والاتراس المرصعة [1] ».

وتكون دمشق قد استعدت لاستقبال حجيجها باقامة الزينات وحمد الله، وبالطبول والزمور لعودته سالماً .

ويتضح مما ذكر عن الأسرة الشامية والاعياد والمواسم أن هناك عوامل وحدة تربط أعضاء المجتمع السوري مع بعضهم بعضاً وتصهر الطوائف المختلفة والجماعات العدة في بوتقة واحدة . وفي الحقيقة أن المجتمع السوري بجميع فرقه كان مجتمعاً عربياً بحضارته وتقاليده . فاذا كانت الطوائف الدينية قد حافظت على معتقداتها وحرية عباداتها وإلى حد ما على استقلالها الداخلي فانها كانت اجتماعياً « مسلمة » ، بمعنى أنها لم تكن مغلقة على نفسها تجاه التأثيرات الاسلامية المختلفة . « فالمسيحي في دمشق أو حتى في الريف أقرب إلى جاره المسلم من قربه إلى كاثوليكي فرنسي أو بروتستانتي انكليزي » [2] .

«١» الحسن البوريني . تراجم الأعيان من أبناء الزمان . ج ١ ، ص ٢٠٢

«٢» Weulersse: Les paysans de Syrie. PP. 68-70

فالمجتمع الـوري ظل اذن محتفظاً بطابعه العربي الأصيل ، وبتقاليده التي اكتسبها في العصور الاسلامية السابقة ولو انه دخلت في حناياه بعض العادات الاجتماعيـة الجديدة التي لا تنسجم مع تركيبه الاول المحافظ ، وقد حاربها بكل قواه ونجح في حصر نطاق بعضها ومنع تغلغل وتفشيه بعضها الآخر. ومن هذه البدع تعاطي المخدرات ، ومنها بالذات ما يسمى (البرش) وهو تركيب مخدر كالأفيون وكان يتعاطاه كثير من الناس حتى الشيوخ [1]، وكذلك شرب الخمور فقدسمح للنصارى أن يتاجروا بالخمرة على ألا يبيعوها للمسلمين. ويبدو أن هذا الامر اقلق المسلمين المؤمنين الذين اخذوا يشنون حمـلة على فكرة اراقة الخمور والمتاجرة بها ومنهم (مبارك عبد الله الحبشي) أحد الأتقياء الذي قام على الاتراك وقاموا عليه. واندفع في حربه ضدهم حتى أنه قام هو وجماعته يرصدون الطريق على نقلة الخمر فيقطعون ظروفها ويريقونها على الأرض. وقد قبض الأتراك على الشيخ وصحبه وسجنوهم الا أن مؤيديه كانوا اقوياء الى حد أنهم كسروا السجن وافرجوا عن شيخهم واعوانه [2].

أما البدعة الأخيرة التي لم يتمكن المجتمع الـوري من ردهـا فهي عادة شرب القهوة التي لم تكن معروفة في هذه البقاع قبل القرن العاشر الهجري ولم تنتشر قبل الحكم العثماني . وفي الحقيقة ان أول ما أشير الى القهوة كان في كتابات القرن العاشر (السادس عشر) . فقد دخلت الى القاهرة من اليمن ، وكان استخدامها في تلك البـلاد شائعا وبخاصة في دوائر الصوفية لأنها تحافظ على صفاء الذهن الضروري لأعمال التقى في الليل من تسبيح وتأمل [3]. وقد عرفت في القاهرة في

---

(١) الحسن البوريني . تراجم الاعيان . ج ١ ص ٧٤

(٢) الغزي ـ الكواكب السائرة . ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) Encyclopédie De L' Islam: Art : Kahwa

السنين العشر الاولى من القرن العاشر الهجري ، وكانت قد عرفت في مكة قبل ذلك حتى أنه صدر قرار من القضاة فيها بأمر من قانصوه الغوري بمنعها في عام ١٥١١. وعندما شربت علناً أعلن أنها ممنوعة في عام ٩٣٩ هـ = ١٥٣٣ م بل أنه بعد سنتين قام بعض الناس بتوجيه من المشايخ وبعض العلماء بالهجوم على المقاهي وخربوها [١]. ولقد أدت علاقات بلاد الشام مع المدن المقدسة ومع مصر الى جلب القهوة الى سورية وتركية وفارس . ويذكر أنها شربت لأول مرة فيها في عام ٩٤١ هـ [٢] ، وأثار ظهورها النقاش والجدل . فهل تحلل أم تحرم ؟ وهاجمها كثير من العلماء وعدوها مصيبة من المصائب التي حاقت بالبلاد [٣]. ويبدو أن انتشارها كان سريعاً حتى أن بيوتها قامت في معظم المدن السورية ومنها حلب ، وتجاوزت الحدود الشامية الى القسطنطينية عن طريق أفراد من دمشق وحلب . وقد جذبت الأماكن التي تصنع فيها الأدباء لاول وهلة فارتادوها ومن ثم أخذوا يطلقون جداً ثم سخرية على تلك الاماكن اسم (بيوت المعرفة) ، بينما أسماها أهل دمشق (الخمارة) . وفي عام ٩٥٣ هـ ورد أمر سليمان بابطالها في بلاد الشام [٤]. ولكن الناس بقوا يتعاطونها سراً، وتراخى طبيق الامر مع الزمن فثبتت كعادة منتشرة في معظم الاوساط الشعبية . ولكن لا يفهم من هذا ان المجتمع السوري قد خرج عن تحفظه الاجتماعي أو تحلل من قيوده الخلقية بل بقي محافظا على قوالبه السابقة تسنده طبقة العلماء . وبقي بتماسكه ومحافظته قوة تخشاها الحكومة العثمانية رغم أنها لم تسمح لافراده في بادىء الامر المسلمين والمسيحيين على السواء بالخدمة في الجيش . وحق لها ان تخاف

---

(١) Encyclopédie de l'Islam. Art. Kahwa

(٢) الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ ص ١٢٦ .

(٣) الغزي : نفس المصدر . ج ٢ ص ١٢ .

(٤) الغزي : نفس المصدر . ج ٢ ص ٣٨

لانه كانت هناك فرق يمكن جمعها بسهولة في منطقة لبنـــان والمناطق الجبليـة الاخرى واستخدامها ضـد السلطة العثمانية اذا ما حاولت أن تخرج عن سطحية حكمها في هذه البقاع وتتوغل في داخليته . كما حدث في عهد الامير قرقماز المعني وابنه من بعده فخر الدين الثاني "١"

ويتبين لنا من البحث السابق ان الدولة العثمانيـة لم تتدخل في التركيب الاجتماعي للمجتمع السوري آنذاك بل تركتـه لنفسه يعيش حياته كما كان يفعل سابقاً : جماعات شتى غير مغلقة على نفسها ، تربطهـا حضارة عربية واحـدة تمثلها طيلة قرون عـدة حتى تثبتت في أعماق ذاتهـا . ولم يكن باستطاعة أية قوة مادية مهما بلغت من العنف والقسوة ان تفتت ذاك الرباط ، أو تغير اوضاع ذاك المجتمع آنذاك . وقد كانت الحكومة العثمانية حكومة حربية مادية لا يهمـها من مجتمع امبراطوريتها مستوى رفيعا أو قيما خلقية سامية أو دخـلا فرديا محترما كما تهـدف الى ذلك الحكومات الصالحة ، وانما خزينة مليئة تصرف منهـا على الحروب وعلى موظفيها وعلى سلاطينها . فهي قد أحلت المستويات المالية محل المستويات المعنوية والخلقية . فالحاكم الصالح لديها ليس ذاك الذي يهتم بسكان مقاطعته وينسجم مـع مطالبهم وحاجاتهم ، ويتفقد رغباتهم ويحققها، وانما ذاك الذي يقدم بسرعة الكميات المالية المطلوبة منه . ولذا كان من الطبيعي جدا ألا تترك الحكومة العثمانيـــة الجـديدة في المجتمع السوري أثرا يغير من أنماط حياته او سيره . واذا كان هذا المجتمع قد حافظ على ركوده السابق وعاش ضعيف الحيوية في مطلع العهد العثماني فان هذا لايعني أنه كان لا يشعر بذاته . ومـــا الانتفاضات الفردية المحلية التي

Hitti : History of Syria. p. 680 "١"

كانت تنبعث بين آونة واخرى وبخاصة في الجزء الغربي منه [1] الا دليلا على ان قواه الحياتيـة لا تزال تنبض ، وأنه يحس بوجوده المنفصل في بحران المجتمع العثماني .

«١» لقد كان الوضع الاقتصادي في لبنان احسن حالا مما هو عليه في داخـل سورية لعدم تعرضه للولاة العثمانيين وتعسفهم اذ كان يدار من قبـل امرائه ومقدميه . وبالطبع فان وضعه الاجتماعي ومستواه الفكري والثقافي كانا كذلك أفضل لارتباطها بالوضع الاقتصادي اولاً ولانفتاح الساحل على العـالم الغربي ثانياً ، ولوجود جاليات أجنبية أكثر عددا في ربوعه ثالثا . فالاحتكاك مع الغرب كان أوسع مدى في المناطق الغربية والشمالية من سورية مما هو عليه في جنوبها وشرقها .

الفصل الرابع

الحيـــاة الثقافية

الحيـاة الفكرية :

كانت مصر وسورية في العهد المملوكي السابق للاحتلال العثماني تضم المراكز الفكرية الوحيدة في الوطن العربي بعد سقوط بغداد بيد هولاكو وسيادة العناصر التركية على معظم أنحاء العالم الاسلامي في آسية ، وبعد التفكك السياسي الذي أصاب اسبانيا العربية وأضعف مدنها . إذ كانت مصر وسورية هما الملجأ الوحيد لأبناء اللغة العربية في فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق ، كما كانت ملاذاً لعلماء المغرب العربي الذين ساءتهم الأوضاع فيه فخلفوها وراءهم الى مصر وسورية . وبذلك انتقلت مراكز العلم والأدب في العالم الاسلامي من بغداد وبخارى ونيسابور والري وقرطبة واشبيلية وغيرها من مدائن العلم في العصر العباسي الى القاهرة والاسكندرية وأسيوط والفيوم ودمشق وحمص وحلب وحماة وغيرها من مدائن مصر والشام . وأصبحت تغلب على علماء تلك الفترة وشعرائها وأدبائها ألقاب الدمشقي والحلبي والمقدسي والسيوطي والقاهري[1] .

وهكذا كانت سورية قبل الفتح العثماني لها مركزاً من مراكز الاشعاع

«١» جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ١١٢ .

الفكري ومقرأ لحركة تعليمية نشيطة . فقد ظلت المدارس التي أسست في سورية بالذات في العهد النوري والتي منحت أوقافاًضخمة تعمل في طريقها التعليمي السابق وتبث العلم والعرفان وتشعه لا في حدود بلاد الشام فحسب وإنما في انحاء العالم العربي الاسلامي آنذاك . وقد كانت سورية تملك من هذه المدارس العددالضخم ، وكلها تهدف في الواقع الى تثبيت المذاهب السنية في نفوس الأفراد ، وتدرس فيها علوم الدين واللغة مضافاً اليها علم الطب . فالحركة التعليمية في سورية في العهد المملوكي بقيت على ما كانت عليه في العهدين النوري والايوبي نشيطة دفاقة. بل أنها ازدادت خصباً ونماء باضافة مدارس جديدة الى المدارس النورية السابقة ، أنشأها السلاطين وأمراؤهم وأعيان البلاد وعلماؤها وخصصت لها اوقاف ضخمة وملئت بخزائن الكتب ، كما ان الترب نفسها غدت مراكز علمية في تلك الآونة يقرأ فيها القرآن وتحوي من الكتب الكثير النافع .

فالعهد المملوكي في سورية إذن كان من عهود الاشراق الفكري الذهبية في تاريخها ، توجته طبقة ذات مستوى رفيع من المؤرخين وكتاب التراجم والموسوعين والأدباء ، مما جعلها قبلة الفكر العربي الاسلامي آنذاك . فإلى هذا العهد ينتسب عمالقة التأليف العربي والتراجم والموسوعين والمؤرخين والجغرافيين والفقهاء من أمثال ابن خلكان ، وابن أبي أصيبعة ، والصفدي ، وابن شاكر الكتبي ، وابن العديم ، وصالح بن يحيى ، وأبي الفداء ، والذهبي ، وابن قاضي شهبة ، وابن فضل الله العمري ، والمقريزي ، وابن خلدون ، والنويري ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية وغيرهم كثير .

وعلى الرغم من الأضواء اللامعة التي كانت تشعها هذه الفئة من رجال الفكر والقلم ، وزخرت بها سورية في العهد المملوكي فان حياة الفكر في الواقع كانت في أزمة . إذ أخذت تميل ولا سيما في اواخر العهد نحو الخمول والركود

التدريجيين ، كما فقدت روح الابداع والتجديد واتجه أصحاب الفكر والقرائح نحو التقليد والتركيب والجمع حتى سمي ذاك العصر بعصر «الموسوعات والجمع والترجمة». فحتى تلك الأسماء المشرقة التي قدمت للعالم الاسلامي تراثاً فكرياً نادراً كانت تسير في مؤلفاتها ودراساتها على الأنماط التقليدية المحافظة ما عـــدا بعض الاسماء كابن خلدون ، وابن تيمية ، وابن قيم الجوزية .

ويظهر أن الاوضاع السياسية التي عانتها البلاد منذ الحملات الصليبية عليها ، والفقر الاقتصادي النسبي الذي عاشته ، واكتساحات التتر وآخرها حملة تيمورلنك قد أضعفت من قواها الانتاجية في الميدان الفكري. ويبدو الذبول في حقل الفكر واضحاً جلياً بعد تلك الحملة المشؤومة التي لم تخرب المساجد والمدارس فقط وإنما حمل صاحبها نخبة العلماء الدمشقيين والفنانين وصناع الاسلحة والحديد والمرايا الى عاصمته سمرقند لإنبات العلم والعرفان والصناعة في تلك المدينة النائية [1] . فغارة تيمورلنك كانت ضربة قاصمة لسورية من الناحية الاقتصادية والفكرية .

ولم يمض سوى قرن من الزمن حتى أصاب سورية الاحتـــلال العثماني ، واجتاح السلطان سليم أراضيها . ولم يكن هذا السلطان قاسياً عليها نفس قسوة تيمورلنك ، فهو محب للعلم والعلماء ، وشاعر مبرز ، ومتفهم لمختلف الثقافات ومنها الثقافة العربية حتى قيل أنه كان يريد أن يجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية ولغة الدواوين [2] . إلا أن الحياة الفكرية التي تقلصت بالهجوم التتري لم تتمالك نفسها بعد ولم تنهض الى مستواها الذي كانت عليه قبل الاكتساح المغولي . فسورية رضخت للحكم العثماني وهي تعاني بعض الشلل في حياتها الفكرية، ونضباً في انتاجها العلمي حتى أنه من النادر أن يرى اسم لامع في القرن الخامس عشر ومطلع القرن

«١» Hitti: History of Syria P. 656

«٢» محمد كرد علي . خطط الشام . ج ٢ ، ص ٢٣٩ .

السادس عشر . ولم يهزها الاحتلال العثماني ولم يولد لدى مثقفيها ردود فعل انتاجية خصبة ، ومن ثم مالت الحياة الفكرية فيها من ركود الى ركود . ومما لا شك فيه بأن اضطراب الحكم العثماني الجديد فيها في هذه الحقبة، وتبدل الولاة المستمر وشدة الضرائب ، والفقر الاقتصادي العام ، وعدم تشجيع الابتكار الانتاجي في الميادين الادبية والعلمية ، كانت عوامل مساعدة للاتجاه التقهقري في الحياة الفكرية . ولكن يجب ألا يستنتج من هذا أن العثمانيين ضربوا نطاقاً غليظاً على الفكر والتعليم في سورية أو اغلقوا مدارس العلم أو انهم وقفوا سداً منيعاً في وجه الابتكار والتأليف ، بل انهم على العكس من ذلك ، تركوا أنماط الحياة التعليمية في سورية تأخذ مجراها الطبيعي الذي كانت تتجه فيه قبل الفتح،وأبقوا للمدارس فيها عند حصر الاوقاف اوقافها التي خصصت لها من قديم ، وعملوا من جانبهم على إنشاء المدارس في عاصمة ملكهم وفي المدن العربية التي احتلوها لرفع المستوى العلمي الديني . فالاحتلال العثماني ليس هو وحده المسؤول في الواقع عن ضعف الحياة الفكرية ، إنما التقليد والمحافظة اللذان عاشتها مختلف الجماعات التي مر ذكرها أذبلت بالتدريج روح المبادهة والابتكار وجعلت قوى الخلق والابداع تتقلص وتنكمش حتى بدت سورية في العهد العثماني وكأنها تعيش في مستنقع فكري تتبخر مياهه دون ان تتجدد .

التعليم :

واذا ما ابتدىء بالبحث في التعليم آنذاك وهو أول مظهر من مظاهر الحياة الفكرية فانه يرى ان التعليم بقي كالسابق تعليماً دينياً بحتاً اذ انه منذ أن أنشىء كان الهدف الديني هو الغالب عليه ، ويتمثل في تثبيت المعتقدات السنية للصمود في وجه البدع الشيعية المنتشرة . وساعد على تدعيم هذا التعليم الديني الأزمات التي مر بها العالم الاسلامي من اكتساحات تترية وهجمات صليبية جعلت الناس يلتجئون الى الدين كملاذ لهم من الاضطرابات الدنيوية .

أما التثقيف الاجتماعي فيناله الطفل في بيته وبين أفراد اسرته ، ويستمده من كبار العائلة وتقاليدهم الموروثة الثابتـــة ، فلا ينتقل الى مرحلة تعلم القراءة والكتابة الا وتكون القيم الخلقية والاجتماعية قد تركزت في ذاته وزخرت بها شخصيته . واذا ما دخل مرحلة القراءة والكتابة فقد كان يكتفي بتعلم القرآن وأصول الدين . وهذا يجري عادة اما في المنزل باحضار شيخ يقوم بهذا العمل أو فيما يسمى الكتاتيب ودور القرآن . وكانت هذه الدور – دور تعليم القرآن – منتشرة في جميع المدن والقرى وتقوم عادة بالقرب من المساجد أو في المساجد نفسها أو في الترب . ولم تكن الحكومة العثمانية أو التي قبلها لتتدخل في هـذه الكتاتيب او تقدم لها المساعدة ، وانما كان ينشئها الشيخ بنفسه مقابل بعض المال أو النوعيات يتقاضاها من طلابه اسبوعياً ، او ان بعض الأغنياء ينشئونها ويقفون عليها الاوقاف التي تصرف وارداتها على اجور للشيخ وتغذية للطلاب ولباس لهم[١] . وبالطبع كان الواقف هو الذي يعين الشيخ القائم بالتدريس . واذا كانت الحكومة لا تتدخل سلباً او ايجاباً في هذه الكتاتيب الا انها كانت تشرف عليها من بعيد عن طريق القاضي ، واشرافها اشراف مالي على الأوقاف اكثر منه اشراف تعليمي . وقد كان في دمشق من دور القرآن المشهورة المعروفة سبع في مطلع العهد العثماني[٢]

«١» النعيمي . الدارس في أحوال المدارس . ج ١ ، ص ٩ .

دار القرآن الدلامية . وقد أنشأها زين الدين دلامة أحد الأعيان بالشام الى جانب داره ووقفها ورتب بها أماماً ، وقيماً ، وستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين في قراءة القرآن . ومن شرط الامام أن يتصدى شيخاً لاقراء القرآن للمذكورين وله على ذلك زيادة على معلوم الامامة عشرون درهماً ... وستة أيتام بالمكتب أعلى بابها . ولـكل منهم عشرة دراهم في الشهر وقرر لهم شيخاً ولـكل منهم جبة قطنية وقميص ومنديل .

«٢» النعيمي . الدارس في أحوال المدارس . ج ١ ، ص ٧ – ١٧ . وهـــذه الدور هي الخيضرية ، والجزرية ، والدلامية ، والرشائية ، والسنجارية ، والصابونية ، والوجيهية .

أما عددهـــا في القرى والمدن الأخرى فهو غير معروف . ولكن يستدل من الملاحظات الواردة في كتب النعيمي والمرادي والغزي انهـــا كانت موجودة ومنتشرة .

وقد كانت الكتاتيب ودور القرآن تقوم بالمهمة الرئيسية الملقاة على عاتقها وهي تعليم الطالب القرآن واصول الدين وقواعد اللغة وذلك بطريقة الاستذكار والحفظ لبعض ما كتب في هذا الشأن كالأجرومية [1] والشاطبية [2] والالفية [3] والجزرية [4] . وهذه المواد هي التي كان يحتاج اليها طالب العلم آنذاك في حياته الاجتماعية القائمة أو في مدارس الفقه اذا اراد متابعة دراسته . فهو ان انقطع عن التعلم بعد هذه المرحلة وانخرط في الصناعة أو التجارة فانه يكمل ثقافته العامة في نطاق النقابات التي ترتبط معظمها بالأخوات الصوفية ، وان تابع دراسته فالأسس العلمية الرئيسية واقعة في قبضته .

ويلاحظ أنه على الرغم من الاحتلال العثماني لسورية فان هذه الكتاتيب لم تدخل تعليم اللغة التركية ، بل الأغرب من هذا انها في بلاد الأناضول نفسها كانت تقتصر في عملها على تعليم القرآن بلغته الأصلية بالطبع وتحفيظه للطلاب دون أن تفقه معانيه [5] . ويبدو أن المدارس العاليةفي ذاك العهد كدور الحديث ودور

«١» نسبة إلى واضعها أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن أجروم (وتعني بالبربرية متدين أو زاهد) ، (٦٧٢ – ٧٢٣هـ ، ١٢٧٤–١٣٢٣م) وتسمى « المقدمة الاجرومية في مبادىء اللغة العربية » وهي مختصر لكتاب « الجمل » لابي قاسم الزجاجي . وهي تدرس كمبدأ في اللغة العربية .

«٢» نسبة إلى العالم الفقيه الشاطبي (٥٣٨ – ٥٩٠هـ ، ١١٤٤ – ١١٩٤م) ويبتدأ فيها ببيان كيفية لفظ الاحرف الهوائية ثم ينتقل الى بيان القراءات السبع .

«٣» وتسمى بألفية ابن مالك نسبة لمؤلفها ابن مالك الطائي (٦٧٢هـ) وهـــي قصيدة في النحو من ألف بيت وتبحث في مختلف قواعد النحو .

«٤» نسبة إلى العالم محمد بن يوسف بن الجزري الدمشقي الشافعي نزيل بلاد الروم ثم دمشق . باشر الاتابكية بدمشق إلى أن توفي عام ٨١٤هـ . وهي في فن تجويد القرآن .

«٥» Gibb & Bowen: Part II. P. 141

الفقه المختلفة لم تكن بحاجة الى تلك اللغة لأن التراث الذي يدرس كان التراث العربي الاسلامي وباللغة العربية . والدليل على ذلك أن معظم القضاة الذين عينوا في دمشق من الأروام كانوا مجيدين للغة العربية وبالطبع للفقه الاسلامي كما يجيدها أهلوها .

هذا فيما يخص التعليم الاولي ، أما التعليم العالي فكان يجري في المدارس والجوامع وهي تختلف في حجمها وأساتذتها وأهميتها بحسب الاوقاف التي تنفق عليها . وقد اقتدى السلاطين والكبار بن سلفهم من الخلفاء والسلاطين وكبار المسلمين ، فعملوا على انشاء مثل هذه المدارس الكبيرة في العواصم أولاً وفي مدن الأقاليم ثانياً . ومن الطبيعي أن تكون استامبول قبلة انظارهم يوجهون اليها اهتمامهم ويحيطونها بالرعاية العلمية قبل غيرها من المدن . وبالفعل كان محمد الثاني وبايزيد الثاني قد أقاما فيها مدارس كبرى ، وأضاف الى تلك المدارس السلطان سليمان الأول في الحقبة الزمنية التي نبحث فيها مدرسة السليمانية وجعلها حول مسجده.وفي مجموعة هذه المدارس كان الطلبة يدرسون ،ومنها يتخرج العلماءالكبار الرئيسيون . وقد خصص السلطان سليمان في مدرسته بناءين لدراسات خاصة أحدهما أطلق عليه اسم « دار الحديث » لتعليم الحديث ، والثاني « دار الطب » لدراسة الطب . ولعل ما سمعه من علمائه عن مدارس الشام النورية ونوعيتها في دمشق جعله يتجه في هذا المنحى . وبعد بناء المدارس السليمانية أوجد السلطان التنظيم التعليمي الذي سارت عليه الحكومة العثمانية حتى فترة متأخرة . فقد نظم التعليم في اثنتي عشرة درجة وفرض على كل طالب ان ينال في كل مرحلة من مراحل تقدمه الاحدى عشرة «اجازة» تشهد له بأنه غدا عارفاً بما أخذه من معلمه ومتكلماً به ، وعندما ينتهي من الدرجة السادسة يسمح له وهو يتابع دراساته في المدارس الأعلى أن يعمل «مساعداً» في الصفوف الدنيا ويسمى عندها « معيداً » . وهنا لا

يعود «صوفتا» أي «متحرقاً» ومتشوقاً للتعلم وانما «دانيشمند» أي متعلم[1] . واذا كان يطمح في الوصول الى احد المناصب القضائية العليا فان عليه أن ينال أكبر عدد من الاجازات ويصبح مدرساً في تلك المدارس . وعندما يصبح مدرساً فانه يبتدىء من المرحلة الدنيا ثانية ويعمل معلماً خلال تسع درجات على الاقل من الاثنتي عشرة درجة . ولطول المرحلة التعليمية هذه كان كثير من المتعلمين لا يكملون الطريق كله بل يختارون في منتصفها وظيفة نائب او قاض عادي أو مفتي مدينة . اذ ان المناصب الأخيرة مفتوحة لأصحاب الدرجات الدنيا وخريجي المدارس الدينية الأخرى غير مدارس استامبول [2].

وقد كان يدرس في هذه المدارس منذ عهد محمد الثاني الى عهد سليمان العلوم العقلية والعلوم الدينية ، ولكن العلماء منذ منتصف القرن السادس عشر انصرفوا الى العلوم الاخيرة وبخاصة منها الفقه وأصول الدين . أما الذين تابعوا دراسة الرياضيات والفلك والتاريخ الطبيعي فانهم كانوا يقومون بذلك بصفة شخصية ولانفسهم لا لمصلحة مهنية وقد أصاب هذه الدراسات مع الزمن الضعف والوهن . وعلى الرغم انه في القرن السادس عشر قامت بعض الدراسات حول العلوم العقلية فان العلم الوحيد الذي بدا نشيطاً كان علم الجغرافيا : اذ اثار اكتشاف أمريكا ورأس الرجاء الصالح أفكار الاتراك كما اثار الاوربيين . ولكن يظهر أن المدارس نفسها لم تتأثر بالمؤلفات التي قدمت في هذا المضمار . ومن المشكوك فيه أن تكون مدرسة من مدارس سليمان القانوني قد علمت من العلوم العقلية غير علم الطب . اذ ان العلماء ،وبخاصة في القرن السادس عشر بعد دخول معظم اقطار العالم الاسلامي السنية في الامبراطورية العثمانية ، لم يكونوا ينظرون نظرة ارتياح

«١» الحسن البوريني : تراجم الاعيان . ج.١ ، ص ٧٧ . الدانشمند صاحب الدانش – كلمة فارسية – تعني صاحب المعرفة .

«٢» Gibb & Bowen: Part II. P. 150 - 151

وقبول الى اي علم من العلوم العقلية غير الطب . وقد كان الطب يدرس في مدارس العاصمة بنفس معلومات العصور الوسطى وعلى نمطها . ومن ثم فانه لم يكن على مستوى عال في عهد سليمان وان تغير الوضع قليلاً فيما بعد نتيجة الاتصال بالطب الاجنبي المتفتح في البلاد الاوربية . وقد اصاب الانحطاط الكيفي تعليم الشريعة واصول الدين نفسه في النصف الثاني من القرن السادس عشر اذ ان التعيين لمناصب التدريس قد غدا رخواً ولم تعد تتبع فيه الشروط الشديدة التي فرضها سليمان سابقاً [1] .

أما ما يخص سورية من التعليم في بدء عهدها العثماني فهناك ادلة على أن النشاط التعليمي الواسع كان آخذاً مجراه. ولم يكن التعليم فيها مركزاً في العاصمة دمشق فحسب كما كان الامر عليه في مصر ،حيث كان مركز التعليم الرئيسي فيها الجامع الازهر ، وانما كان موزعاً في أنحائها . فالى جانب المركزين الثقافيين الهامين في دمشق وحلب ، هناك مدارس عدة لا تقل عن تلك الموجودة في دمشق وحلب في كل من القدس ، ونابلس ، والرملة ، وحمص ، وغزة ، وصيدا ، وحماه ، وادلب ،وعكا،وطرابلس ،وبعلبك [2] .

وعدا المساجد الجامعية الكبرى في دمشق وحلب ، وهما مسجدا بني أمية فيها،فان في المدينتين عدداً من المدارس العادية الكبير منها والصغير . ويعدد النعيمي المتوفي في مطلع القرن العاشر أي في فترة الفتح العثماني ثلاثاً وستين مدرسة لتدريس المذهب الشافعي فقط ، واثنتين وخمسين لتدريس المذهب الحنفي ، وثلاثاً للمالكي واحدى عشرة للحنبلي هذا عدا الخوانق والربط والزوايا ودور الحديث . [3] وليس

«١» Gibb & Bowen: Part II. P. 150 - 151

«٢» المرادي : سلك الدرر . ج ١ ص ٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٢ . ج ٤ . ص ٣١ — ٣٢ .

«٣» النعيمي (المتوفي عام ٩٢٧هـ):الدارس في أحوال المدارس . الجزءان .

في أخبار تلك الحقبة من الزمن أي في نصف القرن الأول من الاحتلال ما يدل على أن الحكومة العثمانية أفقرت تلك المدارس أو أعاقتها عن القيام بمهمتها رغم أن المذهب الرسمي للدولة هو المذهب الحنفي كما أنه ليس هناك أي دليل على انحطاط مستويات التعليم ووسائله عما كانت عليه في أواخر العهد المملوكي . وإذا كان بعضها قد ساءت أحواله فان هذا يرجع في الواقع لا إلى قيود فرضتها الحكومة العثمانية وانما إلى ضعف واردات أوقافها نتيجة تلاعب المشرفين على تلك الأوقاف. وهناك أدلة على أن الدولة العثمانية كانت تشدد الرقابة على هؤلاء وتضرب بشدة على يد كل من يحاول أن يسيء إليها : فقد شنقت « سنان القرماني » الذي نمي إليها أنه خرب المدرسة المالكية في دمشق المعروفة بالصمصامية والقائمة قرب البيمارستان النوري كما تضررت بسببه مدرسة بعلبك النورية .[1] فالدولة لم تضغط اذن على دور العلم والمتعلمين وانما سعت للحفاظ عليها وزيادة عددها والدليل على ذلك المدرسة التي بناها سليمان القانوني في مدينة دمشق الى جانب تكيته المشهورة ووضع لها المحدثين والفقهاء[2] . كما أن قضاة العثمانيين عملوا من جانبهم على صيانة المدارس القائمة بل واعادتها إلى الحياة إذا كانت قد درست وبادت . وهذا ما عمله القاضي (محمد جابي) ابن المفتي الرومي الشهير (أبو السعود) ،اذ عمل في ٩٦٤ هـ على ترميم المدرسة « القليجية» في دمشق بعد أن كانت قد احترقت في فتنة تيمورلنك. ثم تابع الشيخ (أحمد بن سليمان) عمله من بعده ، وجاء بالخشب لعمارتها من غيضة السلطان وماله وساعده في ذلك أركان الدولة وتمت في حدود عام ٩٧٠ هـ .[3]

وفي الحقيقة كانت تلك المدارس تعيش وتزدهر بحسب الأوقاف التي منحتها : فكلما ازدادت تلك الأوقاف تمكنت من ضم عدد أكبر من الطلاب

«١» الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ . ص ١٤٩ .

«٢» ابن بدران : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال . ص ٣٧٨ .

«٣» ابن بدران : نفس المصدر . ص ١٩٦ .

والمدرسين والفقهاء. اذ أن الطلاب كانوا يتناولون جراية شهرية من تلك الاوقاف ليقيموا بها أودهم ويكسون أنفسهم ، ويشترون ما يلزمهم للكتابة والدرس . أما حال المعلمين المادي فقد كان يختلف من فريق إلى آخر : فبعضهم كان يتمتع بإيراد كبير من واردات الأوقاف أو من ادارتها أو من مناصب قضائية يشغلها. أما الفريق الثاني فكان لايربح إلا النادر القليل عن طريق التعليم ، وكان يكتفي أحياناً بالكميات الضئيلة التي تصرف له لانصرافه الكامل إلى العلم وابتعاده عن مآرب الدنيا وانغماسه في حياة التصوف . ولكن هذا لا يمنع من القول أن الدولة العثمانية كانت تعطي في بعض الأحايين لبعض العلماء المعروفين والمتصوفة «علوفات» من الجوالي (ضريبة الجزية على غير المسلمين) [1] .

ولم يكن في تلك المدارس برنامج ثابت للتعليم ، فمعظم الطلاب دخلوا هذه المدارس ولا يحفظون من العلم سوى القرآن الكريم . ولذا فان السنوات الأولى كانت تمضي في دراسات تكميلية يتعرفون فيها على علوم اللغة، والحديث ، ثم بعد تمكنهم منها يحضرون محاضرات الشيوخ الكبار في أصول الدين والشريعة. وفي الواقع كانت المواد الدرسية في تلك المدارس محدودة بالعلوم اللغوية والحديث والفقه وأحياناً المنطق ومبادىء الحساب . ومن كان يريد أن يصبح ناسخاً أو كاتباً فانه كان يضيف إلى دراساته علم الخط . وكان آنذاك صناعة فنية راقية عمل الأتراك العثمانيون أنفسهم على الرفع من مستواها والتفنن فيها . [2] وكثير من الطلاب المنتمين إلى تلك المدارس كانوا يقفون في دراستهم عند الحصول على عمل إمام في مسجد أو مفت في قرية أو قاض صغير . وأقلية من الطلبة هي التي كانت تتابع الدراسة لتصبح قابضة في المستقبل على ناصية التدريس ، وذلك بعد

«١» الحسن البوريني ، تراجم الاعيان . ج ١ . ص ١١٠ .

«٢» G. Fradier: Splendeur de l' Art Turc. (Le Courrier Vol vi. N 3 Mars 1953

امتحان يجريه لها رؤساؤها في العلم . فعلى كل كتاب يقرأه الطالب مع معلمه ويتباحثا فيه ينال اجازة منه على صلاحيته لتدريس ذاك الكتاب أوالتحدث حوله.

ويبدو أن هناك حرية في طريقة التعليم في الحلقات الجامعية وفي تلك المدارس . فالمعلم يعلم طلابه نصاً ما أما بطريقة املائه عليهم أو بقراءته أمامهم والتعليق عليه ، والطلاب يصغون ويسألون ويحاجون ، وعلى مقدار نجاحهم في حججهم،أكانوا مدرسين أم طلاباً، كان يذيع صيتهم في البلاد وتنتشر شهرتهم . وكان الدرس يعاد من قبل « شيخ معيد » لصالح الطلاب المتغيبين أو الذين لم يفقهوا الموضوع من أول مرة[1] .

ولم تقتصر المدارس في سورية على تدريس العلوم الدينية واللغوية بل كانت هناك مدارس تلقن أصول الطرق الصوفية المعروفة آنذاك (كالجيلانية) و(الرفاعية) ،و(القلندرية)،(والسعدية).وقد أوقفت لها الأوقاف الواسعة،وأطلق على بعضها اسم (الخانقاه) أي دار الصوفية وعلى بعضها الآخر اسم الربط والزوايا. وقد كان في دمشق وحدها في مطلع الاحتلال العثماني تسع وعشرون خانقاه، وواحد وعشرون رباطاً ، وست وعشرون زاوية .[2] وكان لهذه الربط الصوفية شيخها المتفقه في أصول طريقته الصوفية وتعاليمها ، وحوله عدد ضخم من المريدين . وقد كان يفد إلى هذه الزوايا والخوانق عدد كبير من الصناع يأخذون العلم الديني وأصول التصوف من مشايخه المنصرفين إليه وبذلك يكملون ثقافتهم العلمية المحدودة .

«١» Gibb & Bowen:Patr. II. P. 158

«٢» النعيمي . الدارس في تاريخ المدارس . الجزء الثاني . ويبحث في كل واحدة منفصلاً.

ولابد من اشارة هنا إلى أن التصوف كتيار فكري اسلامي كان طاغياً في هذه المرحلة التاريخية على الاتجاهات الفكرية العامة في سورية. وقد لاقت هذه الحركة الفكرية الاجتماعية في الفتح العثماني وفي الدولة العثمانية نفسها صدى طيباً ساعد على تشجيعها وتثبيتها .

التيارات الفكرية الرئيسية :

وهنا لا بد من التطرق الى بحث التيارات الفكرية التي تتجاذب مختلف طبقات المجتمع السوري آنذاك . وفي الحقيقة لقد كانت تلك المسيلات ترتبط ارتباطاً قوياً بالحياة الدينية الاسلامية لذاك المجتمع وبتعليمه الديني . ويمكن تصنيفها - وهي التي طبعت المجتمع الاسلامي السوري بطابعها وأثرت على عاداته - بثلاثة : أولها التيار الديني السني ويمثله أعضاء المؤسسة الدينية أي العلماء وهدفه المحافظة على المعتقدات والعبادات الاسلامية كما كانت عليه في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، ومقاومة البدع الفكرية والسياسية والاجتماعية . وثانيها التيار الديني التصوفي الذي تمثله الفرق الصوفية المختلفة العديدة وشيوخها في الخوانق والزوايا والربط . وثالثها التيار الديني الشيعي وتمثله في سورية الفرق الشيعية المعتدلة والمتطرفة المتركزة بخاصة في المناطق الجبلية المرتفعة كالنصيرية والاسماعيلية والدرزية .

ولتفهم التفاعلات القائمة بين هذه التيارات في القرن العاشر الهجري (السادس عشر) لابد من الرجوع إلى الوراء وتوسيع ساحة الرؤيا. وفي الحقيقة لو لجيء إلى هذا لشوهد أن التيارات الثلاثة المذكورة كانت تسيل لا في نطاق المجتمع السوري وحده وانما كانت تتنازع المجتمع الاسلامي في مختلف بقاعه ومنذ القرن الاول للهجرة . وقد كان الاحتكاك العدائي متوافراً بين هذه التيارات الفكرية ، وابتدىء بين السنة وتمثلهم طبقة الفقهاء والبلاط ، والشيعة الذين وجدوا

ــ حتى المتطرفة منهم ــ أنصاراً في الطبقات الدنيا في المدن والارياف . فالسنة اصطدمت منذ تلك العصور الاسلامية الاولى بالفرق الشيعية المختلفة ، وعلى الرغم من أن الفقهاء منها كانوا يميلون قلبياً إلى آل البيت فانهم قاوموا الحركة الجديدة للحفاظ على مجتمع اسلامي موحد . وأحسوا أثناء مقاومتهم أن عليهم في معركتهم هذه أن يوحدوا صفوفهم هم أنفسهم . اذ أن الفلسفة اليونانية بمنطقها وجدلها قد تغلغلت بينهم وتداخلت في مناحي تفكيرهم. وقد قضوا على هذه العقبة التي كادت تبعثرهم بتبنيهم لذاك المنطق اليوناني ، لاتخاذه وسيلة للدفاع عن الشريعة والدين الاسلامي . واحتدم أوار النزاع بين السنة والشيعة على مر القرون حتى وصل أوجه في الحركة الثورية القرمطية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وانتصرت السنة[1] ، لا لان الجيش والدولة والارستقراطية كانت الى جانبها فحسب وإنما لانها تمثل « دين الاكثرية » للمجتمع وهدفها ان تبقي على صفاء هذا الدين ووحدته ومن ثم وحدة المجتمع الاسلامي كله .

ولم تكتف السنة بهذا النصر الذي نالته بل انها مدت يداً الى فرق المتصوفة التي اخذت في الانتشار لتقف معها في عراكها ضد الشيعة وفرقها المتطرفة التي انبثت في اجزاء كثيرة من العالم الاسلامي وفي نطاق المجتمع السوري بالذات . وفعلاً استطاعت الفرق الصوفية التي تحالفت مع السنة أن تجذب إليها كثيراً ممن كانت الفرق الشيعية قد اكتسبتهم إلى جانبها لأسباب سياسية أو اجتماعية . وظهر في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) ان التيار الشيعي تيار فكري قلق والحركة السياسية المرتبطة به (ضعيفة) [2] ثم قام الشاه اسماعيل في القرن العاشر الهجري وأحيا تلك الحركة وجعلها المذهب الديني والقومي لبلاد

«١» Gibb & Bowen: Part II. p. 72

«٢» Toynbee: A Study of History. Vol I. p. 358

فارس وحولها من دعوة فكرية إلى حركة سياسية وحربية . فعاد النزاع بين الشيعة ممثلة في الدعوة الجديدة للشاه اسماعيل والسنة ممثلة في السلطان سليم والعلماء من ورائه . وانتصرت السنة للمرة الثانية ، وتمكن السلطان سليم من حصر امتداد الحركة الشيعية ومن تطويقها قبل أن تمتد الى بقيـــة اجزاء العالم الاسلامي . وهكذا بقي التيار الشيعي الفكري ضمن الامبراطورية العثمانية مذهباً دينياً لبعض الجماعات فيهـــا تسكن الاناضول وسورية واليمن والعراق .

اما التياران الصوفي والسني فيلاحظ ان الاحتكاك قد قام بينهما كذلك منذ القرن الثاني للهجرة لان الصوفية بحسب معتقدات السنيين هددت بآرائها التعاليم السنية . وفي الحقيقة لم يكن خطرها في بدء الامر واضح المعالم لان التصوف لم يكن يعني في بدء ظهوره سوى الزهد والتقشف والاعراض عن الدنيا وزخرفها ، والعكوف على العبادة والتفاني في حب الله والاخلاص لاوامره . ولكن لم يلبث ان تطور مع الزمن واصبح مزيجاً من الزهد والفلسفة الدينية الناجمة من مزج الافلاطونية والافلوطينية والمؤثرات الهندية والعناصر المسيحية بالتعاليم الاسلامية . ونتج عن هذا المزج قولهم بمعرفة كاملة لطبيعة الله وصفاته ، ومعرفتهم هذه ليست معرفة « عقلية » وانما معرفة عاطفية قلبية ، فعلمهم علم قلوب وكشف : فعن طريق عاطفتهم الحرة ورياضتهم التعبدية الناسكة من صيام متواصل وصلاة مستديمة وتفكير دائم بالله يمكنهم ان يصلوا الى نهاية المطاف ، الى التعرف على الحق اي على الذات الالهية بالقلب والروح . وهم في طريقهم هذه يمرون بمراحل تدعى « المقامات » وهي الفضائل التي يكتسبونها عن طريق جهادهم النفسي كالتوبة والورع والزهد . وهم اثناء تنقلهم من مقام الى آخر تتولد لديهم « احوال » تختلف عن المقامات بأنها هبات من الله تعالى يغدقها على المتصوفين وهم سائرون في طريق تطهير انفسهم كالمحبة ، والأنس ، والرجاء ، واليقين .

واذا كانت الحركة الصوفية حتى القرن الرابع الهجري لم تنظم نفسها ، فانها اخذت بعد هذا التاريخ وبخاصة في البلاد العريقة بالاسلام تنتظم في طرائق مختلفة . اذ قام كبار الصوفية باتباع طرق وتعاليم خاصة ، والتف حولهم أتباعهم ومريدوهم ، فعاشوا جماعات في الخوانق والربط والزوايا والتكايا يتبعون تلك الطرق . والاتباع بدورهم يؤسسون فروعاً لتلك الخوانق في أراض أخرى ومدن متفرقة. وبذلك تكونت مع الزمن في المدينة والقرية على السواء «أخوات» كبيرة او صغيرة لها مشايخها ومدارسها الخاصة المستقلة ، ولباسها وشعائرها واماكن اجتماعاتها ، ولكل منها انصارها الذين لا يتلقفون العلم الا من مشايخ طرقهم ، ولا يرجعون الا اليهم في التوجيه الروحي .

وكما انتشر التيار الشيعي بين الطبقات المتوسطة الدنيا فان حركة التصوف وجدت انصاراً فيهم كذلك . وبذلك غدت الصوفية وكأنها مهنة تضم جماعة من المؤدبين والمعلمين ينافسون العلماء في عملهم ويتمتعون بنفوذ واسع بين الصناع بخاصة . واشتد التنافس بين الطرفين حتى تحول الى نزاع فكري يحاول كل فريق فيه أن ينتقد خصمه ويعيبه. ووصل النزاع الى أوجه في صوفية الحلاج [1] وانتهى الامر باعدامه بدعوى الكفر والهرطقة في القرن الرابع الهجري .

ورافق التنظيم الطرائقي للمتصوفة تطوير في معتقداتهم وتبن لفلسفة دينية

«١» هو الحسين بن منصور الحلاج . ولد عام ٢٤٤هـ (٨٥٨م) في الطور (فارس) ، وعاش في خلوة التصوف الى جانب المتصوفة الكبار أمثال الجنيد أربعا وعشرين عاماً . ثم قطع صلته بهم وأخذ بالدعوة لآرائه في خراسان والاهواز والهند وتركستان . وازداد أتباعه في بغداد واتهمه المعتزلة بالزندقة والتغرير بالناس ، فقبض عليه وحكم بالقتل في عام ٣٠٩هـ = ٩٢٢م .

معينة . وقبل ان تتركز هذه الفلسفة في آراء محي الدين بن العربي [1] التوحيدية: فانها تذبذبت بين أفكار عدة ، ويمكن اعتبار فلسفة ابن العربي اوجها . وقد سميت مدرسة ابن عربي ، وهي التي سادت على التفكير الصوفي في الحقبة التي تلت القرن الثالث عشر الميلادي مع تعديلات طفيفة، بالمدرسة « الوجودية »: اي التي تدعو الى وحدة الوجود. فالوجود كلمة مشتقة بحسبه من الوجد (النشوة) وهي صفة اغدقها الله على مخلوقه مقابل الكون وهو امتداد في الفراغ [2] . « فوجود المخلوقات هو عين وجود الخالق ، وجميع الاشياء تفيض من الحضرة الالهية كما تفيض مياه السيل من منبعها . وباستطاعة النفوس بتطور معاكس ان تعاود انضمامها الى الذات الالهية واندماجها فيها . وكأن ابن عربي بفلسفته هذه قد ثبت النزعة الصوفية السابقة القائلة بالحلول .

وقد كان فقهاء السنة قبل هذا التطور الجديد في الافكار الصوفية، وبعد حادثة الحلاج قد رأوا ان يتخذوا من الصوفية وانتشارها بين الطبقات المتوسطة وسيلة لتثبيت معتقداتهم السنية مقابل الافكار الشيعية . فوافقوا بعد تردد وتحفظ على المبادىء الصوفية على شرط ان تكون منسجمة في طقوسها مع الطقوس السنية وان يخضع اتباعها للتعليم الديني السني المعروف. وقد كان لهذا التلاقي في التاريخ في القرن الثاني عشر الميلادي نتائجه الخيرة ، اذ كان كثير من المتصوفة حلفاء للعلماء في ابقاء المجتمع موحداً دينياً ، واخذوا على عاتقهم نشر الدين الاسلامي في

«١» Encyclopédie De L' Islam: Art. Ibn Arabi

هو أبو بكر محمد بن علي محي الدين الحاتمي الطائي الاندلسي . ولد عام ٥٦٠هـ = ١١٦٥م في مرسية في اسبانيا . ودرس الفقه في اشبيلية وسبتة ثم غادر بلاده الى تونس فبلاد المشرق . فزار مكة وبغداد وحلب وآسية الصغرى . وكانت شهرته تسبقه فيستقبل بحفاوة بالغة ، ثم استقر في دمشق حيث توفي سنة ٦٣٨هـ = ١٢٤٠م .. وأشهر كتبه «الفتوحات المكية ». وقد لخصه في القرن العاشر الهجري الشعراني .

«٢» Encyclopédie De L' Islam. Art. Tasawwuf

البلاد التي ضمها المجتمع الاسلامي مؤخراً اولم يتغلغل فيها التغلغل الكافي كآسية الصغرى والهند واندونيسيا[1] .

وفي هذه الآونة التي تضاعف فيها نشاط الفرق الصوفية نشأت «الفتوات» . وقد تشكلت هذه الاخيرة في آسية الصغرى وفي البلاد العربية في عهد الاضطراب الذي رضخ له العالم الاسلامي بين معركة ملاذ كرد عام ١٠٧١م وظهور السلطان سليم . وكان هدفها الجهاد الديني المقدس ضد الغزاة من التتر والصليبين وأعداء الدين داخل البلاد وخارجها . ووجدت آراء المتصوفة في هذه الفتوات – الجماعات التي تتصف بصفات الفتوة – أرضاً خصبة لتنتشر فيها لتلاؤم مبادئها مع مبادىء الفتوة الاسلامية الاولى . « فعندما ظهر التصوف ظهرت فيه مع فضيلة التقوى مجموعة من الفضائل الاخرى المستمدة من الفتوة ، وعندما كمل نموه قويت فيه الفكرة الأساسية التي امتازت بها الفتوة الاسلامية القديمة وهي فكرة الايثار والتضحية واعتبرها المتصوفة من أوائل مبادئهم ، وأضافوا اليها صفات اخرى متصلة بها مثل كف الأذى وبذل الندى وترك الشكوى وإسقاط الجاه والعفو عن زلات الغير وهي أسس التصوف الملامتي »[2] .

ولكن كان هناك مايقلق في عمل المتصوفة الأخير هذا بخاصة بعد انتظامها في طرائق محددة ، ولا سيا ان القادة في الحركات الدينية هذه كانوا رجالاً ذوي

«١» Gibb & Bowen: part II. p. 75

«٢» الدكتور أبو العلاء عفيفي. الملامتية والصوفية وأهل الفتوة . ص ٢٥–٢٦ . الملامتية فرقة من فرق الصوفية ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بمدينة نيسابور . وهي صورة من صور الزهد ويعمل سالكها برياضة نفسية تؤدي الى انكار الذات ومحو علائم الغرور الانساني ، واطفاء جذوة الرياء في القلب . وهي تحارب كل مظاهر التصوف التي سبقتها وتحاول الرجوع بالزهد الاسلامي الى سيرته الاولى البسيطة .

ثقافة دينية ضيقة ، ومعرفة قليلة بطقوس السنة ومعتقداتها على الرغم من اخلاصهم للهدف الذي يعملون له ، اذ كانوا في معظم الاحوال من الشعب نفسه الذي يبشرون ضمنه ، وبالطبع كانوا يشاركونه قبل بدء حياتهم الدينية الجديدةمعتقداته الدينية العميقة وعاداته . ولا بد ان هذه الأسس العميقة كانت تظهر نفسهابصورة لا شعورية في نزعتهم المتراخية في تطبيق المبادىء السنية للدين الاسلامي وفي مزجهم معتقداته بافكار من باطنهم وأعمال لا تتلاءم معه . وهذا يعني ان الدين بسنيته لم يستعمق في نفوس تلك الجماعات المبعثرة في اطراف العالم الاسلامي رغم اسلامها ، لأن مفاهيمها عن السنة قد أخذت من تعاليم القادة المشار اليهم ومن اتباعهم . فأحاطت هذه الجماعات دعاتها هؤلاء بهالة من القدسية ورفعتهم فوق مرتبة العلماء السنيين الرسميين .

وبالطبع لم يحسب الفقهاء السنيون عندما أفسحوا المجال بوفاقهم مع المتصوفة السنية حساب الطوفان الذي بدأ يجتاحهم كيفا وكما من قبل الطرق الصوفية المختلفة . وكانوا لا يريدون أن يحولوا نزاعهم الى نزاع دموي ، فوجدوا أن الوسيلة الوحيدة للوقوف في وجه الطرق الجديدة العديدة التي أخذت تظهر وتنتشر بطقوس وأفكار لا حصر لها ، هو استخدام نفوذ الطرق المعتدلة منها والعمل على توسيع دائرة عملها ، ومضاعفة تأسيس المدارس السنية ، وتقوية وسائل نشرها الديني وتعليمها . وما العدد الضخم من المدارس التي أنشئت في القرنين الثامن والتاسع الهجريين وفي سورية بالذات سوى تحقيق لهذا الهدف وتعبير عن هذه السياسة . (١)

وفي الوقت الذي كانت الصوفية فيه تنتشر ويتسع اطار عملها كانت الدولة العثمانية تظهر على مسرح التاريخ . وقد تعرفت هذه الدولة وهي توطد دعائم ملكها

«١» Gibb & Bowen: part II. p. 76

في آسية الصغرى اولا ثم في العالم العربي ثانيا على الأنواع الثلاثة للصوفية . اولها المعتدل ويتمركز في سورية ومصر وقد ترابط مع فرقة العلماء وتوافق ، ويمثل هؤلاء النخبة المتفلسفة المتعمقة من الصوفية . وثانيها صوفية الجماعات الريفية على الحدود ومعظم اتباعها من المعتنقين الجدد نسبيا للدين الاسلامي ، وجميعهم قد امتزجت التعاليم السنية والصوفية في أذهانهم بمعتقدات سابقة غريبة عن الدين ، مما جعلهم متساهلين ومتسامحين في أمور الدين اكثر من غيرهم وأقرب في طقوسهم الى الكفر من الايمان . وثالثها جماعات صوفية هي وسط بين الاثنين وهي الجماعات المهنية والشعبية في المدن والارياف ، وهي اكثر سنية من الثانية واكثر سطحية من الأولى . وهذه الجماعات الأخيرة قد حولت المفاهيم الصوفية العقلية والروحية الى تعبيرات عملية وأسس اخلاقية تسير حياتها الاجتماعية . وهي تتبع تقاليد معينة وتمارس رياضة نفسية خاصة تحت اشراف شيوخها المحليين .

ولقد عملت الدولة العثمانية منذ نشأتها على حماية هذه الفرق في اراضيها اولا ولاسيما فرقتي (البكتاشية) و (المولوية) . وقد انتشرت الطريقة الأولى اكثر مما انتشرت في آسية الصغرى وتسرب بعض شيوخها بعد الفتح الى بلاد الشام حتى انه لايزال في دمشق حتى الآن اسرة باسم آل بكداش . ولا يعرف في الواقع متى شكل البكتاشيون بالضبط طريقتهم وانهوا تنظيمها ، ولكن يمكن ارجاعها بشكلها المنظم الى بدء القرن الخامس عشر (١) . ولعلها كانت في بادىء الامر تتألف من متصوفة افاقين (يتنقلون ويتجولون) يعملون بشكل متفرق ، ويساعدون الدولة في فتوحاتها . وتنسب هذه الفرقة نفسها الى « حاجي بكتاش » والمعلومات عن هذ الولي معلومات خرافية اكثر منها واقعية . ويقال انه كان تلميذا (لبابا اسحاق) زعيم الحركة الصوفية الباطنية بين قبائل الاناضول في منتصف القرن الثالث عشر

«١» Encyclopédie De L' Islam: Art. Bektash.

ومهما يكن فقد اختاروه ولياً لهم وبنوا تكيتهم الرئيسية بالقرب من ضريحه في قره شهر بين انقرة وقيصرية [1]

والمعروف ان (الحاجي بكتاش) بارك في عهد السلطان اورخان تأسيس الجيش الانكشاري وذلك بوضع كمه على رأس واحد من افراده . ورغم ان الرواية اسطورية اذ ان الحاجي بكتاش قد توفي قبل ان يفكر بانشاء الجيش الانكشاري فان الانكشارية اتخذوه ولياً لهم . وعمل المتصوفة الأفاقون من طرفهم على اخذ جيش المشاة الجديد تحت حمايتهم الروحية كما كانوا فاعلين سابقا بالقبائل التركية المحاربة . وهكذا اصبح الاسم الثاني للانكشارية هو « ابناء حاجي بكتاش » [2]

ولعل انتساب الانكشارية لهذه الفرقة بالذات يعود الى انها كانت في معتقداتها قريبة جدا من المسيحية التي خرج منها الانكشاريون انفسهم. فالبكتاشية كمعظم الطرق الصوفية تقول بالمساواة الاصلية بين الديانات وعدم فائدة الطقوس الدينية . ومع ادعائهم انهم من السنة وينسبون إلى ابي بكر فانهم في الواقع شيعة متطرفون يقدسون عليا ويعترفون بالائمة الاثني عشر ، ويكنون احتراما خاصة لجعفر الصادق . ومن ثم كانت معتقداتهم قريبة جدا من معتقدات القزيل باش في شرقي آسيا الصغرى . [3] ويلاحظ ان اضرحة الاولياء مقدسة جدا لديهم حتى ان زياراتهم لها تحل محل الصلاة العادية . وان الافكار المسيحية في آرائهم تجعل الاعتقاد سائدا بأنهم كانوا في اصلهم مسيحيين واعتنقوا من الدين الاسلامي مظاهره فقط . فهم يقولون بالاقانيم الثلاثة ولوان اسماءها هنا متغيرة (الله ــ محمد ــ علي) . وفي احتفالاتهم يحتفلون بما يشبه العشاء الرباني الاخير يتقاسمون فيه النبيذ والخبز

«١» Encyclopédie De L'Islam: Art. Bektash

«٢» Gibb & Bowen : part. II. p . 191

«٣» Encyclopédie De L' Islam: Art. Bektash

والجن ، كما أنهم يعترفون بخطاياهم على النمط المسيحي الى كبارهم [١] .

وقد لعبت البكتاشية دوراً سياسياً كبيراً لاتحادها مع الانكشارية . وربما يكون هـذا هو السبب الذي منع السلطات السنية من ملاحقتهم ، اذ ان معتقداتهم في الواقع مخالفة للأسس الاسلامية السنية ، ولعل تقيتهم ساعدتهم كذلك في هذا المنحى . ومهما يكن فانه منذ نهاية القرن العاشر كان الرئيس العام للطريقة البكتاشية قد نال رتبة شرفية ، وأصبح ثمانية من دراويشهم يقيمون في ثكنات استامبول لتأدية الصلوات اليومية لرخاء الامبراطورية ونصرة جيوشها . وفي الاحتفالات كانوا يسبقون الآغا على أقدامهم مرددين أدعية جماعية [٢] .

وبذلك تم الاعتراف الرسمي برابطة الانكشارية بالبكتاشية ، وبالطبع ازداد نفوذهم وانتشارهم بعد هذا التاريخ ، وانتقلت طريقتهم الى بلاد الشام عن طريق القوات الانكشارية فيها ،واتسعت عندما اصبح الانكشاريون المحليون يؤخذون من الطبقات المتوسطة الدنيا وبذلك تغلغلوا في الصناعات المختلفة وامتزجت آراؤهم بالأخوات الصناعية .

ولم تتبن الدولة العثمانية الطريقة البكتاشية من الطرق الصوفية فحسب وانما حمت كذلك وساعدت « المولوية » التي يطلق على أتباعها ايضاً اسم « الدراويش الراقصين » . وسموا بذلك للرياضة الخاصة التي يقومون بها كجزء من نظامهم وهي دوران الواحد منهم على نفسه وعلى قدمه اليمنى فقط أثناء قيامهم بالذكر ، وعلى انغام الموسيقا حتى يتحول الدوار الذي يحس به الى نشوة . ويرافق هذه الوسيلة في نظامهم الصلاة والصيام والتعبد للوصول الى الاشراق الصوفي .

وتشتق « المولوية » اسمها من كلمة «مولانا» وهو لقب اعطي لجلال الدين

«١» Encyclopédie De L' Islam: Art. Bektash.

«٢» Gibb & Bowen. Part II. P. 193

الرومي مؤسسها. وكان من اشهر متصوفة القرن السابع الهجري (الثالث عشر)، وقد اقام في البلاط السلجوقي في قونية وجذب اليه أنصاراً كثيرين من «الأخية»[1] ومن موظفي الحكومة ورجال الفقه، ولقد طعنت السنة بهذه الفرقة لاستخدامها الرقص والموسيقا. ويقال ان جلال الدين قد التجأ الى هذه الطريقة لأنه كان يعرف أن سكان آسية الصغرى يميلون الى الرقص والغناء مما يمكنه من جذبهم الى آرائه[2]. وقد كانت المولوية من الفرق المتسامحة مع الديانات الأخرى وبخاصة المسيحية[3]، وتميل الى التوفيق بين جميع الديانات على أساس فلسفي. وقد حاولت أن تبعد عن نفسها الشك الذي يمكن ان تطرحه معتقداتها عليها، إلا أنها هوجمت من قبل السنة حتى قيل ان السلطان سليم وهو يتقدم عام ٩٢٢ هـ لملاحقة الفرس امر بهدم خانقاه المولوية تحت تأثير مفتيه «الجمالي». وعلى الرغم من أن الأمر لم ينفذ فان السلطة المعنوية والدينية لرؤساء هذه الفرقة قد ضعفت. الا انه منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر عادت علاقاتهم للتحسن مع السلطنة العثمانية، وازداد نفوذهم في القرون التالية حتى غدوا يشاركون في «شد» السلطان الجديد بتقديم خنجر له عند وصوله الى العرش. وقد عملت الدولة في الواقع على تشجيع هذه الفرقة لتوجد التوازن مع كفة البكتاشية الراجحة ذات النفوذ القوي لدى الانكشارية[4].

وقد دخلت المولوية الى بلاد الشام بعد الفتح العثماني اذ لا ذكر لزواياها

«١» الأخية أو الأخيتم بعض جماعات الفتوة في آسية الصغرى. وقد تكلم عنهم ابن بطوطة في رحلته.

«٢» Encyclopédie De L' Islam: Art. Mawlawiya

«٣» Hasluk: Christianity & Islam Under The Turks .II. p. 370

«٤» Gibb Bowen: Part II. P. 195

قبل ذلك ولكن هذا لا يمنع من وجود مؤيدين قبل هذا التاريخ لجلال الدين الرومي ، لأن التبادل الثقافي كان قائماً في عهد المماليك بين السلاجقة الأتراك وبلاد الشام ومصر ، وقد عمل الاول على هجرة المتفقهين المسلمين اليهم . وبعد ان عملت الدولة العثمانيـــة على تشجيعهم ازداد انتشارهم حتى كانت لهم زاويتهم في دمشق وحلب والقاهرة .

ومن هذا يتضح ان الدولة العثمانية كانت تؤيد رسمياً وتعتمد على طريقتين كبيرتين من الطرق الصوفية ، كما انها حمت جميع الطرق الأخرى. وبنفس الوقت شجعت طبقة العلماء على زيادة ترابطهم مع هذه الاخوات الصوفية . وقد ادى تلاحم التيار الفكري الصوفي مع التيار السني في مطلع الحكم العثماني لبلاد الشام الى اتساع الساحة التي اكتسبها التصوف، حتى ان عدداً كبيراً من العلماء أنفسهم انخرط في الفرق العديدة المتصوفة ولحقت بهم جميع طبقات المجتمع الاسلامي. وغـــدا للتصوف مراكز دائمة ونشاط مستمر وأصبح من الطبيعي جداً بالنسبة لذلك العصر أن يربط كل فرد نفسه بطريقة من الطرق ، واذا لم يحدث هذا فانه كان يعتبر امراً مستغرباً. وهكذا يظهر للباحث أن التيارين الفكريين السني والصوفي ، وهما يختلفان في كثير من الآراء والمعتقدات ، كانا يقومان جنباً الى جنب في المجتمع الاسلامي السوري في منتصف القرن العاشر للهجرة ، بل كان ينظر اليها وكأنهما تيار واحد .

ولا بد قبل التطرق الى بحث الفرق الصوفيـــة الكبرى في بلاد الشام ومعتقدات بعضها من الاشارة العابرة الى طريقة تعليمهم العامة وتلمذة الفرد لديهم: فلكي يدخل الواحد في طريقة صوفية أي يصبح « مريداً » عليه ان يبدأ برياضة روحية تحت اشراف من اكثر منه علماً وعرفاناً من اهل الطريقة. ويتلقى اجازة الدخول من رئيس التكية المسمى بالشيخ أو (البير) (بالتركية) وذلك

بحضور آخرين . وتجري احتفالات الشد والقسم على نحو يشبه ماذكر عند الكلام عن الأصناف . وبعد انتهاء الاحتفال يعطى الدرويش (الفقير) ثياب الفرقة الخاصة بها (الخرقة) والقلنسوة اللذان يتميز بهما اتباع كل طريقة عن اتباع الطريقة الأخرى .

ويعتبر الصوفيون انفسهم فكريا أحفاداً لكبار المتصوفة الأول ، ومن ثم فان كل مريد يتلقى مع فرقته « سلسلة » نسبه الروحي . وهذا يشبه ما كانت تفعله طبقة المحدثين باسناد الأحاديث . وسميت أنساب الدراويش المسلسلة « بالسلسلة » ، وتختلف من طريقة الى أخرى في حلقاتها الأخيرة . ولكنها جميعاً - ماعدا ثلاثاً منها (البسطامية والنقشبندية والبكتاشية وهذه الأخيرة تدعي رجوعها الى أبي بكر) - ترجع الى الخليفة علي . وأبرز من في السلسلة المؤسس الأكبر للطريقة ، وتكيته تبنى عادة على ضريحه الذي يصبح مزاراً . وهدف الرياضة الروحية في جميع الفرق الوصول الى تماس مع الله : ويظهر هذا التماس بـ « الكرامات » فالكرامات تزود المتصوف بقوى خارقة يمكنه من خلالها قراءة الغيب ، وبذلك يكتسب صاحبها لقب « ولي » ويعمل الناس في حياته على التبرك به وبعد وفاته يزورون قبره ويتطلبون حمايته وتدخله في حل مشاكلهم وشفاعته [1] .

وهكذا عرف كبار المتصوفة بالاولياء ، وقد وضع بينهم جميع الرسل من آدم الى محمد . وان اعتقاد الناس بصفة القدسية هذه أدى الى اعتقاد آخر وهو ان هناك عدداً ثابتاً في العالم من الأولياء الذين يسمون بـ « أهل الغيب » ، وهم يتدرجون في مراتب يقوم على رأسها احد عمالقة المتصوفة ويسمى في لغتهم

«1» Gibb & Bowen: Part II. 187

بـ « القطب » او « الغوث » . وعدد اهل الغيب الأحياء يبقى هو الآخر ثابتاً وذلك بدخول عدد جديد من الأولياء عند موت الآخرين . ولكن هوية هؤلاء تبقى سراً لايعرف بوجودهم إلا الاولياء الاحياء أنفسهم . وقد آمن المتصوفة بأن العالم مستمر في وجوده بسبب تدخلات هؤلاء الاولياء ورعايتهم[1] .

ومن اشهر الطرق الصوفية التي انتشرت في سورية في العهد المملوكي. وكان لها زواياها وخوانقها وربطها عند فتح السلطان سليم لبلاد الشام الفرقة (القلندرية)، وهي فرقة غير نظامية انتشرت في القرن الثاني عشر في جميع انحاء العالم الاسلامي الشرقي،ويبدو أنها تأثرت بتعاليم الملامتية، الا أن أتباعها يختلفون عنها بسلوكهم . فقد كانوا يتجولون في الطرقات وشعور رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم محلوقة [2] ، ويتنقلون على اقدامهم من مكان الى آخر بالرايات والطبول. جاذبين اليهم الناس بظاهراتهم هذه وسلوكهم . وكانوا يتسولون ليعيشوا ، ولم يكن لهم مصالح دنيوية ولا يفكرون بالغد . ولما كان معظمهم من الطبقات الدنيا فانهم لم يكونوا متقفين ثقافة عالية وغير قادرين على تفهم المعاني السامية الجميلة في الفلسفة الصوفية . وكانوا يؤمنون بالحلول (حلول اللاهوت في الناسوت) وتناسخ الارواح،وان ليس هناك في الحياة من عمل شرير او غير مشروع[3] . فهم يتبعون بأفكارهم القسم الباطني المتطرف من التصوف . وقد تغلغل دعاة هذه الفرقة في اول نشأتها بين القبائل التركية في بلاد الأناضول وأسهموا في «الأخيات» وكان لهم تأثيرهم الكبير على الدولة العثمانية وهي تبني ذاتها . ولكن هذا التأثير أخذ بالاضمحلال التدريجي كلما ازداد سلاطين بني عثمان سنية حتى ان كثيراً من

«١» Gibb & Bowen:Part II. pp. 187 - 188

«٢» النعيمي . الدارس في أحوال المدارس . ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

«٣» Glbb & Bowen. Part II.P. 188

اتباعها أصابهم رشاش المذبحة التي دبرها السلطان سليم للشيعة في بلاد الاناضول لأن كثيراً من معتقداتهم لاتختلف عن معتقدات القزيل باش المتشيعين [1].

وقد كان للقلندرية في دمشق عند الفتح العثماني زاويتان احداهما زاوية القلندرية الدركزينية والثانية الزاوية القلندرية الحيدرية . ويذكر النعيمي أن الأولى تنسب إلى الشيخ جمال الدين الساوجي الذي وفد دمشق في القرن السابع للهجرة ثم غادر دمشق إلى دمياط وأظهر من الكرامات ماجعل أهل المدينة يؤمنون به . وقد قاوم العلماء السنة هذه الفرقة في عهد الأشرف قايتباي فأنكروا عليهم أفعالهم ونفوهم [2].

أما القلندرية الحيدرية فهي على شاكلة الأولى بمعتقداتها الا أن من شعائرها لبس الفراجي والطراطير وقص اللحى دون الشوارب وهو خلاف السنة [3].

ومن الطرق الكبرى التي كان لها زوايا في كثير من المدن السورية ومنها دمشق، (القادرية) [4]. وهي أقدم فرقة صوفية نظامية أسست في بغداد عام ١٢٠٠م (٥٩٧ ه) ، وكانت أكثر انتشاراً في جميع أنحاء العالم الاسلامي من جميع الطرق الأخرى لكونها أكثر ميلاً وانسجاماً مع المعتقدات السنية . وتنسب الى عبد القادر الجيلاني [5] الحنبلي الملقب بالباز الأشهب. وقد كان يدعو في مواعظه الى ضرورة تجرد كل فرد من ارتباطاته الدنيوية والتوجه إلى الله لأن الدنيا ليست

«١» Gibb & Bowen Part II. P. 189

«٢» النعيمي . الدارس في أحوال المدارس . ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

«٣» النعيمي . نفس المصدر . ج ٢ ، ص ٢١٢ .

«٤» Encyclopèdie De L' Islam. Art. Kadiriya

«٥» ولد عام ٤٧٠ه في قرية نيف من مقاطعة جيلان جنوب بحر قزوين . وقد تفقه في بغداد وقام بالوعظ فيها وطارت شهرته في كل الأصقاع وازداد مريدوه. وعندما توفي عام ٥٦١ه أحاطوا حياته بهالة من التقديس والأساطير .

إلا ستاراً بين الله وعباده . وقد نسبت إليه كرامات كثيرة وانتشرت طريقته في سورية بفضل محمد البطائحي وتقي الدين محمد اليونيني من بعلبك [1] . ومن أتباعه الشهيرين في الحقبة السابقة للفتح العثماني أبو بكر داود الذي توفي عام ٨٠٦ هـ وإليه تنسب الزاوية الداودية التي كانت أعظم زوايا الصالحية في دمشق وأكثرها نشاطاً . وقد ورث ابنه عبد الرحمن العمل من بعده وكان ناسكاً عالماً كأبيه مجيداً للطريقة ومتفهماً للحقيقة. وقد، وسع الزاوية وجعل لها مسجداً بخلاوي، ومساكن للنساء،وبيتاًللكتب الموقوفة ورتب فيها الأوراد في كل يوم وليلة وجعل لها الأوقاف وعمر بجوارها مدرسة ، وتوفي عام ٨٥٦ هـ» . ولكن هذه الزاوية ذبل نشاطها في مطلع العهد العثماني لأن حفيد الأسرة كان ذادبون [2] .

ومن الطرق المنتشرة كذلك في الشام وكان لها أتباعها (الحريرية) نسبة إلى علي الحريري الفقير الدمشقي المتوفي عام ٦٦٥ هـ . وقد بدت منه أفعال أنكرها عليه الفقهاء كخلع العذار وجمعه في مجلسه الغناء الدائم والرقص والمردان حتى ترك الصلاة ، فسجن مدة سنين ثم أطلق سراحه على ألا يقيم في دمشق . وقد انتشرت طريقته في حوران انتشاراً واسعاً [3] .

وإلى جانب الحريرية قامت (الرفاعية) وهي ليست كالحريرية من أصل شامي وانما من أصل عراقي . وتتميز عن غيرها من الطرق بأنواع العذاب التي يفرضها أنصارها على أنفسهم فهم يحرقون أجسادهم بالنار ولا يؤذون ، ويضربون أنفسهم بالشيش (قضيب حديدي مدبب أو رمح) ولا يصابون ، وهذا من كراماتهم.

«١» Encyclopédie De L' Islam: Art. Abd - Al - kadir Aldjilani

«٢» عبد القادر بدران : منادمة الاطلال ومسامرة الخيال . ص ٣٠٣ .

«٣» النعيمي . ج ٢ ، ص ١٩٨ .

وكان لهذه الطريقة شعبيتها في بلاد الشام بخاصة ولها زاوية في دمشق وحمص وغيرها من المدن[1]. وقد كانت أما لفرق عديدة أشهرها في الشام الفرقة (السعدية) أو (الجباوية) وقد أخذت اسمها من مؤسسها سعد الدين الجباوي [2] (تتراوح سنة وفاته بين ٧٠٠ – ٧٣٦ هـ)، ومعظم المعلومات عنه اسطورية. وبحسب ما ذكره «المحبي» كان أبوه الشيخ (يونس الشيباني) رجلاً صالحاً تقياً. ويرجع بسلسلته إلى الجنيد فسري السقطي فمعروف الكرخي وائمة أخر حتى بيت الرسول . وكان بنو سعد الدين يكوّنون في دمشق طائفة معروفة بتقاها، ويملكون زاوية في حي القبيبات خارج دمشق، واشتهر عنهم انهم يشفون من الجنون وان هذا غريزة في اصلهم وفصلهم [3]، فهم يسطرون على الورق خطوطاً ويجعلون منه حجاباً، ويشفى المريض بشربه الماء الناجم عن نقع ذاك الحجاب فيه. وهم يمارسون في احتفالات المولد النبوي ما يسمى بـ «الدوسة» ويمر خلالها شيخ الطريقة على ظهور الدراويش المنبطحين ارضاً دون ان يشكو احدهم ألماً. وقد كانت هذه الفرقة جمة النشاط في مطلع العهد العثماني وظهر من شيوخها الشيخ حسين المتوفي عام ٩٢٦ هـ ثم ابنه الشيخ أحمد المتوفي عام ٩٦٣ هـ وكان له احترامه وكلمته المسموعة بين الناس والحكام رغم ضيق ذات يده [4]

ويضاف الى القادرية والجباوية والرفاعية طرق أخرى عديدة شامية الأصل

«١» Encyclopédie De L' Islam: Art.Sa'diya.

«٢» المحبي . خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر . ج ١ ، ص ٣٤ .

«٣» النعيمي . ج ٢ ، ص ٢٢١ .

«٤» الحسن البوريني . تراجم الأعيان . ج ١ ص ٤٠

أو متفرعة من فرق كبرى غير شامية كاليونسية [1] والشاذلية [2] . وان الزوايا والربط والخوانق التي يعددها النعيمي في دمشق وحدها تعطي فكرة واضحة عن مدى انتشار الصوفية بطرائقها المتنوعة في بلاد الشام قبل الفتح العثماني . وقد بقي هذا التيار الفكري — الاجتماعي بتفرعاته العدة نشيط الجريان بعد الفتح العثماني ولاسيما وقد أشير الى حماية الدولة لهذا التيار . ولا ادل على ذلك من تكريم السلطان سليم لشيخ متصوفة دمشق وأعمقهم فكرا الشيخ محي الدين بن العربي ببناء مسجد على ضريحه وتكية الى جواره ، كما عمل الولاة من طرفهم على ملاحقة كل من يتعرض لآرائه بسوء . [3] وبذلك تكون الدولة العثمانيـــة وكأنها شجعت الأفراد على الانخراط في الأخوات الصوفية المختلفة .

وفي الواقع ان الثقافة الشعبية آنذاك كانت ثقافة مستمدة من تلك الأخوات : فالشبان بعد ان حفظوا القرآن ودرسوه في طفولتهم ، اما ان يتابعوا العلم الديني الواسع ويحققون ثقافة رفيعة ويغدون من العلماء أو ينخرطون — وهم الاكثر عددا — في العمل الزراعي أو الصناعي أو التجاري . وفي هذه الحالة لم يكونوا

«١» نسبة الى يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني (المتوفي عام ٦١٩هـ) المولود في قنية قرب ماردين . ويذكر النعيمي (ج ٢ ، ص ٢١٤ — ٢١٥) على لسان الذهبي أن الشيخ كان تقياً ، ومن أولي الحال والكشف . أما جماعته فهم شر طوائف الفقراء ولهم أعمال تدل على الاستهتار .

«٢» نسبة الى أبي الحسن علي الزرويلي الملقب بالشاذلي ربما نسبه الى شاذلة في تونس حيث يظن أنه ولد في عام ٥٩٣هـ . وقد توفي في مصر أثناء عودته من الحج عام ٦٥٦ هـ .

وقد انتشرت هذه الطريقة أكثر ما انتشرت في شمالي أفريقية .

«٣» الغزي . الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ٤٩ . ويذكر أن تكفير أحد العلماء لابن عربي كاد يؤدي الى قتله .

ينقطعون عن تثقيف أنفسهم دينياً بل يتابعون دراستهم في الأخوات الصوفية المرتبطة بأصنافهم .

ولم يقتصر تشجيع الدولة العثمانية للتيار الصوفي على السماح للزوايا القائمة بممارسة نشاطها ، وانما أفسح المجال أمام فرق جديدة للتكون والظهور . ففي عهد السلطان سليم نفسه الذي أمر اثر معركة مرج دابق بقتل مشايخ المتصوفة المرافقين لقانصوه الغوري ، تشكلت طريقتان صوفيتان جديدتان في دمشق ، احداهما الطريقة العمرية ، والثانية الصمادية ، وتصرفات الطريقتين لا تتلاءم مع المعتقدات السنية . فالأولى أسسها عمر الاسكاف الحموي (٩٥٨ هـ) الذي اشتهر أمره في أول تولية السلطان سليم ، وبنى لنفسه زاوية في دمشق عام ٩٢٨ هـ ، وكان يدعي بانه يربي الفقراء : فيأمرهم ان يلبسوا الفروة مقلوبة ، ويركبوا القصبة ويعلقوا في رقابهم معلاق رأس الغنم ويدوروا بذلك في شوارع دمشق لأجل كسر النفس وهم يرددون التسابيح بأعلى صوتهم . وانضم اليه اتباع كثيرون من دمشق وضواحيها [1] .

أما الصمادية فقد أنشأها الشيخ محمد بن الشيخ خليل الصمادي في عام ٩٣٢ هـ وجعل لها زاوية . وكان قد اجتمع مع السلطان سليم أثناء سفره الى بلاد الشام بعد عودته من القاهرة ، وعين له السلطان قرية كناكر في وادي العجم وغلالها وقفا [2] وكان للناس فيه اعتقاد وخصوصاً الأروام ، وكان أتباعه يضربون الطبول في حلق الذكر [3]

ومن كل ما ذكر يبدو لنا المجتمع السوري الاسلامي في القرن العاشر

«١» النعيمي . الدارس في احوال المدارس . ج ٢ ، ص ٢١٧ .
بدران . منادمة الاطلال . ص ٣٤٥ .

«٢» بدران . منادمة الاطلال . ص ٣٨٢ .

«٣» النعيمي . الدارس . ج ٢ . ص ٢٢٠ .

وتتنازعه في نطاق التيارات الثلاثة ـ التي اشير اليها في مطلع الفصل ـ ميلات فرعية عديدة لاحصر لها . فالفكر الاسلامي آنذاك كان كنسيج ملون تلويناً غنياً فهناك القرآن والحديث والفقه السني بمذاهبه الأربعة ، ومعتقدات الصوفية الملامتية ، وتصوف الحلاج ، وتفسيرات الباطنية الشيعية ، ووحدة الوجود لابن عربي ،ومثنوي[1] جلال الدين الرومي، والطرق الصوفية العديدة بكراماتها وعلمها للغيب وتقديسها للأولياء الأموات منهم والأحياء . وربما يكون التلوين غنياً كما ولكنه ذابل اللون منطفيء البريق كيفا . ولم يحمل هذا التلاطم الفكري طبقة معينة من الشعب وانما الشعب بمجموعه . وكان اللون الأوضح في بدء العهد العثماني هو الصوفية إذ ان العلماء انفسهم آمنوا بالأولياء بل ان بعضهم كان مرشحاً لهذه الرتبة ، كما انهم لم يكونوا ليعلوا عن الشعب في قراءة ادب الكرامات وفي الاستماع الى ما يقوله الناس بهذا الشأن باصغاء ، بل ان كثيراً منهم كان يقوم بطقوس الصوفية، وكان اذا حاول احدهم معارضة الأولياء فان زملاءه العلماء يتبرون له ويشنون هجومهم عليه ويظهرون عدم تأييدهم له كما حدث للشيخ يونس العيثاوي الشافعي إمام احد المساجد في دمشق وخطيبه . اذ أنكر هذا الشيخ على اتباع الشيخ الصمادي ضربهم الطبل في حلقة الذكر . فقام عدد كبير من الشيوخ الشافعية والحنفية وحتى الحنبلية يردون عليه بأن هذا العمل لاينكر أبداً لأن ما ينكر هو ضرب الطبول في المساجد وهذا لم يقع من الصمادية فهم يضربون طبولهم في الطرقات عند قدوم اقاربهم وملاقاتهم في وداعهم حين السفر ،ويضربونها في زواياهم وبيوت مريديهم[2] .

«١» هو الانتاج الرئيسي لجلال الدين الرومي . وهو قصيدة كبيرة في ستة كتب تبحث في الافكار والآراء التي تؤيد وتشرح عقيدته الصوفية .

«٢» النعيمي . الدارس ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

ومن هذا يتبين أن المستوى الفكري العام قد انحطت وانشغلت الأذهان بالهنات عن القضايا الكبرى ، كما ان المعارضة السنية « العاقلة » قد خبت صوتها بالتدريج وتلاشت امام تفشي الخرافات والبــــدع الجديدة ، وسيطرت الفرق الصوفية الشعبية التي لم تحتفظ من الصوفية الاولى الا ببعض مظاهرها التنظيمية . وغدا معظم العلماء في القرن السابع عشر منتمين لاحدى الفرقتين السنيتين اللتين ستنتشران انتشاراً كبيراً في انحاء الامبراطورية العثمانية وهما (الخلوتية) و (النقشبندية) حتى غدا من الصعب التمييز بين المسجد والزاوية[١] .

واذا كانت الوحدة الفكرية قد قامت في المجتمع الاسلامي نتيجة طغيان التيار الصوفي على جميع الأفكار حتى المسيحية منها[٢] ، واذا كان العثمانيون يعتبرون هذا في رأيهم كسباً معيناً ضد مايمكن أن ينتشر من افكار شيعية او آراء تحررية ، ونصراً على الانقسام الفكري الديني ، فان للأمر في الواقع نتــــائجه الخطيرة . واولها ان عدداً كبيراً من افراد المجتمع قد انتسب للطرق الصوفية والتحق بمدارسها وتكاياها وانصرف انصرافاً كلياً للعبادة والزهد ، وبذلك خاع على المجتمع عقول تفكر بحرية تامة ، وأيد عاملة ضرورية لبناء كيانه . كما ان المفاهيم الصوفيــــة الرفيعة لايمكن ان يفقهها كل فرد فليس كل درويش صوفياً . فالأهالي العاديون لايرون في الولي افكاره الفلسفية العميقة وعلمه الغزير وانما يرون فقط قواه الخارقة التنبؤية وكراماته الخاصة . ولا ننكر ان السنة الحقيقية بتفكيرها المتزن الهادىء ، والصوفية التأملية ظلت تسري ولو بشكل ضعيف بين طبقة رفيعة محدودة العدد

«١» Gibb & Bowen: Part II. P. 197

«٢» اذ ان الاخوات الحرفية كانت تضم المسلمين والمسيحيين على السواء فلابد ان يكون المسيحيون قد تأثروا ببعض ما اتت به تلك الطرق بخاصة وان الصوفية كمبدأ عام لا تفرق بين الديانات .

من العلماء ، الا ان اثرها كان شبه معدوم في الكتل الشعبية التي اعجبها من الصوفية حلقات الذكر ، وترديد الأوردة والأدعية ، والتمسح بقبور الأولياء وشرب القهوة وتعاطي بعض المخدرات .

ومما يدل على تدني المستوى الثقافي الشعبي آنذاك اعتقاد الناس بالتنجيم رغم أنه عمل لم يقره الشرع ونهى عنه ، وايمانهم بالسحر والحجب والتمائم في شفاء المرضى . والأنكى من ذلك احترامهم او خشيتهم من فئة المجانين . فقد اخذ الناس يعتقدون ان هؤلاء متجردون عن الارتباطات الدنيوية بشكل طبيعي عفوي دون اللجوء الى طرق الرياضة الروحية المتنوعة ، فلهم اذن كراماتهم . فكلمة « مجذوب » وهي لفظ صوفي يعني الانجذاب الى طرق الخير والصلاح اصبحت تعني في بلاد الشام الفرد غير الطبيعي عقلياً اي الأبله او المجنون ، فالمجانين اذن هم اولياء بالسليقة (١).

واهم نتيجة من نتائج الصوفية على الفكر والمجتمع في سورية اعتقاد الافراد بالقدر المطلق اذ طالما ان الأولياء هم الذين يدفعون العالم قدماً وهم اهل الغيب واحرار في تصرفاتهم ولهم احكامهم وكراماتهم ، فلا مسؤولية اذن للافراد العاديين في هذا الوجود ، وان الشكوى من اي شيء هي معاندة لقدرة الله ، واحسن مايفعله الفرد الاستكانة والصبر وتحمل الضيم والقول بالقسمة والنصيب . وبذلك عاش المسلمون وقد تراكمت على افكارهم طبقات كثة من الخزعبلات والاساطير ضغطت على قوى ايجابيتهم الفكرية فشلت حركتها وانضبت معينها فلم يحاولوا ان يبحثوا عن جديد او ينظروا في تحسين اوضاعهم او يقاوموا الغفوة التي اخذت تجرفهم الى هوة سبات عميق ، بل تركوا الامور تسير كما كانت تسير في ايدي علمائهم ومتصوفيهم .

«١» Gibb & Bowen . Part 11 . P . 205

وهكذا فالتعليم والفكر في سورية في بدء العهد العثماني كانا مطبوعين بطابع الدين . وكان المسيطر عليها الفقهاء والمتصوفة عند المسلمين ، ورجال الدين المسيحيين واليهود عند اهل الذمة . وكان هؤلاء الاخيرون يقومون من جانبهم بتلقين مبادىء الدين الى رعاياهم . الا ان تعليمهم رغم جموده هو الآخر كان اكثر مرونة وتكيفا مع حاجاتهم لاحتكاكهم آنذاك وعلى نطاق واسع بالجاليات الاجنبية الوافدة ، ولاتصالهم بالعالم الأوربي عن طريق عملهم بالتجارة الخارجية ، ولا سيما ساكنو السواحل منهم ، والمسيحيون المارونيون الذين كانت لهم اتصالاتهم مع روما . وبذلك كان اهل الذمة عامة أسبق من المسلمين في ميدان التحرر الفكري ، والتعرف على معالم النهضة الاوربية . ولا سيما بعد وفود البعثات التبشيرية في القرن السابع عشر ونشاطها في الأوساط المسيحية[1] .

ولكن يجب ألا يفهم من هذا أن التعليم العلمي قد انعدم تماماً من سورية . فسورية تضم منذ العهد النوري الى جانب المدارس الدينية المتنوعة ، مدارس لتعليم الطب ، وبيمارستانات وكان منها في دمشق ثلاث مدارس هي الدخوارية[2] والدنيسرية[3] واللبودية النجمية[4] . وقد كانت هذه المدارس تزود سورية كلها بالأطباء ، وأفاضل خريجيها كانوا يعملون في البيمارستان النوري . وكان الى جانب هذا البيمارستان بيمارستانان آخران هما الصغير والقيمري . ولم تكن دمشق وحدها

«١» Hitti : History Of Syria .P. 676

«٢» النعيمي . الدارس ، ج ٢ ، ص ١٢٧ . وسميت بهذا الأسم نسبة إلى منشئها مهذب الدين دخوار (٦٢١هـ).وتقع هذه المدرسة في الصاغة العتيقة قبلي الجامع الأموي.

«٣» النعيمي . ج ٢ ، ص ١٣٣ . وتقع غرب البيمارستان النوري . وتنسب الى عماد الدين الدنيسري (٦٨٦هـ) الطبيب .

«٤» النعيمي . ج ٢ ، ص ١٣٥ . وهي خارج دمشق . وتنسب الى منشئها نجم الدين اللبودي (٦٧٠هـ) .

هي التي لها دور شفائها بل كانت كل مدينة في الواقع لهـا بيمارستانها . ففي حلب البيمارستان النوري والبيمارستان الجديد ، وفي أنطاكية بيمارستانها وكذلك في نابلس وحماة والقدس ، وعكا ، وصفد ، وغزة ، والكرك وحصن الأكراد [١] والرملة. ويلاحظ أن الدولة العثمانية لم تضف من جديد في مدارس الطب أو في المشافي أي تركت الأوضاع كما هي عادتها على ما كانت عليه . وعلى الرغم من أن طرق التدريس ومناهج التعليم بقيت كالقديم فان الرحالة الطبيب بيلون دومانس الذي زار دمشق في منتصف القرن السادس عشر يظهر إعجابه بمهنة الطب فيها، وخدمة الأطباء، ويبين أن الطبيب كان يحمل معه أدويته لعند المريض ، ويداويه ولا يتقاضى أجره حتى يتم الشفاء [٢]. ويؤكد هذا القول ما كتبه الغزي عن الطبيب (عبدالقادر القويضي) الذي كان «يذهب الى الفقراء في منازلهم ويعالجهم ويفاقدهم» وربما لم يأخذ من بعضهم شيئاً وقد يعطي الدواء من عنده ويركبه من كيسه [٣]. ومن الاطباء المشهورين في هذه الحقبة من الزمن (محمد بن مكي) (٩٣٨ هـ) شيخ الاطباء بدمشق بل وغيرها ، وكان علامة في مادته وتقريرها ولكنه قليل الحظ في العلاج وكان يعرف الهيئة والهندسة والفلك [٤]. ومحمد بن عبدالقادر الطبيب أي ابن القويضي السالف الذكر (٩٧٩ هـ). وكان متفقهاً في العلوم اللغوية والدينية ، وماهراً في الطب الطبائعي. وقد سافر الى القسطنطينية فأعطي رئاسة الطب بدمشق ، وعمل في البيمارستان القيمري [٥] .

أما الصيدلة فكانت على ما يذكر « بيلون » أرقى وأغنى مما كانت تعرفه

«١» أحمد عيسى بك ، تاريخ البيمارستانات في الاسلام . ص ٢٠٤ — ٢٦٠ .

«٢» Belon de Mans : Les Observations ... P. 150

«٣» الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ١٧٢ .

«٤» الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ٥٩ — ٦٠ .

«٥» الغزي : الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ٤٤ .

أوربة آنذاك لأنه أعجب بما تحوي حوانيت الصيادلة من المواد المثيرة ، ويعدد أنواعاً كثيرة منها [1] .

ولكن القول بأن الطب والصيدلة كانا أحسن حالاً مما كان عليه الأمر في لوربة في تلك الحقبة الزمنية ، لا يعني أن علمي الطب والصيدلة اللذين يدرسان في مدارس الطب في سورية كانا في حركة تجديد ونماء ، وإنما كانا يتغذيان من الماضي فقط . وهذا هو النقد العام الذي يوجه الى جميع المدارس في مطلع العهد العثماني في بلاد الشام ، أي ضيق الموضوعات المطروحة للدراسة والبحث . فمعظمها موضوعات اهترأت من كثرة البحث والجدل فيها منذ العصور الاسلامية الأولى. وصحيح ان هناك حرية جدل في الحلقات الدرسية المختلفة ، ولكن ذاك الجدل مقيد بمعرفة ضئيلة وعلم مسور . فإذا ارتوى طالب علم من العلم وحده وأرادالقفز فوق ما اعطي من قبل استاذه ، أو إبداء الحجة الجديدة المستحدثة فإن هذايعرضه الى الشك في عقيدته من قبل العلماء انفسهم . وأقل عقوبة لعدم رضا شيوخه عنه هي إخراجه من الجماعة التي يدرس بينها ، وملاحقته بنظرات الارتياب والشك وابتعاد الجماعة المؤمنة عنه وربما اتهامه بالجنون . واذا تجاوز الحد في « ثورته » الفكرية فانه يضطهد ويعذب كما حدث لابن تيمية في عهد المماليك. وعلى هذاعاش العلماء والمتعلمون وهم يعيدون ويكررون علماً بلاه الزمن وجمدته العقول الراكدة، وحفظته الألسن دون أن تعيه العقول وعياً خلقياً منتجاً . ومن ثم فان التعليم رغم كثرة مدارسه في سورية وتنوعه النسبي فشل في تلك المرحلة التاريخية في أداءمهمته وهي تطوير المجتمع وبث روح الحياة الحقة فيه ، وإبعاده عن الجمود المفقر لأن هذا التعليم لم يرتفع الى مرتبة التأمل في امكان صوغ المجتمع صياغة جديدة باتجاه مثل زاهرة نضرة ، ولغا تدنى بمستواه الى ضرورة تثبيت التقاليد السابقة بغثها

«١» Belon de Mans : op . cit . P . 150

وسمينها على السواء وحفظ المجتمع من الانفلات في دوائر حياتية جديدة فيها الخير له والسعادة .

ولا أدل على فشله من سير الانتاج الفكري في هذه الفترة على النمط التقليدي الذي كان يتابعه في القرنين الماضيين. فعهد التركيب والاختصار والتقليد وكتابة التراجم الذي ابتدأ في عهد المماليك ظل مستمراً في مطلع العهد العثماني مع تدن نسبي في المستوى . واذا كان القرن العاشر للهجرة لم يشهد إنتاجاً فكرياً مبدعاً ولا شاعراً أو فيلسوفاً أو عالماً من النخبة الممتازة فان هذا لا يعني انه كان عهد عقم ونضوب كما يغالي في القول بعض المؤرخين [1]. ويرجع هذا الحكم في الواقع الى عدم توافر مؤلفات تلك الحقبة من الزمن بجميع انواعها بين أيديهم وعدم انكباب الكثيرين منهم على التمحيص في الموجود منها تمحيصاً موضوعياً . فأكثرية هذه التآليف لا تزال حتى ساعتنا هذه مخطوطات مبعثرة في مكتبات العالم ، ولم يتفرغ لها بعد الباحثون. كما أن تأثر العرب بالفكرة القائلة بأن الحكم العثماني في البلاد العربية كان حكماً قضى من بدايته الى نهايته على الفكر والتفكير والانتاج مهما كان نوعه ، هو سبب رئيسي في ظلم المؤرخين لهذه الحقبة الزمنية . وفي الحقيقة إذا قورن هذا العهد بعصور التألق الحضاري في الدولة الاسلامية لوحظ أنه عهد – كما أشير الى ذلك مراراً – بدأ الظلام الفكري فيه يخيم على العقول ولكنه إذا قورن بما قبله مباشرة ، فانه لا يقل عنه إلا قليلاً . ويفسر هذا التدني الضئيل لا بالحكم التركي الجديد وإنما هو وضع طبيعي لتطور فكر فقد روح الابداع واعتمد على التقليد .

وبالفعل فان هذا القرن عج بالمحدثين والفقهاء واللغويين والأدباء والشعراء والمؤرخين الذين امتلأت بأسمائهم كتب التراجم المؤلفة في هذا القرن أو الذي تلاه

«١» Hitti : History of Syria . P . 674

ومما لاشك فيه أن الآداب العربية كانت أرسخ قدماً في عهد المماليك ، لأن هؤلاء جعلوا اللغة العربية لغة الحكومة وبها كانوا يتكاتبون ويتخاطبون ويصدرون المناشير، كما أنهم كانوا يقربون اليهم الأدباء ويطلبون منهم تاليف الكتب التاريخية والأدبية . بينما العثمانيون – وإن كانوا بدورهم يقربون الأدباء والعلماء [1] – إلا أنهم احتفظوا بلغتهم التركية للمخاطبات والمخابرات . ولا بد أن يضعف هذا الأمر العناية بآداب اللغة . يضاف الى هذا تحول بلاد الشام من جزء رئيسي هام في الامبراطوريه المملوكية الى مقاطعة صغيرة ملحقة بالامبراطورية العثمانية ، مما حط من مكانتها السياسية وبالتالي مكانتها الادبية والعلمية(٢). ومع كل ما قيل فان اللغة العربية بقيت لغة الدين والأدب ولغة العامة والخاصة في بلاد الشام ،حتى أن معظم العلماء والادباء الاتراك كانوا يميلون اليها ، ويبرزون في الكتابة بها . كأحمد أفندي الشهير بطاش كبري زادة وصاحب كتاب « الشقائق النعمانية » . وقد كان من جملة ما كتبه عن العربية « ان كل نبي من الانبياء يوحى اليه بالعربية ويعود بعد ذلك فيترجمه لقومه بلسانهم » [3].

وأكثر ما كتب في آداب اللغة في هذه المرحلة كان من قبيل الشرح والحواشي والتعاليق وشرح الشروح وغيرها . ويصح أن يسمى هذا العصر عصر الشروح والحواشي كما سمي العصر المملوكي بعصر الموسوعات والمجاميع [4]. وقد كثر التأليف إلا أن اسلوب الانشاء كان آخذاً بالضعف ، ويحاول فيه اصحابه التقرب من أفهام العامة ومخاطبتهم . واتجه الشعراء الى تقليد سابقيهم في المعاني

«١» الغزي . الكواكب السائرة . ج ٢ ، ص ١٤٤ . الحسن البوريني . تراجم الأعيان . ج ١ . ص ١١٠ .

«٢» جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية . ص ٢٧١ .

«٣» الحسن البوريني . تراجم الأعيان . ج١ ص ٧٣ .

«٤» جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية . ص ١١٨ .

والاسلوب واللفظ إلا أن شعرهم غدا اكثر واقعية لاتصاله بحياة الناس آنذاك وسرده بعض حوادثهم نظماً . وتابع ما يسمى بالتاريخ الشعري وجوده في بدء العهد العثماني . والتاريخ الشعري هو ضبط تاريخ واقعة بأحرف تتألف منها كلمة أو جملة أو شطر يكون مجموع حروفه مساوياً للتاريخ الذي جرت فيه تلك الواقعة. ويمكن الرجوع الى (تاريخ آداب اللغة العربية) لجرجي زيدان والى ما كتبه « بروكلمان » للتعرف على العديد من الشعراء والأدباء والمؤرخين والفقهاء في مطلع العهد العثماني ، وكذلك الى كتب التراجم المعاصرة .

ولا بد من الاشارة هنا الى أنه من المهمات الرئيسية الملقاة على عاتق الأدباء العرب المعاصرين دراسة أدب هذه الحقبة من مصادره مباشرة ، ومتابعة أثره في الأدب التركي المعاصر له ، ولأثر الثقافة التركية فيه . فمهما ضعف الانتاج الأدبي في هذه المرحلة — اذا ما صحت الفكرة السائدة واقوال المستشرقين — فانه يبقى أدباً عربياً له سماته وصفاته الخاصة .

هذه لمحة موجزة عن الآداب والعلوم الدينية والاجتماعية ، أما العلوم الأخرى فقد اضطربت أحوالها وتحولت الطبيعيات والرياضيات منها إلى خرافات وأوهام ، وقل المشتغلون بها أو المنقطعون لدراستها ، ولم يزد بعض العاملين في ميدانها على ما وصلت إليه في الماضي[1] ، وذلك لانصراف الناس عنها الى علوم الدين وعدم وجود من يشجعها أو حتى يقوم بتدريسها . وربما يكون الطب أحسنها حالاً لحاجة الناس إليه . وأشهر من كتب في الطب حوالي هذا الزمن داوود الأنطاكي (١٠٠٨هـ) ، وأصله من أنطاكية ودرس في دمشق والقاهرة . وله « تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب » وتعرف بتذكرة الأنطاكي وهي مقدمة وأربعة أبواب : المقدمة منها في تعداد علوم الطب ، والباب الأول

«١» جرجي زيدان . نفس المصدر . ص ٣٣٧ .

في كليات هذا العلم والمدخل إليه ، والثاني قوانين الأدوية واصطناعها من قبيل الأقرباذين،والثالث خواص العقاقير، والرابع الأمراض وما يخصها. فهي موسوعة طبية تمثل الطب القديم أحسن تمثيل[1] .

وعلى الرغم من اتجاه الفكر نحو التقليد والجمود فان العالم العربي ظل محتفظاً بجلده العلمي وروحه البحاثة عن الحقيقة مهما كانت المتاعب . فقد تنقل من سورية إلى الشمال إلى استامبول ليدرس في مدارسها ويعمل في الوظائف العثمانية هناك،ورحل جنوباً غرباً إلى مصر حيث كان للسوريين رواق من أكثر الأروقة اكتظاظاً بطلبة العلم في الجامع الأزهر ، وهبط مكة والمدينة حيث جاور الحرم وأخذ عن شيوخه ما ينقصه من العلم . وهذه الحركة على ضيقها وصغرها كانت عاملاً في ايجاد التضامن بين طبقة العلماء ، وحفاظهم ما أمكن على مستوى طبقتهم وصفاتها . وإذا كانوا سبباً من أسباب تجميد المجتمع الاسلامي السوري وعدم انطلاقه من قالبه المحدد ، فاليهم يرجع في الواقع الفضل في حفظ تراث الحضارة العربية الاسلامية سليماً في دوامة اعصار القرون السابقة للنهضة العربية. فبضيق تفكيرهم وحرصهم الشديد على المحافظة على التقاليد تمكنوا من حماية المجتمع وابقائه مترابطاً في مرحلة مضطربة جداً سياسياً ومتدهورة اقتصادياً . ولعل بعضهم شعر أنه من الخطر الاقدام على مغامرات فكرية متحررة في تلك الأحوال المذبذبة .

ومهما يكن من أمر فإن الانتاج الفكري في سورية كان أكثر نشاطاً وتحرراً مما كان عليه في مصر مثلاً . وذلك لأن طبقة العلماء هناك كانت أقوى وأكثر تماسكاً وتضامناً ، وحرصاً على تقاليد الماضي وتفكيره ، وكان هؤلاء العلماء هم المسيطرون على ذات الانتاج. بينما في سورية يلاحظ أن الانتاج الفكري لم يكن مقصوراً على طبقة الشيوخ بل كان في أيدي كتاب ونساخين وهم أفراد

«١» جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٣ ، ص ٣٣٨ .

عاديون نالوا قسطاً من العلم والثقافة . كما أن سورية كانت على اتصال أقوى مع البلاد العربية المجاورة والتركية مما جعل ساحة الرؤيا عند مؤلفيها أوسع مدى حتى في المواضيع الدينية . هذا إلى جانب ما ذكر سابقاً من ميل السوريين أنفسهم إلى الترحال والتجوال أكثر من ميل سكان الأقطار العربية الأخرى . وبالطبع فان ميلهم هذا غذّى من ثقافتهم ونمّى من تفكيرهم ودفعهم إلى الانتاج وكتابة ماتفاعل في أذهانهم أثناء تنقلاتهم .

ويستخلص من كل ما بحث أن الفتح العثماني لسورية كان سطحي الأثر لدرجة أنه لم يخلق أية ردة فعل فكرية في المجتمع آنذاك فسارت الامور وكأنه لم يكن هناك احتلال أو دولة جديدة . وفي الواقع كان العثمانيون عند احتلالهم لسورية أمام مجتمع قد استنفذ امكاناته الفكرية وكان ينتظر صدمة جديدة تولد لديه ردود فعل خلاقة وتفتح أمامه آفاقاً واسعة . وأتت الصدمة بالفتح العثماني فلم تحمل إليه من جديد يخصب ذاته ، فتابع خطا الانحدار التي كان يسيرها منذ بدء العهد المملوكي .

الحياة الفنية :

لقد ولد الفن الاسلامي وتفتح في عصر بني أمية وعلى الأرض السورية مركز الخلافة آنذاك . ولم يعش ذات الفن في نطاقه الضيق بل شع إلى جميع أنحاء البلاد العربية الاسلامية. وحمل الفنانون السوريون طيلة ذاك العهد لواء السيادة الفنية ، وبثوا في مختلف الأقاليم طرازهم المعماري الذي تأثر بالفن البيزنطي السائد في هذه البقاع قبل الفتح العربي . وإلى هذه الحقبة الأموية ، وإلى هذه المدرسة السورية في الفن تنتمي أروع العمائر في العالم الاسلامي كمسجد بني أمية في دمشق وقبة الصخرة في القدس[1] .

«١» زكي محمد حسن . فنون الاسلام . ص٦ ـ ١٢ .

وعندما انتقلت الخلافة إلى العباسين وانتقل معها مركز الملك والاشعاع الحضاري من دمشق إلى بلاد العراق ضعف مركز سورية الفني مع ضعف مركزها السياسي ، وتلون الفن الاسلامي العباسي بالأساليب الفنية الفارسية وحمل طابعاً جديداً غير الطابع السابق . ولم تبق سورية تشكو ضعف مركزها الفني طيلة العهد العباسي بل شاءت الأحداث التاريخية أن تتمتع مع مصر في فترة وهن الخلافة العباسية بنوع من الاستقلال السياسي . فعاشت مع مصر مترابطة سياسياً ابان الحكم الفاطمي لها ثم الأيوبي فالمملوكي . وساعد هذا الاستقلال الذاتي في تلك المراحل التاريخية على بعث مدرستها الفنية السابقة وتغذيتها بمؤثرات جديدة وابتكارات خاصة ، فازدهرت فيها الحياة الفنية ثانية ، وذلك منذ العهد الفاطمي لاستتباب الأمن، وتوافر الرخاءالاقتصادي . وتابعت تلك الحياة ايناعها ونضوجها في العهد الأيوبي فالمملوكي رغم الحروب الصليبية التي اكتسحت أرضها والهجمات التترية ، وبلغ فيها الفن أوجه في القرنين السابع والثامن للهجرة . فعهد المماليك يعتبر في الحقيقة العهد الذهبي في الفن الاسلامي في سورية بعد العصر الأموي [١].
وعمل النواب المماليك في مختلف بقاعها على زرع أرضها بالمدارس والجوامع والأضرحة والحمامات والخانات والأسبلة والقصور حتى أنه من الصعب حصر تلك الأبنية العديدة . كما ظهر التنوع والأناقة في مختلف العناصر المعمارية ، من واجهات المساجد والقصور والمآذن والقباب، والزخرفة بأنواعها الرخامية والفسيفسائية، والمنحوتات الجصية والحجرية والكتابات الكوفية والمقرنصات [٢]. ولم تكن المدرسة المعمارية المملوكية هي وحدها التي بلغ أفرادها الذروة في المهارة والفن وانما سرى ذاك النضوج الفني إلى جميع الفروع الفنية الأخرى . فالحفر على الخشب وزخرفة الأثاث والصناديق والعلب بالعاج والعظم والصدف بلغا حداً كبيراً من الروعة

«١» Hitti : History of Syria . P . 648

«٢» ديماند (ترجمة أحمد محمد عيسى) . الفنون الاسلامية . ص ١٠٩ .

والكمال في سورية في القرن الثامن للهجرة ، واستخدما في صناعة الأبواب والمناضد ومنابر المساجد [1]. وكانت دمشق مركزاً من المراكز الفنية الهامة في هذه الصناعة الدقيقة . وقام فيها إلى جانب هذا الفن الزخرفي فن صناعة الزجاج وتمويهه بالذهب حتى أن جميع المؤرخين يرجعون الفضل في تقدم تقنية هذه الصناعة واتقانها إلى ابداع الصناع السوريين ، ويعتبرون دمشق وحلب أهم المراكز في العالم الاسلامي التي كان انتاجها في طليعة أبدع ما خلفته تلك الصناعة على الاطلاق . وقد غمر صناع دمشق أسواق القاهرة بفاخر انتاجهم ، وأطلق اسم دمشق على كل ما صدر للبلاد الأوربية من الأواني الزجاجية المطلية بالمينا في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، كما كانوا ينسبون بعضه الى مدينة الرقة شرقي حلب . ويلاحظ ذاك الفن الصناعي الرفيع في مشكاوات المساجد والزهريات والصحون والأكواب المبعثرة في مختلف المتاحف العربية والأجنبية [2] .

ولقد تألق كذلك اسم سورية عالياً في صناعة الخزف ذي البريق المعدني واستخدمت في زخرفته التفرعات النباتية وأشكال الطيور ، وتميزت به الرقة والرصافة من مدنها [3] . ويحدث المؤرخون باعجاب عن الفن البديع في الصناعات الحريرية التي كانت تنتجها دمشق وحلب وزخارفها الرائعة وعن فن الكتابة الكوفي والتذهيب اللذين يبدوان في المصاحف التي ترجع إلى العهد المملوكي [4] .

ويستدل من تلك اللمحة السريعة أن سورية كانت في العهد المملوكي مركز نشاط فني بارز ، وصاحبة مدرسة فنية لها خصائصها وميزاتها من الناحية المعمارية أو من ناحية الفن الزخرفي . ولكن اكتساح تيمورلنك لها في مطلع القرن التاسع

«١» ديماند . الفنون الاسلامية . (مترجم) . ص ١٢٢ ، ١٣٧ .

«٢» ديماند . نفس المصدر . ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

«٣» ديماند . نفس المصدر . ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

«٤» ديماند . نفس المصدر . ص ٢٥٨ .

(الخامس عشر) وضعفها الاقتصادي الناجم عن أوضاع عددت سابقاً جعل الحياة الفنية تميل فيها الى التدهور والانحطاط ، فتضاءلت الحركة العمرانية في جنباتها ، وتوقف نمو الفنون الأخرى كحفر الخشب والتطعيم وصناعة الزجاج ، وبدا أن الحياة الفنية سائرة إلى تقليد فركود . ولابد أن نقل تيمورلنك للفنانين والصناع السوريين إلى عاصمة ملكه سمرقند كان سبباً من أسباب حرمانها من عناصرها الفنية المبدعة .

وأتاها الاحتلال العثماني وهي تعاني أزمة اقتصادية كاسحة ، وانحطاطاً عاماً في قواها ، ووهنا في ابداعها الفكري والفني . ورغم أنها خرجت عن كونها حداً عسكرياً معرضاً للغزوات الكبرى بين وقت وآخر كما كان عليه الأمر أيام الأمويين والمماليك بتباعد حدود الامبراطورية إلى ما وراءها ، ورغم أن هذا الأمر كان يمكن أن يدعها تخلد الى الاطمئنان وتنصرف إلى الابتكار الفني فإن الحياة الفنية في سورية لم تعاود نشاطها وحيويتها السابقين . وليس السبب هو الاحتلال العثماني نفسه ، لأن الدولة العثمانية عملت في نصف القرن الأول من فتحها لهذه البلاد على تنشيط الحياة العمرانية في جنباتها ، وحمل مدرستها الفنية الخاصة بها إلى هذه الربوع . ويمكن القول أن الضعف الاقتصادي الذي كانت سورية تقاسيه آنذاك كان العامل الرئيسي في عدم تأجج الحياة الفنية وعودتها إلى فعاليتها السابقة ، ولكن هذا لا يمنع من القول بأن فن العمارة بالذات قد تجدد ودخلته عناصر مستحدثة بث الحياة في أعطافه . وفي الواقع لقد تأثر فن العمران كما تأثرت الفنون الأخرى بالمدرسة العثمانية الفنية .

وقد وصلت هذه المدرسة في عهد السلطانين سليم وسليمان الأول إلى مرحلة ازدهار خصبة . ولكن من الملاحظ بأن هذا الفن لم ينبع من أصالة تركية وانما كان نتيجة تفاعل المدارس الفنية المختلفة التي احتك بها العثمانيون كالسلجوقية

والبيزنطية ولاسيما الفارسية . ولم يقتصر تأثر الأتراك العثمانيين على هذه المدارس بل تعداها بعد فتح القسطنطينية الى الاخذ من الفن الغربي المتطور في مطلع العصور الحديثة . وفي الواقع لم يكن جميع الفنانين في المدرسة العثمانية من الاتراك بل أن معظمهم والبارزين منهم كانوا من ايران وأوربة. فقد استدعى سليمان المصور الايراني « شاه قولي » وقربه إليه حتى وصل إلى مكان الصدارة في بلاط السلطان، كما استدعى جده الاكبر من قبله محمد الفاتح « جنتيللي بلليني » من ايطاليا ليرسم له صورته [١] . فالمدرسة الفنية العثمانية اذن كانت قد استوردت أسسها الفنية وفنانيها من الخارج، ولكن لم تلبث أن صهرت تلك المؤثرات الخارجية وأخرجت من المزج المتفاعل مدرسة لها خصائصها وصفاتها أكان في التصوير أو الفنون الزخرفية أو العمارة. ففي التصوير مثلاً كان التقليد واضحاً حتى أن «حيدر باشا» أحد المصورين المشهورين في عهد سليمان كان يقلد المصور الفرنسي « كلوه » Clouet تمام التقليد الا أن الالوان التي كان يستخدمها كاللون الاخضر الزاهي المائل قليلاً الى الاصفرار هي طابعه الخاص وطابع المدرسة التصويرية العثمانية بعامة . وان صورة سليمان القانوني الموجودة على مرقعة في المكتبة الاهلية بباريس لهي نموذج فذ لهذه المدرسة [٢] .

وكما تأثر فن التصوير العثماني بالتصوير في اوربة وايران فإن الفنون الزخرفية قد أخذت هي الاخرى من فنون البلاد المجاورة لها ولاسيما فارس . لان العلاقات الثقافية كانت قائمة بين المجتمعين الايرانيين قبل ظهور الشاه اسماعيل . وأكثر ما تأثر منها فن الكتابة وتذهيب المخطوطات، فاستخدم العثمانيون أنواع الخطوط العربية المعروفة آنذاك في الكتابة والزخرفه وأضفوا على ما أخذوا طابعهم

«١» Fradier : Splendeur de l' Art Turc . (Le Courrier Vol . VI. N 3 . Mars 1953

«٢» زكي محمد حسن . فنون الاسلام . ص ٢١٦ – ٢١٧ .

الخاص، فأوجدوا الخطوط المدورة بحيث تبدو العبارة المكتوبة على هيئة طائر أو شكل مقصود . وأحسن مثل على ذلك الطغراء التركية التي كانت تتوج الفرمانات السلطانية ، وبراءات التعين والرتب منذ عهد السلطان سليمان وقد عمل الاتراك العثمانيون على تلوين زخارفهم الكتابية هذه بالذهب واللونين الازرق والاسود(١).

وإذا كانت المدرسة الفنية العثمانية قد تميزت بازدهار فن الكتابة وزخرفة المخطوطات وتذهيبها ، وكذلك في صناعة السجاد ورسومها وتلوينها ،وفي زخرفة المحمل ونقشه ، فإن هذا لا يعني اقتصارها على النواحي الزخرفية فحسب . فإلى جانب ماقيل كان للدولة العثمانية مدرسة معمارية تتميز عن المدارس المعمارية الاسلامية الاخرى . وقد اقتبست هذه المدرسة أسسها من الطرز السلجوقية والبيزنطية على السواء ومزجت بينها لتكون طرازاً منسجماً خاصاً بها . وكما اهتمت جميع الدول الاسلامية ببناء المساجد والمدارس والتكايا فإن الدولةالعثمانية سارت على نفس المنوال فكرست فنها المعماري الرئيسي لهذه المؤسسات . فبنت المساجد الضخمة الفخمة في بروصة وادرنة واستامبول . وكان أثر الفن السلجوقي قبل فتح القسطنطينية واضحاً في عمائرها وهو بدوره متأثر بالمدرسة المعمارية البيزنطية . بمعنى أن قوام المساجد آنذاك كان أروقة وعليها قباب صغيرة ثم قاعة كبيرة تعلوها قبة ضخمة ، وتمتد تلك الصالة من ناحية القبلة ومن الناحية المقابلةلها بتجويف واسع ، ويعلو هذين القسمين نصفا قبة ، وتنفتح القاعة الكبرى من طرفيها على غرف صغيرة ضيقة مغطاة هي الاخرى بسطوح منحنية أو أرباع قباب (٢) . الا أن هذا الطراز من البناء تطور بعد فتح القسطنطينية وتحويل

«١» زكي محمد حسن . فنون الاسلام . ص ٢٤٤ .

«٢» Marçais : l' Art de l' Islam. p. 164

كنيسة « ايا صوفيا »إلىمسجد ، اذ تأثر بنمط المعمار فيها [١]. وكان مسجد السلطان بايزيد الثاني الذي ابتدأه المهندس خير الدين في عام ١٥٠١م صورة عن التطور الجديد الذي حاول فيه المهندس ان يلغي الاعمدة المحيطة بالقبة المركزية وأنصاف القبتين الاخريتين ليفسح للمصلين فرصة رؤية المحراب ومتابعة الامام في صلاته .

ووصل الطراز الجديد الى اوج فنيته في عهد سليمان القانوني وعلى يد المعماري الاكبر « سنان » [١] الذي بنى له مسجده الفخم «السليمانية» في استامبول وبقي مسيطراً على الهندسة المعمارية العثمانية حتى نهاية القرن السادس عشر . ومسجد السليمانية الذي بني على نمطه في سورية في زمن سليمان لا يختلف كثيراً عن أياصوفيا

«١» بنى الكنيسة لأول مرة الملك قسطنطين الكبير فيعام ٣٢٥م ثم وسعها بعده ابنه غير أنها احترقت عام ٥٣٢م فجدد الامبراطور جستنيان بناءها . وهي تتألف من صالة مركزية كبرى تغطيها قبة على أعمدة قطرها (٣١) متراً وارتفاعها (٥٤)متراً وهذه القاعة متطاولة من الأمام والخلف بامتدادات تعلوها أنصاف قباب، وهذه الامتدادات بنفس عرض الصالة، وعلى طرفي الصالة صالتان سقوفها أكثر انخفاضاً من الصالة الرئيسية. وكان محيط القبة مزيناً بالفسيفساء على هيئة صور مستمدة من حوادث التوراة والانجيل مطلية بدهان ذهبي .

«٢» ولد سنان في نهاية القرن التاسع للهجرة وذاع صيته في حملة تركية على اقليم ولاخيا ، اذ أوكل اليه صنع قنطرة كبيرة على نهر الطونة . وكان التوفيق حليفه في هذا المشروع. واشترك في حصار فينا بوصفه رئيساً لفرقة المهندسين، ثم عين رئيساً للمعماريين (سرمعمار) . وقد أظهر في منصبه هذا نشاطاً عجيباً فأنشأ واحداً وثمانين جامعاً كبيراً واثنين وخمسين مسجداً صغيراً وخمسا وخمسين مدرسة وسبعة معاهد لدراسة القرآن ، وسبع عشرة تكية ، وثلاثة مشافي، وسبعة كتاتيب، وسبعة جسور ، وثلاثة وثلاثين قصراً وثمانية عشر خاناً ، وخمسة متاحف ، وثلاثة وثلاثين حماماً وتسعة عشر ضريحاً أو قبة .

كارل بروكلمان . تاريخ الشعوب الاسلامية . (ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي) ج ٣ ، ص ٧٢ .

زكي محمد حسن . فنون الاسلام . ص ١٣٦ .

سوى ان الردهات الجانبية سقفت هي الاخرى بقباب صغيرة بحيث بدا عريضاً اكثر منه طويلاً . كما ان الاعمـــدة الداخلية التي كانت يستند عليها نصفا قبتين تضاءل عددها وتباعدت . وكانت مآذن المسجد مستديرة كثيرة الاضلاع وتستدق في اعلاها ، وتمتاز برشاقتها وجمالهـــا . وقد استخدم سنان في زخرفة المساجد والمدارس التي بناها القاشاني [١]. وهنا يظهر اثر الاسلوب الفارسي وفي الحقيقة لم يكن سنان اول من استعمل هذا النوع من الخزف في زخرفة المباني ، بل انه يشاهد في بورصة . وقد تطور استعماله مع الزمن حتى استبدلت الفسيفساء الخزفية العادية ببلاطات مستطيلة منه او سداسية عليها زخارف متعددة الالوان ومطلية بالمينا او مرسومة تحت الطلاء . وازداد انتشار هذا النوع من الزخرفة في القرن العاشر للهجرة . وتبعها بالطبع ازدهار هذه الصناعة الفنية ، واصبحت (ازنيق) اهم مركز لها وغـــدا الخزافون الاتراك اساتذة في هـذا الفن وميزوه عن غيره في البقاع الاخرى بالالوان المستخدمة كالازرق والاخضر والاصفر وبنوعية الزخارف النباتية . فقد درج الاتراك المسلمون على الزخرفة بأزهار خاصة مهندسة هي زهرات القرنفل والخزامي والفيل البري والورد[٢] .

ويستنتج من هذا ان المدرسة الفنية العثمانية كانت في اوج تفتحها عندما قام العثمانيون بفتح سورية . وكان من الطبيعي ان تتأثر البلاد المحتلة بـــذاك الازدهار الفني الممثل في عاصمة الدولة ومدنها الرئيسية . كما لابد للفن العثماني نفسه من الاخذ ببعض ما في المدرسة السورية المصرية من عناصر تنسجم مـع اسسه . والظاهر ان الاتراك العثمانين قد ساروا على سنة معروفة في البلاد التي فتحوهـا

«٢» هو الخزف الملون والمزين بتفرعات نباتية أو كتابية ، وسمي بالقاشاني نسبة الى مدينة قاشان في فارس .

«٣» ديماند . الفنون الاسلامية . (مترجم) ص ٢٢٣ .

فكانوا ينقلون الى استامبول عاصمة ملكهم أعلام الصناع والفنانين فيها ويبعثون من بلادهم الى الأقاليم المحتلة بالمقابل صناعا وفنيين يحلون محل أولئك الذين استدعتهم اليها ليكون التبادل الفني والصناعي على مدى واسع . وقد حدث ذلك في مصر[١] وحلب [٢] اذ بعث السلطان سليم الى استامبول نخبة من أرباب الصناع من كل فن وأحضر غيرهم من استامبول يقيمون عوضا عن الذين خرجوا منها .

ويبدو اثر المدرسة الفنية العثمانية أكثر ما يبدو في النماذج المعمارية التي خلفتها في مختلف الأقاليم التي احتلها الأتراك ولاسيما منها سورية . وقد بنى العثمانيون أجمل عمائرهم فيها في الحقبة الزمنية التي نبحث فيها أي اثناء حكم السلطانين سليم وسليمان . فالمساجد التي أقاموها في دمشق بالذات ، والزخارف التي زينوا بها بعض المساجد السابقة لا تزال أثرا متكاملا بعدهم . فقد خلف السلطان سليم مسجد الشيخ محي الدين بن العربي مع تكيته المعروفة بالتكية السليمية كما صمم المهندس « سنان » في عهد سليمان التكية السليمانية ومدرستها المعروفة خطأ باسم المدرسة السليمية اللتين لا تزالان قائمتين بروعتها في جنوب دمشق .

فقد فكر سليم الأول ببناء مسجد على ضريح الشيخ الصوفي محي الدين بن العربي منذ أن وطئت قدماه أرض سورية ، ولكنه لم ينفذ الفكرة حتى عاد من فتح مصر . فبعد زيارته للضريح أمر بعمارة قبة عليه ورسم باقامة تكية شمالي تلك القبة [٣]. وقد نسب بعض المؤرخين [٤] بناء التكية القائمة في الوقت الحاضر قرب

« ١ » ابن اياس . ج ٣ ص ١٢٢

« ٢ » كامل الغزي . نهر الذهب في تاريخ حلب . ج ٣ ص ٢٥٣

« ٣ » ابن زنبل . مخطوط . ص « ١١٩ – ص ١٢٠ » ويقال أن السبب في ذلك أن الشيخ محي الدين تكلم في كتابه « عنقاء مغرب » على سبيل الاشارة بانه سيملك جزيرة العرب سليم بن عثمان .

« ٤ » يرجع إلى Sauvaget : Les Monuments Historiques de Damas. p . 106

ضريح الشيخ محي الدين الى المعمار سنان أي أن التكية بمعنى آخر قد بنيت في عهد السلطان سليمان . وفي الحقيقة ان فن بناء مسجد محي الدين مع التكية الملحقة به يختلف عن الأبنية التي أقيمت في زمن سليمان وكانت من تصميم المهندس سنان فهو يمثل مرحلة انتقالية بين المدرسة المعمارية المصرية والمدرسة العثمانية . فالتكية مثلا لا تشبه أبنية العهد المملوكي من حيث المخطط وشكل القباب والأبواب والأقواس والزخارف كما أنها لاتشبه ما صممه سنان هذا الى جانب بساطة وتقشف في الزخارف ربما يكونان راجعين الى ظروف الاحتلال[1] ، وجميع المصادر التاريخية المعاصرة[2] تذكر ارادة السلطان سليم بعمارة تلك التكية وتشير كذلك الى كيفية بنائها ، فهي ترجع في الحقيقة الى عهد السلطان سليم لا السلطان سليمان.

واذا كانت المصادر العربية المعاصرة تؤيد بناء السلطان سليم لهذه التكية فانها لا تذكر شيئاً عن مصمم هندستها وهندسة المسجد ، سوى أن سليما بعث بابن الفرفور (قاضي القضاة) ومعه معلم السلطان « شهاب الدين بن العطار » وجماعته ليهندسوا عمارة جامع بخطبة على ضريح الشيخ محي الدين وكان ذلك في الرابع عشر من رمضان عام ٩٢٣ هـ[3] كما عين السلطان ناظرا من الأروام يقال له « المحوجب » على العمارة ووضع لديه عشرة آلاف دينار ليصرف عليها[4]. ويظهر أنه قد تولت هندسة الجامع والتكية لجنة مؤلفة من قاضي القضاة ومعلم السلطان وناظر تركي ، ولعل هذا الأخير لم يشرف على الشئون المالية فقط وانما العمرانية ايضاً . ولا بد انه قد أسهم في تنفيذ المخطط معماريون دمشقيون . وبذلك يكون فن المسجد

« ١ » عبد القادر الريحاوي . التكية السليمية . نشرة مديرية الآثار في دمشق.
« ٢ » ابن طولون . القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية . ج١ص٦٥ ، الغزي . الكواكب . ج ١ ص ٢١٠
« ٣ » الغزي . الكواكب السائرة . ج ١ ص ٢١٠
« ٤ » ابن طولون ، القلائد الجوهرية . ج ١ ص ٦٤

والتكية فنا فيه عناصر من المدرسة العثمانية وأخرى من المدرسة السوريةالمصرية . فالمسجد مؤلف من ساحة مكشوفة ذات رواقين جانبيين ، وفي صدر هذه الساحة قاعة الصلاة وهي قاعة واسعة يعتمد سقفها المنبسط — وهذا من خصائص المدرسة السورية — على ستة عشر عمودا . وهي بسيطة جداً في زخرفتها ومحرابها ومنبرها ولو ان هندستها العامة تشبه قاعة الصلاة الكبرى في المسجد الأموي . وفي الزاوية اليسرى من صحن المسجد يقوم سلم صغير يهبط به الى ضريح الشيخ محي الدين بن العربي ، وقد بني فوق الضريح قبة وزين داخل الضريح بالقاشاني الازرق ذي التفرعات النباتية .

أما مبنى التكية ويقوم مقابل المسجد فيتركب من بهو واسع مستطيل مسقوف بقبتين تقسمانه الى مربعين متساويين ، وتنفتح في جدرانه ابواب الغرف والقاعات الخاصة بمستودعات المؤن والمطبخ . ويدخل الى هذا البهو من باب هو فتحة واسعة ذات قوس مخموس ، ضمنها فتحة أصغر تعلوها عتبة على شكل قوس مجزوء فارسي ، وتتناوب الحجارة السوداء والبيضاء في كلي القوسين . وعن شمال الباب نافذة يقع خلفها ضريح قديم احتفظ به عند بناء التكية . وعن يمين الباب سبيل مفتوح في الواجهة ويليه فرن التكية حيث يخبز الخبز [1]. ويصفها ابن طولون فيقول: «وهي مشتملة على بيت للفقراء يأكلون به ، له أربعة شبابيك مطلة على باب الجامع السليمي (جامع محي الدين بن العربي) وبه مغربة مختصة بالبناء ، وله بابان شرقي منه يدخل الناس وبالقرب منه شباك لمغربة النساء وغربي ينفذ الى المطبخ وبه ثلاثة حواصل للمؤن . ولهذا المطبخ باب كبير يفتح ببوابة الى القبلة وبه حلتان كبرى وصغرى وثالثة لغسل المواعين وعدتها مائتا ماعون من نحاس والى جانبه القبلي طالع للماء وهو واصل من ناعورة مجددة لهذه العمارة . ماؤه ينقسم

«١» الريحاوي . التكية السليمية . نشرة مديرية الآثار بدمشق عن الابنية الأثرية

الى جرن بالتكيـــة وجرن للسبيل على باب المطبخ المذكور ، وقسم الى بحرة الجامع المذكور . والى جانب هـذا المطبخ الغربي فرن معـد للخبز الذي يفرق بهذه التكية »[1] .

وشكل التكية الحالي يختلف عما وصفه ابن طولون ، ولعل تغييراً طرأ على المخطط بعد حريقها في عام ٩٦٢ هـ . واول من اشار اليه كان ابن بدران [2]، ولعل هذا هو السبب الذي دعا بعض المؤرخـــين لنسبتها الى سليمان اذ ربما جرى تجديدها بعد الحريق في عهد سليمان .

ومما يميز هذه المجموعة البنائية ــ المسجد والتكية ــ أنها اول بناء عثماني في سورية واول تكية أي مطعم للفقراء[3]. ولا تزال التكية تقوم بدورها حتى الآن مع فارق فقط في كمية الطعام الموزعة بسبب ضياع الأوقاف الخاصة بها التي كانت كثيرة جداً حسبما عددها ابن بدران[4] .

واذا كانت المجموعة البنائية السالفة الذكر لا تمثل المدرسة العثمانيـة تمام التمثيل فان التكية السليمانية التي صممها سنان تقدم أكمل نموذج . وقد بنيت على ضفة نهر بردى في مكان كان يسمىقديماً بالمرج أو بالمرجة . وكان فيه قصر السلطان المملوكي الظاهر المعروف بـ « القصر الأبلق » . وقد ذكر المؤرخون انالسلطان سليم نزل فيهذا القصر خلال اقامتهفي دمشقبعد عودته من القاهرة في عام٩٢٣هـ[5].

«١» ابن طولون . القلائد الجوهرية . ج ١ ص ٧٠

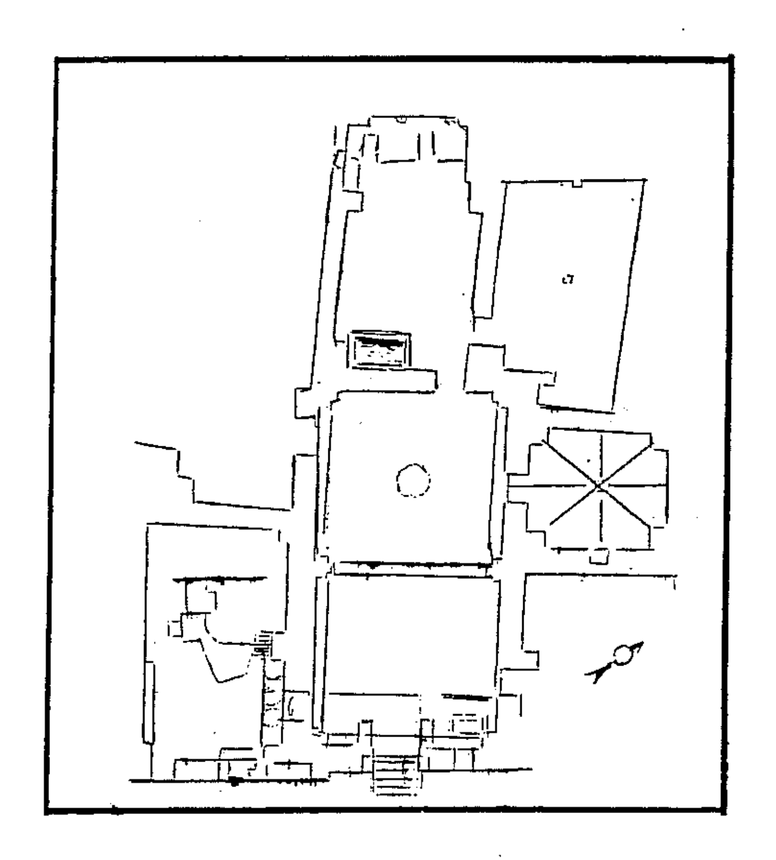
«٢» عبد القادر بدران . منادمة الأطلال . ص ٢٨٣

«٣» يطلق عليها ابن طولون اسم مطبخ اذ كانت مقصورة على ما يبدو على الطبخ وتوزيع الاطعمة على الفقراء . والى جانبها فرن كمـا ذكر يوزع قنطار طحين غداء وعشاء ويطبخ ذلك بكرة النهار في شوربة رز وأخرى في قمحية خلا ليلة الجمعة فيطبخ في رز مفلفل معه رز حلو بعسل . (القلائد . ج ١ ص ٦٤)

«٤» عبد القادر بدران . منادمة الأطلال . ص ٢٨٣

«٥» الغزي . الكواكب السائرة . ص ٢١٠

مخطط التكية السليمية[1]



«١» عبد القادر الريحاوي ، التكية السليمية ، نشرة مديرية الآثار . أبنية دمشق الأثرية .

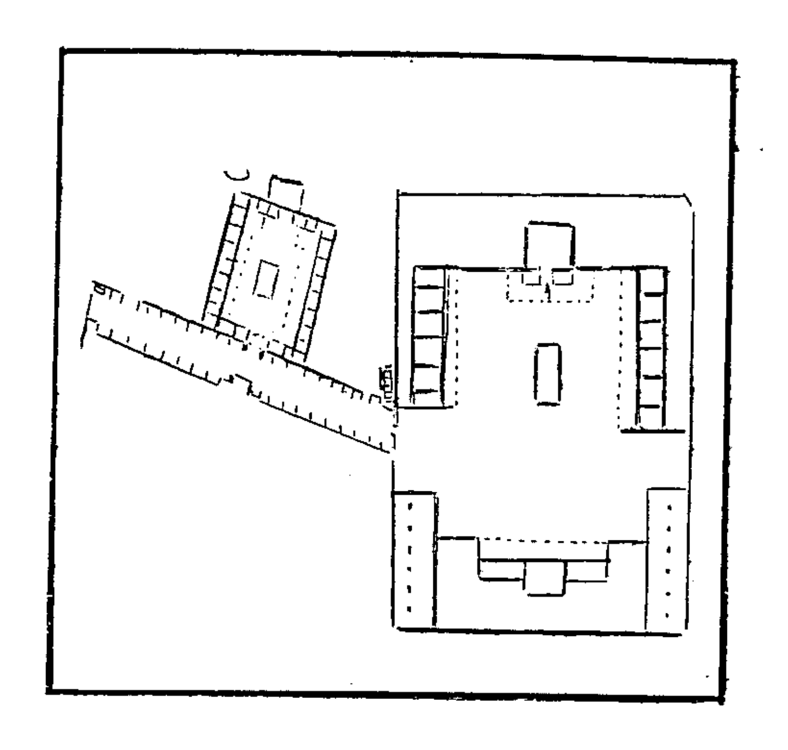
وقد هدم هذا القصر لتقوم مكانه عمارتان عثمانيتان الأولى غربيـة والثانية شرقية . ولقد بنيت الأولى وفق فن العمارة العثماني الاستامبولي ، وتشتمل على تكية فيها جامع ومحاطة بسور مزود بثلاثة أبواب رئيسية أحدها في الشمال تتقدمه قبة صغيرة على أعمدة والثاني في الشرق والثالث في الغرب . وتتألف من صحن سماوي محاط بأروقة مسقوفة بالقباب يقسمها المحور الممتد بين الشرقي والغربي الى قسمين جنوبي ويحتوي على جامع يتوسط الجبهة القبلية مع مئذنتيه وبحرة مستطيلة أمامه ، وفي كل من الجناحين الشرقي والغربي ست غرف متساوية الحجم مربعة الشكل يتقدمها رواق على أعمدة ليفصل بينها وبين الصحن ، وأعدت لسكن نزلاء التكية . وقسم شمالي يحتوي على مطبخ ومستودعات في الوسط وقاعتين كبيرتين على الطرفين الشرقي والغربي . ويترك السور بينه وبين الأبنية حدائق تتوزع في سائر أطراف العمارة.

ورغم البساطة السائدة في هذه العمارة وفقرها بالزخارف الخارجية فان الناظر اليها يشعر بارتياح ، ولعل ذلك يرجع الى الحديقة المحيطة بها والانسجام والاناقة في الخطوط والرقة في مظهر البناء ، وتناوب اللونين الأسود والأبيض في مداميك جامعها وقناطر أروقتها ذات الأقواس المدببة ، وألواح القاشاني فوق عتبات قاعاتها . وتكاد تكون العناية بالزخرفة منصبة في الجامع الذي يشمل عناصر زخرفية هامة : فعدا القاشاني والرخام فان في قبته مجموعة من النوافذ الجصية المطعمة بفصوص الزجاج الملون التي تشتهر بها المدرسة السنانية وكذلك المقرنصات الرائعة التي تشاهد في الباب الفخم والمحراب ، ثم فسيفساء الرخام الملون المحيطة بها [1] .

ويصف ابن بدران بناءها قائلاً — « في عام ٩٦٢ هـ بنى سليمان جامعاً

«١» اعتمد في وصف التكية على ما كتبه « الريحاوي » عن التكية السليمانية في مجلة مديرية الآثار « سورية » ، وعلى المشاهدات الخاصة .

مخطط التكية السليمانية[1]



آ – المسجد

ب – المدرسة

«١» مجلة الحوليات الاثرية السورية المجلد السابع ١٩٥٧ .

وتكية ، وقد أخذت آلات القصر وجعلت فيه وأضيف اليها ما يحتاج البناء اليه ، فجمع من الآلات والأحجار والرخام الصافي والملون والقباب والصنائع والترصيص ما يحير فيه الناظر ويشرح الخاطر . ويشتمل على حجرات وخلاوي كل خلوة بقبة وأوجاق وشبابيك الى جامع ومطبخ ومطعم ومئذنتين شرقية وغربية كأنهما ميلان . وأما القبة والمنبر والمحراب ففي غاية الاتقان »[٢] .

ويتضح أنه بدىء ببناء التكية السليمانية عام ٩٦٢ هـ (١٥٥٤ م) بأمر من السلطان سليمان ، ودام بناؤها خمس سنوات اذ انتهت عام ٩٦٧ هـ بينما لم يدم بناء مسجد الشيخ محي الدين مع تكيته سوى خمسة أشهر ولذا أتى العمل أقل اتقاناً وأفقر فنياً .

أما العمارة الشرقية فهي عبارة عن مدرسة بنيت بحسب مخطط شبيه بمخطط العمارة السابقة ومنسجم معه في الخطوط العامة . ويتألف من مجموعة من الغرف الصغيرة تتوزع على جبهاتها الأربع وتفصل بينها وبين الصحن أروقة مسقوفة بالقباب محمولة على أعمدة قصيرة ، وفي وسط الصحن بحرة مستطيلة ، وفي الجبهة الجنوبية بناء مربع تعلوه قبة كبيرة بني ليكون مصلى للمدرسة . وليس لها سوى باب رئيسي واحد في منتصف واجهتها الشمالية واربعة ابواب ثانوية في جهات أخرى . وهذه العمارة مستقلة عن الأولى الغربية وتبعد عنها مسافة خمسة عشر متراً تقريباً . وليس لها سور ، إلا أنه ألصق بواجهتها الشمالية الخارجية دكاكين تؤلف الجناح الجنوبي للسوق الممتد من الشرق الى الغرب بطول خمسة وثمانين متراً . ويقال ان هذا السوق قد عمر لتزويد الحجاج الغرباء الذين كانوا يعسكرون بالمرج . ولهذا السوق جناح آخر من الدكاكين يقابل الأول يتوسطه باب واسع

«٢» عبد القادر بدران . منادمة الأطلال . ص ٣٧٨

يواجه باب المدرسة الرئيسي . وهناك باب في الجهـة الشرقية يؤدي الى السـوق فالمدرسة وقد تهدم وأعيد بناؤه في ايام مصطفى الثالث .

ويغلب على هذا البناء المدرسي طابـع البساطة والتقشف ، فهي فقـيرة بالزخارف إذا ماقيسـت بزخارف المدارس في العهدين الأيوبي والمملوكي . ومـع ذلك لايخلو مصلاها من ألواح القاشاني الجميلة والنوافذ الجصية المطعمة بفصوص الزجاج الملون [١] .

وقد بنيت المدرسة متأخرة عن التكية ممـــا دعا بعض المؤرخين كسوفاجة [٢] ومحمد أديب الحصني [٣] الى الحاقها بزمن السلطان سليم الثاني واطلاق اسم « المدرسة السليمية » عليها . إذ تم بناؤها في عام ٩٧٤ هـ وهي السنة التي توفي فيها سليمان وخلفه من بعده ابنه سليم الثاني . والدليل على أنهـــا من عمل سليمان ان المؤرخين المعاصرين أشاروا الى ان سليمان أمر ببناء تكية ومدرسة [٤] . بينما المؤرخون المعاصرون لابنه سليم كالغزي والقرماني لم يذكروا شيئاً عن قيام هذا السلطان بأي عمل عمراني في دمشق مع أنهم يتكلمون بالتفصيل عن حياته واهتموا بالمنشآت العمرانية والمدارس التي شيدها هو وولاته .

وهكذا فالعثمانيون خلفوا في نصف القرن الاول من احتلالهم لسورية آثاراً فخمة في عاصمتها دمشق . ولم يهتموا ببناء المساجد والتكايا والمدارس فحسب بل أخذوا ببناء المنازل لأنفسهم في مختلف المدن السورية . وقـد توسعت

---

(١) عبد القادر الريحاوي - التكية السليمانية . مجلة الحوليات الاثرية . مديرية الآثار بدمشق .

(٢) Sauvaget : Les Monuments Historiques de Damas. p. 81

(٣) محمد اديب الحصني . منتخبات التواريخ لدمشق . ج ٣ ص ٩٦٧

(٤) الغزي . الكواكب السائرة . ج ٣ ص ١٥٧

هذه المدن في عهدهم عما كانت عليه حتى أنه اضيف في زمنهم عدة احياء الى دمشق مثلاً ومثل هذا في حلب [1] . وظهر ذاك التوسع منذ عهد السلطان سليمان إذ اتخذت الطبقة الحاكمة مقراً لسكناها منطقة القنوات قرب القلعة . وقد ابدى « بيلون » اثناء زيارته لمدينة دمشق اعجابه بأبنيتها ولا سيما الساحات المكشوفة فيها [2] . فالبيت الشامي كان يتألف من قسم امامي يخصص عادة لاستقبال الضيوف من قبل رجال المنزل ويسمى « السلاملك » وقسم داخلي يسمى « الحرملك » وتقيم فيه النساء مع الأولاد ويخصص للحياة الأسرية . ويضم باحة سماوية واسعة هي التي أشار اليها « بيلون » تتوسطها بركة ماء . وجميع المنازل من طابق واحد تقريباً ما عدا بعض الغرف الملحقة ببعض الدور أحياناً . ولم تكن منازل الطبقة المتوسطة تحوي حمامات في داخلها ، اذ كان الأهالي ينصرفون الى الحمامات العامة ، وكان عددها كبيراً جداً في مختلف المدن السورية وكانت هي الأخرى توقف لها الأوقاف [3] . أما الطبقة الغنية والأرستقراطية فكانت تشيد حماماتها في منازلها ، وكان يعتبر هذا الأمر عند عامة الناس عملاً عظيماً . ويصف الغزي احدى تلك العمارات في منتصف القرن العاشر للهجرة قائلاً : « وعمر احمد القزويني (أحد العلماء) عمارة عظيمة وجعل فيها حماماً وبيوتاً كثيرة بالسقوف الحسنة والأرائك العظيمة وغرس أشجاراً مشتملة على فواكه وزين ارضها بالزراعة والرياض والرياحين ومات وأرباب الصنائع يشتغلون عنده في انواع العمائر [4] » .

«١» ابتدىء في هذه الحقبة ببناء منطقة الميدان جنوبي دمشق لاهميتها للحجيج الدمشقي .

«٢» Belon De Mans : les observations .. P. 150

«٣» Laoust : Les Gouverneurs de Damas .P. 186

. لقد بنى الوالي لالا مصطفى باشا حماماً في سوق السروجية قرب القلعة لامثيل له.

«٤» الغزي ـ الكواكب السائرة . ج٢ ص ١١١

والى جانب الابنيـــة السكنية شجع العثمانيون بناء الاسواق والخانات للتجارة . وتشاهد بخاصة في حلب حيث كانت مركزاً كبيراً للتجارة في القرن السادس عشر ، وكذلك في دمشق . ومن هذه الأسواق والخانات سوق لالا مصطفى باشا الذي بناه والي دمشق المسمى بهذا الاسم ، وقد بني قرب قلعـــة دمشق[1] وهو اليوم سوق كبيرة للخضراوات والفواكه . وخان الزيت ، وقد جعلت الدكاكين فيه تنفتح على رواق مقبب يحيط بالباحة فيه عشرون قبيبة . وكان الى جانب الخان اصطبل ولكنه زال اليوم[2] .

وقد تبع ازدهار العمران في مطلع العهد العثماني واهتمام العثمانيين بالزخرفة القيشانية نمو صناعة الخزف عامة . حتى ان الواح القاشاني التي جمّل بها السلطان سليمان مسجد الصخرة في القدس تنسب الى دمشق بل اضيف الى ذلك انه كان هناك قرب المسجد الأقصى مصنع له كامل الأدوات في عهد سليمان[3] .

ويمتاز الخزف الذي ينسب الى دمشق عن الخزف التركي الصنعة بأن اللون الأرجواني الفاتح حل محل الأحمر ، كما تتميز زخارفها برشاقتها وتأنقها وسيادة التعبيرات المزهرة الكبيرة فيها . وفي الحقيقة هناك تشابه كبير بين عجينة الخزف الذي ينسب الى دمشق وذاك المصنوع في بروسة ، كما أن التماثل قائم في القشرة الناصعة البياض التي تكسى بها العجينة . إلا انه يفرق عنه بالألوان المنتقاة وبخاصة منها اللون البنفسجي والزخارف السمكية (على شكل قشور السمك) التي تختص المدرسة السورية بها دون غيرها من المدارس[4] .

«١» Laoust : Les Gouverneurs de Damas. P. 186

«٢» Sauvaget: Les Monuments Historiques de Damas. p.83

«٣» محمد اديب الحصني . منتخبات التواريخ .ج٣ . ص ١١٣٥ .

«٤» زكي محمد حسن (فنون الاسلام) . ص ٣٤٠ يرد بجعل التشابه بين الخزف الدمشقي وخزف مدينة ازنيق في آسية الصغرى اوضح مما هو عليه بين خزف بروسة ودمشق . أي يجعله مقارناً لافضل خزف كانت تنتجه البلاد العثمانية .

أما بقية الصناعات الفنية التي اشير اليها والتي ارتقت رقياً كبيراً في عهد المماليك كتزيين الزجاج والنسيج فقد انحطت عن عهودها السابقة اي انها فقدت اتقانها ودقتها ولو ان الكمية التي كانت تنتجها لم تتضاءل .

وهكذا يبدو ان الحركة الفنية التي بدأت تخبو في سورية منذ القرن التاسع الهجري قد دخلتها عناصر جديدة بعد الفتح العثماني . ولكن هذه العناصر لم تتمكن من اعادتها الى اصالتها المتألقة السابقة اذ ان المدرسة الجديدة لم تؤد الى تفاعل حار مع المدرسة السورية القائمة بل طغت عليها . واذا كانت المدرسة العثمانية قد خلفت آثاراً معمارية فنية ، أنيقة ورشيقة في هذه الحقبة من الزمن في سورية فهي آثار تبدو غريبة وجديدة على فن المعمار السوري . واذا لم يكن السوريون قد تمثلوها بعد في زمن السلطان سليمان لأن التغيير كان فجائياً ولم يمر بمرحلة تطور فانهم تبنوها مع الزمن وطبعت مختلف ابنيتهم في القرون التالية . ورغم عدم الابداع الفني السوري البحت في زمن سليم وسليمان فانه يمكن القول بأن المعماريين السوريين واصحاب الصنائع المختلفة قد اسهموا في انتاج ماخلفه العثمانيون في نصف القرن هذا من فن رفيع تمثل في المساجد والتكايا والمنازل .

★ ★ ★

خاتمـــة

وهكذا ، وبعد مقاومة طويلة وقفت فيها سورية صادة عن العالم العربي خطر الغزو الخارجي الاوربي والآسيوي ، سقطت في ايدي الأتراك العثمانيين في الربع الأول من القرن العاشر الهجري . وكان احتلالها فاتحة لضم جميع أجزاء العالم العربي الى الدولة الجديدة ، وكأنها كانت في مقاومتها حافظة له وكذلك في انهيارها ، اذ عادت للعالم العربي وحدته وقضي على عوامل الانفصال التي كانت تمزقه .

ولم تعد سورية حدا للامبراطورية الجديدة كما كانت في عهد المماليك وذلك لامتداد الامبراطورية العثمانية امتداداً واسعاً وفسيحاً ، كما أنها لم تعد تتمتع بنفس المكانة التي كانت عليها في نطاق الامبراطورية المملوكية السابقة : فقدغدت مجموعة من الولايات البعيدة عن العاصمة ، وتنحصر أهميتها بقربها من المدينتين المقدستين وبكونها مركز انطلاق الحجيج ، وأرضاً ذات قدرات اقتصادية عدة. ويعزو كثير من المؤرخين الضعف الذي انتاب سورية خلال الحكم العثماني إلى الحكم نفسه الذي لم يكترث إلا بجمع المال ، ولم ينظر البتة إلى مصلحة السكان ، وحرم سورية من الاتصال بالعالم الخارجي ، فتقلصت حيويتها وأغلقت على ذاتها. وفي الحقيقة إن بلاد الشام كانت تعاني التدهور – كما اشير سابقاً – منذ مطلع القرن السادس عشر وقبل الاحتلال العثماني لها ، وعندما أتت الادارة العثمانية فانها أخفقت في بث الحياة في جنبات المقاطعات العربية واخراجها من حياة الركود التي

بدأت تنغمس فيها على الرغم من ازدهارها الأوجي في عهد السلطان سليمان. وبذلك كانت سبباً غير مباشر في انغلاقها على نفسها وعدم اتصالها بالعالم الخارجي ولا سيما الاوربي منه. فالدولة العثمانية لم تعمل على إيجاد حواجز او سدود بين سورية والعالم الاوربي ولا أدل على ذلك من وفود السياح الاوربيين والتجار الذين تدفقوا إليها بأعداد كبيرة اثناء الحكم العثماني، فانغلاق المجتمع العربي عن التأثيرات الخارجية لم يكن في الواقع انغلاقاً آتياً من خارج المجتمع نفسه او مفروضاً عليه وإنما كان انغلاقاً داخلياً من المجتمع على نفسه، وذلك خوفاً على قيمه - وان كان الكثير منها قد بلي -، وحفاظاً على ركائزه من ان تقتلعها ريح خارجية أكانت عثمانية او اوربية. فالمجتمع العربي عند الاحتلال العثماني كان ضعيفاً إلا انه لم يستسلم لفكرة ضعفه هذا وظل يغذي شعوره السابق بالقوة والفخر. ومن هنا نصل إلى ان الدولة العثمانية التي يعزى اليها دوماً حماية المجتمع العربي الاسلامي في سورية والمناطق العربية المجاورة من التغلغل الاوربي، ليست في الواقع هي التي قامت بهذه المهمة وإنما المجتمع نفسه هو الذي حمى ذاته بذاته. ولم تكن حمايته في احياء نفسه، ودفع قواه قدماً ومجابهة مشكلاته، وإنما بتجميد عاداته وتقاليده وقدراته. وإذا كان قد سقط متخاذلاً امام الجيوش العثمانية لأنه فقد قوى المقاومة المسلحة الخارجية، فانه بقي محافظاً على قواه الداخلية لمقاومة سلبية وصامتة ضد اي تغلغل أجنبي عميق في كيانه. ولقد شعر العثمانيون على الرغم من تماثلهم في الدين مع غالبية سكان سورية والوطن العربي، بهذه المقاومة الصامتة، وبهذا التجميد الذاتي ولذا فانهم كانوا يحسون ان هذا الجزء من امبراطوريتهم عبء ثقيل على اكتافهم او هو كحجر طاحون معلق في رقابهم [1].

وإذا كانت سورية لم تجد في الاحتلال العثماني لها صدمة توقظها نحو نهضة ذاتية تحرك مجتمعها وتسيره الى الأمام، ولم تر في الثقافة العثمانية ما يمكن أن يملأ

«١» Toynbee : A. Study of History. Vol 1 . p . 395

الفراغ الذي أخذت تتحسسه من الناحية الفكرية ، فان العثمانيين بالمقابل لم يجدوا فيها رصيداً ثقافياً يمنحهم الغذاء الفكري الكافي . فقد اعتادوا أن يستمدوا أسباب مدنيتهم من المجتمع الايراني في فارس ، الا ان النزاع بينهم وبين الصفويين قضم جذور الثقافة العثمانية ، وجفف قنوات الري الفكري . وكان من المنتظر أن يجد العثمانيون في سورية ومصر ما يعوضهم عن الخسارة الثقافية التي منوا بها ، ولكن الحضارة العربية الاسلامية آنذاك كانت غير قادرة على أن تحل محل الثقافة الايرانية في حياة العثمانيين ، لأنها أولاً حضارة لم يستقوها في السابق من مصدرها العربي وانما عن طريق المجتمع الايراني ، وبذلك بقيت بأعماقها غريبة عنهم على الرغم من احترامهم وتقديرهم لكل مقوماتها . وثانياً لأن هـذه الحضارة كانت تمر بمرحلة « جمود وتجميد » . ولكن هذا لا يمنع من القول ان احتلال العثمانيين لسورية والمقاطعات العربية كان له أثر ديني وفكري عميق على العثمانيين لا بد للعرب المعاصرين من دراسته وبحث آثاره .

ومن كل ما ذكر يتضح أن الاحتلال العثماني لسورية بكل أطره وتنظيماته كان سطحياً ، فلم يتغلغل الى أعماق مجتمعها ، ولم يبدد الطاقات العربية الكامنة التي تقوقع عليها . فعندما ستضعف الدولة العثمانية ، ويتحدى الاستعمار الغربي هـذا المجتمع تحدياً خطيراً بمحاولته النفوذ الى داخله فانه سيخرج من سلبيته ويفتق القوى الحياتية الكامنة فيه التي ستكوّن مسيلة نهضة عربية جديدة .

المصادر والمراجع

ابن أياس

(١) بدائع الزهور في روائع الدهور (٣) أجزاء ـ القاهرة ١٣١٢ﻫ

(٢) بدائع الزهور في روائع الدهور الجزء الثالث والرابع ـ تحقيق محمد مصطفى ـ ١٣٧٩ ﻫ ، ١٩٦٠ م .

ابن الشحنة الحلبي الحنفي

الدر المنتخب في مملكة حلب ـ بيروت ١٩٠٩ .

ابن تغري بردي

النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة الأجزاء ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، مطبعة دار الكتب في السنوات ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٦ على الترتيب (والأجزاء ٥ ، ٦ ، ٧ كاليفورنيا السنين على التوالي ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ ، ١٩١٥ ـ ١٩٢٣ ، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) .

ابن حجر العسقلاني

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٤) أجزاء ـ الهند حيدر آباد ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠ ﻫ .

ابن زنبل

تاريخ السلطان سليم مع قانصوه الغوري جزءان ـ مخطوط في دار الكتب المصرية ـ تحت الرقم (٤٨)

ابن طولون : محمد بن علي بن طولون المتوفي سنة ٩٥٣ هـ

(١) تاريخ مصور عن مخطوط توبنغر في ألمانيا ـ في دار الكتب المصرية تحت الرقم (ح ١٢٤٧١) ترقيمه غير منتظم ــ وهو الذي حققه السيد محمد مصطفى تحت عنوان :

(٢) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان. جزءان نشرهما محمد مصطفى القاهرة ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ .

(٣) اعلام الورى فيمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى. المكتبة الظاهرية حققه محمد أحمد دهمان . دمشق ١٩٦٤ .
أخذت المعلومات منه ولمّا يزل مخطوطاً .

(٤) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية جزءان ــ دمشق ١٩٤٧-١٩٥٠.

ابن يحيى صالح

تاريخ بيروت مع ملحق ابن سباط ـ بيروت ١٩٢٧ .

أبي راشد : حنا

جبل الدروز ــ القاهرة ١٩٢٥

آصاف يوسف بك

تاريخ سلاطين آل عثمان من أول نشأتهم حتى الآن ــ هولاندة ١٩١٩.

الأسدي المعروف بابن قاضي شهبة المتوفي سنة ٩٥١ هـ

الأعلام بتاريخ الاسلام (ويسمى ذيل تاريخ الاسلام) ـ (٧) أجزاء مخطوط في دار الكتب المصرية تحت الرقم ٣٩٢ .

أبو الفداء

تقويم البلدان ــ باريس ١٨٥٠

أبو العلا العفيفي

الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ــ القاهرة ١٣٦٤ هـ ــ ١٩٤٥ م .

بدران عبد القادر
منادمة الأطلال ومسامرة الخيال – طبع تحت رعاية الأمير الكويتي
لم يذكر تاريخ الطبع .
البديري الحلاق
حوادث دمشق اليومية من ١١٥٤ هـ – ١١٧٤ هـ – حققه الدكتور
أحمد عزة عبد الكريم – القاهرة ١٩٥٩ .
بروكلمان كارل
الأتراك العثمانيون وحضارتهم (من تاريخ الشعوب الاسلامية) – دار
العلم للملايين بيروت ١٩٤٩ .
البوريني الحسن
تراجم الأعيان في أخبار أبناء الزمان – مخطوطة في دار الكتب
المصرية تحت الرقم ٥٧٦ تاريخ . طبع الجزء الأول بتحقيق صلاح
الدين المنجد – دمشق ١٩٥٩ .
بيهم محمد جميل
فلسفة التاريخ العثماني – بيروت ١٩٢٥
الجبرتي
عجائب الآثار في التراجم والأخبار – (٤) أجزاء – بولاق ١٢٩٧ هـ .
جمال نامق
عهد الفتح (مترجم) : وقائع عصرية جرت بلتقى قارتين – ترجمة
عبد العزيز أمين الخانجي – مطبعة التوفيق الأدبية . لم يذكر التاريخ
جودت أحمد
تاريخ (ترجمة عبد القادر دنا) الجزء الاول – بيروت ١٣٠٨ هـ .
جودت محمد
الفتيان الاخية – استامبول ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢ م .

الحسني علي
تاريخ سورية الاقتصادي ـ دمشق ١٣٤٢ هـ .
الحصني محمد أديب
منتخبات التواريخ لدمشق ـ (٣) أجزاء ـ دمشق ١٩٢٧
الحنبلي ابن عماد
شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨) أجزاء ـ القاهرة ١٨٥١م
الدبس يوسف
تاريخ سوريا (٧) أجزاء ـ بيروت ١٩٠٣
الدمشقي الانصاري المتوفي ٧٢٧ هـ
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ بترسبورغ ١٨٦٢
ميخائيل بريك
تاريخ الشام (١٧٢٠ ـ ١٨٨٢) ـ حريصا ١٩٣٠ .
دروزة محمد عزة
العرب والعروبة ـ الجزء الاول : حقبة التغلب التركي ـ دمشق ١٩٥٩
ديماند
فنون الاسلام . ترجمة أحمد محمد عيسى ـ القاهرة ١٩٥٤ .
دربان يوسف
نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية ـ بيروت ١٩١٩
الذهبي
دول الاسلام ـ الهند حيدر آباد ١٣٣٧ هـ
الريحاوي
(١) التكية السليمية ـ نشرة الابنية الاثرية الصادرة عن مديرية الآثار في دمشق .

(٢) التكية السليانية ـ مجلة الحوليات الاثرية الصادرة عن مديرية الآثار بدمشق ـ دمشق ـ المجلد السابع ـ ١٩٥٧ .

زيادة : محمد مصطفى

نهاية السلاطين المماليك في مصر . المجلة التاريخية ـ المجلد الرابع العدد الاول مايو ١٩٥١ .

زيدان . جرجي :

تاريخ آداب اللغة العربية ٤ أجزاء . الطبعة الثالثة ١٩٣٦ .

الزين أحمد عارف

تاريخ صيدا ـ صيدا ١٩١٣

السخاوي : شمس الدين

الضوء اللامع من أهل القرن التاسع ـ (١١) مجلداً ـ القاهرة ١٣٥٣ هـ

سعد الدين

تاج التواريخ (بالتركية) استامبول ١٢٧١ هـ .

السلاوي يحيى

عقد الجمان في خلاصة تاريخ بني عثمان ـ استامبول ١٣١٣ هـ .

السودا يوسف

في سبيل لبنان ـ الاسكندرية ١٩١٩

الشدياق طنوس

اخبار الاعيان في جبل لبنان ـ بيروت ١٨٥٩

الشهابي الامير حيدر

تاريخ الامير بشير مع حواشي نعوم مغبغب (٣) اجزاء . مصر ١٩٠٠

العارف عارف

تاريخ القدس ـ دار المعارف بمصر ١٩٥١

ح العريني الباز

(١) الاقطاع في الشرق الاوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى - فصل من حوليات كلية الآداب العدد الرابع يناير ١٩٥٧

(٢) الفارس المملوكي - نشرة مستخرجة من المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

العمري

(١) مسالك الابصار في ممالك الامصار - مصر ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤م

(٢) التعريف بالمصطلح الشريف - مصر ١٣١٢

عيسى بك احمد

تاريخ البيمارستانات في الاسلام - دمشق ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م

علوان الشيخ

نسمات الاسحار في كرامات الاولياء والاخيار - مخطوطتان في دار الكتب الظاهرية تحت الرقم (عام ١٤١٦ تصوف ٩٨) (عام ١٤١٥ تصوف ٩٧)

الغزي كامل الحلبي

نهر الذهب في تاريخ حلب - حلب. لمذكر التاريخ - (٣) اجزاء

الغزي نجم الدين

الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة - (٣) اجزاء - بيروت ١٩٤٥ ، جونية ١٩٤٩ ، حريصا ١٩٥٩

القرماني

أخبار الدول وآثار الاول - مخطوط في دار الكتب المصرية تحت الرقم ٢٦٢٦

القساطلي

الروضة الغناء في دمشق الفيحاء - بيروت ١٨٧٩ م

القلقشندي

صبح الاعشى في صناعة الانشاء - القاهرة ١٩١٤ — ١٩٢٢

كرد علي محمد

(١) خطط الشام ٦ أجزاء - دمشق ١٩٢٥— ١٩٢٨

(٢) غوطة دمشق — دمشق ١٩٤٩

كيرك

موجز تاريخ الشرق الاوسط (ترجمة عمر الاسكندري ومراجعة الدكتور سليم حسن) القاهرة ١٩٥٧

لبيب حسين

تاريخ الاتراك العثمانيين — (٣) اجزاء — مصر ١٩١٧

محمد بديع شريف — زكي المحاسني

دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة - دار المعارف بمصر ١٩٥١

محمد حسن زكي

فنون الاسلام - القاهرة ١٩٤٨

محمد فريد بك

تاريخ الدولة العلية العثمانية - مصر ١٨٩٦

المحبي ، محمد الأمين

خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ٤ أجزاء - القاهرة ١٢٨٤ هـ

المرادي

سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر (٤) اجزاء ـ القاهرة ١٢٩١هـ (١٨٧٤ م ، ١٨٨٣ م)

المعلوف: عيسى اسكندر

(١) صناعات دمشق ـ مجلة الغرفة التجارية الدمشقية ـ دمشق ١٩٢٢

(٢) تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ـ مصر ١٩١٧

(٣) دواني القطوف في تاريخ بني معلوف ـ بعبدا ١٩٠٧-١٩٠٨ م

مشاقة ميخائيل

مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ـ مصر ١٩٠٨

المقريزي

(١) الخطط ، مجلدان ـ القاهرة ١٢٧٠

(٢) اغاثة الأمة بكشف الغمة (قام على نشره الكتوران زيادة والشيال) ـ القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٤

المنجد صلاح الدين

(١) المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني (محاضرات ألقيت سنة ١٩٥٨ على طلبة قسم التاريخ معهد الدراسات العربية العليا ، جامعة الدول العربية) . طبعت في بيروت ١٩٦٤ .

(٢) ولاة دمشق في العهد العثماني . مخطوط للقاري نشره المنجد . دمشق ١٩٤٩ .

موير

(١) تاريخ دولة المماليك في مصر ١٢٦٠ - ١٥١٧ (ترجمة محمود عابدين وسليم حسن) ـ القاهرة ١٩٢٤ .

النعيمي

الدارس في تاريخ المدارس - جزءان. حققه جعفر الحسني - دمشق. المجمع العلمي ١٣٦٧ - ١٩٤٨ م

النمر احسان

تاريخ جبل نابلس والبلقاء - دمشق ١٩٣٨

النويري

نهاية الارب في فنون الادب - الجزء الثامن - الطبعة الثانية. دار الكتب . ١٩٢٩

* * *

المصادر والمراجع الاجنبية

— ARNOLD SIR. T. W: The Caliphate - Oxford 1924.

— BELIN : Du Régime des fiefs militaires dans l'Islamisme principalement en Turquie. Journal Asiatique ser. 6. 1870.

— Essai sur l'histoire économique de la Turquie. Journal Asiatique Paris 1864.

— Étude sur la propriété foncière en pays Musulmans. Journal Asiatique Paris 1861.

— BERNARD. A : La Syrie et les Syriens - Paris 1919.

— BONNÉ. A : State and Economics in the Middle - East. London 1959.

— The Economics Development of the Middle - East. London 1945.

— BOURON : Les Druzes - Paris 1930.

— BRAUDEL. F : La Mediterrané et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II - Paris 1949.

— BROCQUIÈRE : Travels - London 1848.

— BROWNE. E. G : A Literary History of Persia — (4) vols - I & II London 1908, 1906 and vol III & IV in 1920, 1924.

— CAMBRIDGE MODERN HISTORY : The Renaissance Cambridge 1907.

— CASTLE. W : Syrian Pageant - St Alba 1945.

— CHARLES ROUX : Les Échelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe Siècle - Paris 1928.

— CHATILA. KH : Le Mariage chez les Musulmans en Syrie. Paris 1934.

— DAGHESTANI. K : La Famille Musulmane contemporaine en Syrie - Paris 1932.

— DAMBMANN & NOEL VERNEY : Les Puissances étrangères dans le Levant, en Syrie et en Palestine - Paris 1900.

— DEMONBYNES GAUDEFROY : La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes - Paris 1923.

— D'OHSSON MOURADJA : Tableau général de l'Empire Ottoman. Paris 1788 - 1824.

— DJEVAD. A : État Militaire Ottoman. vol II Constantinople 1882.

— DJUVARA : Cent Projets de partage de la Turquie. Paris 1914.

— DIGEON. M : Canoun-Namé ou édits de Sultan Soliman in « Nouveaux contes turcs et arabes ». vol II Paris 1781.

— DRIAULT : La question d'Orient - Paris 1905.

— DUSSAUD. R : Topographie historique de la Syrie Antique et Mediévale - Paris 1927.

— ÉCOCHARD & LE COEUR : Les Bains de Damas. Beyrouth 1942.

— ENCYCLOPÉDIE DE L'ISLAM : 1 ère édition. 4 vol & supp

— ENCYCLOPEDIA OF ISLAM : ED by A. J. Wensinck 4 vols & supplement. Leiden 1913 - 1938.

— ENCYCLOPEDIA BRITANNICA.

— ENCYCLOPEDIA OF THE SOCIAL SCIENCES : E. Seligman & Alvin Johnson - New York 1949.

— FARLEY : Two years in Syria - London 1859.

— FISHER.S : Social Forces in the Middle East. New York 1955.

— The Foreign Relations of Turkey. 1481 - 1512. Urbana Uni. 1948.

— FRIDDEN ROBIN : Syria, an Historical Appreciation. London 1655.

— GIBB H. A. R & H. BOWEN : Islamic Society & Hre West. 2 vols. Oxford 1957.

— GRAETZ. H. H : History of the Jews. (5) vols. London 1891 - 1892.
— HAKLUYT VOYAGES : Every man's library. (8) vols London .
— HALLIL GANEM : Les Sultans Ottomans. (2) vols - Paris 1901 - 1902 .
— HASLUK : Christianity & Islam under the Sultans. (2) vols Oxford 1929 .
— HAMMER - PURGSTALL : Histoire de l'empire Ottoman. traduit par J. J. Hellert. (18) vols - Paris 1835 - 1845 .
— HEYD . W : Histoire du commerce du Levant. (2) vols. Leipzig 1936 .
— HEYD. URIEL : Ottoman Documents on Palestine. Oxford 1960 .
— HOLE EDWYNE : Syrian Harvest - London 1956 .
— HITTI : History of Syria - London 1951 .
— HOURANI A . H : Syria and Lebanon - London 1945 .
— HOSKINS : The Midlle East Problem Area in World Politics Noy York 1955 .
— HUART : Histoire des Arabes - Paris 1922 .
— HUREWITZ. J. C : Diplomacy in the Near and Middle East A documentary record. 1535 - 1914.Princeton 1946 .
— ISMAIL . A : Histoire du Liban au XVIIe siècle à nos jours - Paris 1955 .
— JACQUOT : État des Alaouites - Paris 1929 .
— DE LA JONQUIÈRE : Histoire de l'empire Ottoman depuis les origines jusqu'au traité du Berlin. — Paris 1881 .
— KAMMERER : La Mer Rouge,l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité. (2) vols - le Caire 1920 .
— LAMBTON : Landlord and Peasant in Persia - Oxford 1953 .

— LAMMENS. H : La Syrie. Précis historiqne. (2) vols. Beyrouth 1921 .

— LAVISSE & RAMBAUD : Histoire Générale. Tome IV. l'Empire Ottoman 1481 - 1566. Paris 1893 - 1905 .

— LAOUST. H : Les Gouverneurs de Damas sous les Mamelouks et les premièrs Ottomans - Damas 1952 .

— LEWIS, BERNARD : Notes & Documents from the Turkish Orchives Jerusalem 1952 .

— LYBYER: The Goverment of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificient. Harvard uni . 1913 .

— MALCOLM : History of Persia - London 1829 .

— MANTRAN . R . S . & JEAN SAUVAGET : Réglements fiscaux Ottomans - les Provinces Syriennes - Beyrouth 1951 .

— MOUTRAN. N : La Syrie de demain - Paris 1916 .

— DE MANS. BELON : Les Observations de plusieurs singularités et choses mémorables trouvées en Grèce, Asie, Inde, Egypt, Arabie et autres pays étrangers. Paris 1555 .

— DE LA MOUCHE : Histoire de la Turquie -

— G . MARÇAIS : L'art de l'Islam - Paris. 1927 .

— MASSÉ HENRI : Selim I en Syrie d'après le Selim - Namé . Extrait des mélanges Syriens offerts à M . Dussaud -

- نشرة صغيرة في معهد الدراسات العربية تحت الرقم ت ٦٣٢ .

— MASSON, PAUL : Histoire du commerce français dans le levant au XVIIe siècle. Paris 1897.

— MUIR : The Galiphate, its rise, decline and fall - Edimburgh 1924 .

— PERRIER. F : La Syrie sous le Gouvernement de Mehemed Ali - Paris I842 .

— PIRENNE : Les Grand Courants de l'Histoire (5) vols vol II & III - Paris 1948 .

— POLIAK : Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon 1250 - 1900. London. under the Patronage of Royal Asiatic Society 1939 .
— LANE POOL. S : History of Egypt - Loudon 1901 .
— PORTER : Five Years iu Damascus - London 1870 .
— PRICE : Mahomadan History from the death of the Arabian Legislator to the Accession of the Emperor Akbar. vol. III - London 1820 .
— PÉLISSIÉ DU RAUSAS. G. : Le Régime des Capitulations dans l'Empire Ottoman (2) vols - Paris 1902 - 1905 .
— ROYAL INSTITUTE : The Middle East : A Political and Economical Survey - London 1955 .
— ROEDERER. F : La Syrie et la France - Paris 1950 .
— SAMNÉ : La Syrie - Paris 1921 .
— SANDERSON (J) : The Travels of J. Sanderson in the Levant . Edited by sir William Foster . London 1931 .
— SAUVAGET. J. (1) : Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas - Revue des études Islam. 1934 pt. IV Paris .
— (2) : Les Monuments Historiques de Damas - Beyrouth 1932.
— (3) Alep (2) vols - Paris 1641 .
— SAUVAIRE : Description de Damas - Paris 1895 .
— SEDILLOT : Histoire de Arabes - Paris 1895 .
— STRIPLING : The Ottoman Turks and the Arabs. Urbana 1942 .
— THOUMIN : Histoire de Syrie - Paris 1929 .
— FRADIER. G : Splendeur de l'Art Turk - Le Courrier. 1953 volume VI № 3. mars .
— LE TOURNEAU : Damas de 1075 - 1154. Damas 1952 .
— TOYNBEE : Study of History (6) vols -Oxford 1945 .

— VOLNEY : Voyage en Egypt et en Syrie 1783 - 1785. (2) vols Paris an. VII.

— WARRINER,DOREEN : (1)Land and Poverty in the Middle East. London 1948 .

— (2) Economics of Peasant Farming - Oxford 1939 .

— WEULERSSE. J : Les Paysans de Syrie et du Proche Orient Tours 1946 .

— WOOD. A : A History of the Levant Company - Oxford 1935

— YANOSKY : Syrie Ancienne et Moderne - Paris 1848 .

— ZAKARIA YASSIN : Les Frontières de Syrie (Thèse pour le Doctorat présenté et Soutenu à la Faculté de droit de Paris)- Paris 1950 .

— ZIADEH, MOUSTAFA : The End of the Mamelouks - Revue de la Faculté des Arts. Université du Caire - Mai 1942.

— ZIADEH, NICOLA : (1) Syria and Lebanon - London 1956 .

— (2) Urban life in Syria under the Early Mamelouks - Beirouth 1953 .

فهـــرس عــــام

— ت —

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

* * *

— ش —

— ق —

\- ك -

\- ل -

- م -

— ن —

التصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٢٠	ذاتي	ذواتي
١٧	٩	القدس	القدس وصفد وغزة
٢٣	الحاشية (٣)	Cibb & Bdwen	Gibb & Bowen
٢٧	١٣	الجليين	الجبّليين
٣٠	الحاشية (٢)	Stri pling	Stripling
٣٢	الحاشية (٢)	ثنائها	بنائها
٣٧	٢	ففرضت	ففرضت حتى
٤٩	١١	الأرض المشاعة	الأرض المشاعة
٥١	٣	قطاع	إقطاع
٥٣	١	بيتما	بينما
٥٣	١٠	إلي	إلى
٥٤	٣	حماه	حماة
٥٤	٧	... الخ والكروم	والكروم
٥٥	٢	بحساب	بحسب
٥٦	١	واجبانهم	واجباتهم
٥٦	٤	الوردات	الواردات
٥٦	الحاشية (٢)	Egyrt	Egypt

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٠	١٣	المحرات	المحراث
٦١	١٠	الدين	الذين
٦١	٢	تسير	تشير
٦٣	١٢	أبي	أبي
٧١	الحاشية (٢)	إلي	إلى
٨٠	الحاشية (١)	Parti	Part.1.
٨١	١٣	الصحروابة	الصحراوية
٨٧	الحاشية (٢)	ص ٥٢ — ٥٧	ص ٣٢ — ٣٧
٨٨	٩	.	،
٩٣	الحاشية (١)	اقتصرت	انتصرت
٩٣	الحاشية (١)	La Hediterauie	:La Méditerranée...
٩٥	١٥	لى	إلى
٩٦	٤	مسئلون	مسؤولون
١٠١	١٩	الذان	اللذان
١٠٣	الحاشية (٤)	bowen	Bowen
١٠٥	١١	سمع	سمح
١٠٧	٦	وذلك	، ذلك
١٠٧	١١	أوروبة	أوربة
١١٥	١٢	تترك	تترّك
١١٩	١٠	الدين	الدين الاسلامي
١٢٤	٤	لطبقة	بطبقة
١٢٩	الحاشية (٣)	ص ٩٣	ص ٩٢
١٣٤	الحاشية (٣)	ibial	ibid
١٣٩	الحاشية (١)	تاويخ	تاريخ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤١	١٦	عاداتها الشتى	شتى عاداتها
١٦١	٤	وتفشيهبعضهاالآخر	بعضها الآخر وتفشيه
١٦١	٦	يتعاطاة	يتعاطاه
١٦٢	١٤	طبيق	تطبيق
١٦٦	٩	اوقف	اوقاف
١٦٧	٢	يتباحثا	يتباحثان
١٨١	٣	عربي	العربي
١٨٦	١٢	الدنيا	والدنيا
١٨٧	الحاشية (١)	أو الأخية	أو الآخية
١٨٨	٢١	من	من كان
١٨٩	٣	اللذان	اللذين
١٩٠	الحاشية (٣)	Glbb	Gibb
١٩١	الحاشية (٤)	Encyclopèdie	Encyclopédie
١٩٧	١	انحطت	انحط
٢٠٥	٤	الجموه	الجمود
٢٠٧	١١	الأيوبي	الأيوبي
٢١٠	٤	متهم	منهم
٢١٠	٢٠	الزخرفه	الزخرفة
٢١١	١٢	فتها	فنها
٢١٢	الحاشية (١)	نخفاضاً	انخفاضاً
٢١٢	الحاشية (٢)	مشامي	مشافي
٢١٩	١٠	وتترك	ويترك
٢٢٤	١٣	زخارفها	زخارفه

ثبت الموضوعات

★ ★ ★

٢٠٠٠ / ٣ / ١٩٧٣